موسوعة المرأة والجاسوسية

الدكتور صالح زهر الدين

الجزء الخامس

مركز الشرق الأوسط الثقافي

موسوعة
المرأة والجاسوسية

الدكتور صالح زهر الدين

الجزء الخامس

مركز الشرق الأوسط الثقافي

الطبعة الأولى

مركز الشرق الأوسط الثقافي
للطباعة والنشر والترجمة والتوزيع

Middle East Cultural Center
For Printing, Publishing, Translating & Distributing

الإدارة العامة:

General Management:

بيروت ـ الحدث، هاتف: ٨٨٨ ـ ٤٦١٧٧٧ ـ ٥ ـ ٩٦١ ـ فاكس: ٤٦١٩٩٩ ـ ٥ ـ ٩٦١ ـ خليوي: ٦٤٠٤٩٠ ـ ٣ ـ ٩٦١
مصر ـ الدقي، هاتف: ٠٠٢٠٢٣٣٦٥١٥٢ ـ خليوي: ٠٠٢٠١٢٦٥١٠٥٦١
سوريا ـ دمشق، هاتف: ٠٣٠ ـ ٠٢٠ ـ ٠٠٩٦٣١١٤٦٤٤٠١٠ ـ خليوي: ٩٦٣٩٤٩٩٧٧٦٤

Beirut - Hadath, Tel: 961-5-461777 - 888 - Fax: 961-5-461999, Mobile: 961-3-640490
Cairo - Dokki, 002023365152 - Mobile: 0020126510561
Syria - Damascus, 00963114644010 - 020 - 030 - Mobile: 963949997764
Web site: www.lccpublishers.tk **E-mail: lcc_ pub @ yahoo.com**

حرف الصاد

1 ـ صوفيا لونبورغ.

2 ـ صوفيا موشكات.

3 ـ الأميرة صونيا.

4 ـ صونيا بيستنيتسكيا.

صوفيا لونبورغ(*)
(Sofia Lonburg)
(- 1924)

هي إحدى جاسوسات ألمانيا الشرقية في ألمانيا الغربية. ولدت سنة 1924، وكانت تعمل في مكتب وزير الاقتصاد الألماني الغربي «مارتن بانغيمان» (كما أصبح مفوضاً أوروبياً أيضاً) عندما خرجت ولم تعد حين تركت وظيفتها لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، حيث كانت تعمل جاسوسة تحت إمرة «هانز تيدجي» (رئيس فرع مكافحة الجاسوسية في ألمانيا الغربية)، وهو الذي أوحى لها ـ كما أوحى للجاسوسة الأخرى أرسولا ريختر ـ بضرورة الهرب إلى ألمانيا الشرقية، قبل أن يقدم هو نفسه على الفرار لاحقاً. . . وفي الوقت الذي هدم فيه جدار برلين عام 1989، يقال أن صوفيا لونبورغ اعتقلت فيما بعد في منطقة برلين، في حزيران (يونيو) من العام 1991.

وعندما أيقنت المخابرات الألمانية الغربية عملية فرار صوفيا، كان لا بد لها من التحرك، لاسيما مداهمة منزلها. وهكذا وفي وقت لاحق وعندما بحثت المخابرات في شقتي صوفيا وأرسولا اكتشفت

(*) **المرجع**: جينو ڤيفا إيتيان وكلود مونيكيه «تاريخ الجاسوسية العالمية». مرجع سابق. ص322 ـ 323.

وسعيد الجزائري. مرجع سابق. ص306 ـ 307.

بعض المعدات الخاصة بالتجسس ومنها كاميرا خاصة بتصوير الوثائق ومحفظة لها جيوب سرية. وبعد تدقيق أكثر في القضيتين وقفت المخابرات مذهولة أمام ما توصل إليه التحقيق من حقائق وهي وجود خلفية (فلاش باك) وأن صوفيا وأرسولا هما في الواقع شخصيتان مزيفتان لجاسوستين تعملان «منذ زرعهما» لحساب مخابرات ألمانيا الشرقية. فقضية صونيا لونبورغ بدأت في عام 1966 عندما تقدمت مزينة شعر اسمها صوفيا لونبورغ بطلب إلى السلطات المختصة تطلب فيه منحها تأشيرة سفر إلى منطقة كولمار الفرنسية. وفي كولمار وبعد بعض الوقت أبلغت صوفيا السلطات بأنها تريد العودة إلى موطنها ألمانيا، وعادت بالفعل ولكن «التي» عادت لم تكن أبداً نفسها مزينة الشعر التي ذهبت (وهذه طريقة جديدة تكشف عن أعمال المخابرات وطريقة زرع العملاء). والمخابرات بعد التحقيق أكدت بشيء من الشعور بالفشل أن هناك تشابهاً بين الاثنين صوفيا مزينة الشعر وصوفيا الجاسوسة لكنهما مختلفتان، والقضية بمجملها هي انتحال شخصية بتدريب وذكاء وقوة قلب، حتى استطاعت أن تصبح سكرتيرة وزير الاقتصاد بانيغمان وتنال ثقته على مدى 12 سنة. وهي لم تعمل سكرتيرة مزيفة فقط بل كانت تعدّ أيضاً مقرّبةً من عائلته وتحسب كواحدة منها. ولكن هناك سؤال في القضية؟ لماذا تركت صوفيا وراءها أدوات التجسس وكان بإمكانها أخذها معها أو إتلافها؟ هل لأنها أرادت أن يعلم الجميع بقضية تجسسها على رئيسها والمحسن إليها؟ ربما. . ونذكر أن آخر ما علمته المخابرات في التحقيق عنها أنها لم تكن تتجسس فقط على الأوضاع الاقتصادية باعتبار أن رئيسها هو وزير الاقتصاد بانغيمان الذي حصل على حقيبة الاقتصاد في حكومة المستشار كول عام 1984 بعد أن كان لسنوات زعيم الحزب الديمقراطي الحر وهكذا أصبح ممثل الحزب الدائم للحزب في الحكومات الألمانية المتعاقبة.

صوفيا موشكات(*)

(Sofia Mochkatt)

(-   )

هي إحدى عميلات المخابرات الروسية. وقد قبض عليها في 27 كانون الأول (ديسمبر) 1910 برفقة آخرين كانوا قد تجمعوا لعقد اجتماع ضيق للنشطاء الحزبيين لمنظمة وارسو.

جرى تفتيش الجميع، ثم اقتيدوا تحت الحراسة المشددة إلى قسم الشرطة الكائن بمبنى البلدية. تم عزل الجميع عن بعضهم البعض فور وصولهم لتلافي أية فرصة للاتفاق فيما بينهم.

مضت ساعات طويلة من الانتظار المميت، حتى استدعيت صوفيا موشكات لاستجوابها.

صار نقيب الجندرمة في هيئته التي تبعث على الملل يوجه أسئلته التقليدية: الاسم، السن، الوظيفة، العنوان.. الخ. كان هناك ضابطان آخران يجلسان في الغرفة، يؤثر حضورهما الصامت على أعصاب صوفيا.

(*) **المرجع**: تشيكوف «دزيرجينسكي». ترجمة الدكتور سامي عمارة. دار التقدم بموسكو 1984. ص121 ـ 135.

فرغ الدركي من استيضاح شخصية صوفيا، لينظر في غموض إليها، ثم يفتح درج مكتبه ويتناول بحركة سريعة وريقات صغيرة وضعت أمامها. كانت الوريقات بخط يوسف العزيز عليها، والإطار الكرتوني الممزق لصورة رافائيل «العذراء» ومظروف عليه عنوان فرانتسيشكا جوتوفسكايا.

كانت تخشى ذلك أكثر من أي شيء آخر. تحققت تخوفاتها الرهيبة. أجبرت صوفيا نفسها بصعوبة على رفع رأسها عن المكتب، لتحدج النظر إلى وجه رجل الجندرمة. كان وجهه يتهلل بالفرحة المشوبة بالشماتة. أما الآخران فقد تشبثت أنظارهما بها على نحو يتسم بالضراوة.

أثار منظر الأعداء الذين يستعدون للاحتفال بفوزهم مشاعر الكراهية لدى صوفيا وأضفى عليها مزيداً من القوة. كلا لن تجعلهم يتمتعون بمنظرها وقد قضّتها «الأدلة المادية» الدامغة. لم تكن صوفيا تعلم بعد كيف وقع خطاب فيليكس في قبضة الجندرمة، لكنها قررت في حسم تحويل الضربة عن فرانتسيشكا.

ذكرت صوفيا بنبرة حاولت أن تتسم بأكبر قدر من الهدوء:

ـ هذه المخطوطات تخصني. ولم تكن جوتوفسكايا تعرف أي شيء عن محتويات هذا المظروف.

سارع النقيب يسألها:

ـ من كاتب المخطوطات.

نطقت صوفيا بأول اسم ورد إلى ذهنها.

ضحك الضابط قائلاً:

ـ أي كلام هذا يا مدام دزيرجينسكي. كيف يمكنك عدم معرفة خط زوجك؟ إنه معروف جيداً حتى بالنسبة لنا.

كان النقيب يمسك في يده هويتها القديمة باسم «الآنسة موشكات» والتي كانت معها عند اعتقالها. لماذا دعاها إذن بدزير جينسكايا. على أي حال كانا قد سجلا زواجهما في البلدية، علاوة على أن الجميع كانوا يعلمون بنبأ هذا الزواج.

لم يكن هناك جدوى من الإنكار، إلا أن صوفيا لزمت الصمت.

ـ لا تودين الإجابة. حسناً. سوف يجيب خبير الخطوط عن ذلك. لدينا الكثير من نماذج خط زوجك. إلى من كنت تعتزمين تسليم هذه المخطوطات؟.

ند السؤال الأخير سريعا حاداً كلسعة السوط.

ذكرت صوفيا في حسم:

ـ لن أجيب.

ـ آه... لا تودين الإجابة. حسناً. لقد أجبت عن أهم سؤال وهو أن محتويات المظروف المرسل من كراكوف إلى فرانتسيشكا جوتوفسكايا تخصك. سوف يتحتم عليك في وقت لاحق الإجابة عن أسئلة أخرى.

انتهى حديث النقيب عند هذا الحد، حيث استدعى الحرس الذي اقتاد صوفيا إلى زنزانتها.

ـ هكذا ترون أيها السادة، جدوى معرفة نفسية الخصوم. لقد كنت على يقين من أن موشكات سوف تحاول إخلاء مسؤولية جوتوفسكايا وتعترف بأن كل ما ضبط معها يخصها هي.

مضى النقيب في حديثه يقول بنبرة تنم عن رضا، فيما يتناول وثيقة أخرى من درج المكتب:

ـ لقد خسر صديقنا القديم في هذه المرة.

كانت الوثيقة عبارة عن خطاب دزيرجينسكي الذي لم يعرضه النقيب على صوفيا. وتلك كانت خدعة ماكرة لجأت إليها المباحث لانتزاع الاعتراف اللازم من المعتقلة. فقد حرر يوسف الخطاب وكأنه إلى رجل، يضمنه تعليماته بشأن تجهيز العدد 180 من جريدة «تشيرفوني شتاندار». كان يتصور الأمر على النحو التالي: إذا ما وقع الإطار الكرتوني لصورة العذراء في يد الجندرمة فإن هذا الخطاب سوف يتيح لصوفيا الفرصة لنفي أنه والمواد المرفقة يخصّها. غير أنها لم تكن تعلم بوجود مثل هذا الخطاب، ولم تستطع الاستفادة منه للدفاع عن نفسها.



جرى إيداع صوفيا موشكات وفرانتسيشكا جوتوفسكايا زنزانة واحدة بسجن «صربيا» للنساء. كانت الزنزانة صغيرة رطبة معتمة، لا يصلها الضوء إلا عبر كوة صغيرة قريبة من السقف، تغطيها شبكة حديدية، ومحاطة من أسفل ومن الجانبين بحواجز معدنية. بيد أن المرأتين كانتا مشغولتين عن ذلك بالعمل، لا يعيران منذ زمن طويل هذه المنغصات أي اهتمام. كانتا مشغولتين بعمل يبدو وكأنه لا يتفق بأي حال من الأحوال مع حياة السجن ـ بخياطة ملابس طفل صوفيا المنتظر.

كان الحمل مبرراً لنقل صوفيا إلى سجن «صربيا» من الجناح العاشر بقلعة وارسو، الذي كانت رهينته بعد أول تحقيق جرى معها في مقر المباحث. بذل محامي صوفيا جهده للإفراج عنها بكفالة نظراً

لأن السجن يعرّض صحة الطفل المنتظر للخطر. غير أن طلبه رفض. استطاع بصعوبة نقلها إلى سجن النساء حيث تتولى الحراسة سجانات يمكنهن وكذلك المعتقلات الأخريات تقديم العون إلى الأم حين تضع طفلها.

كانت ثمة مفاجأة تنتظرها في «صربيا». اندفعت تتعلق برقبتها فرانتسيشكا بمجرد دخولها الزنزانة. راحت تقول باكية:

- إني أنا المسؤولة عن كل شيء.

وأخيراً حين عادت جوتوفسكايا إلى هدوئها واستعادت قدرتها على طرح الأمور بوضوح استطاعت صوفيا تدريجياً استيضاح جوانب الصورة: تسلمت فرانكا في صباح 27 كانون الأول (ديسمبر) خطاباً من كراكوف. وبدلاً من تمزيق المظروف وإحراقه على التو، والتوجه بالإطار الكرتوني فقط إلى شقة موشكات، قامت بالذهاب إلى هناك تحمل معها المظروف غير المفضوض. كانت التعليمات تقضي بأنه في حالة عدم وجود صوفيا يجب ترك الإطار الكرتوني والانصراف فوراً، أما فرانكا فقد دلفت إلى غرفة الطعام وجلست إلى المائدة تكتب خطاباً تطلب فيه من موشكات توضيح بعض الفقرات الغامضة عليها في كتيب «ماذا نريد؟» المحظور تداوله.

وعلى هذا الوضع باغتتها الجندرمة.

- الوضع سيىء يا فرانكا. هل تدركين ماذا فعلت. لو أحرقت المظروف وانصرفت في الوقت المناسب، ما كانت الجندرمة في أغلب الظن لتعير اهتماماً إطار صورة العذراء أما الآن فلديهم الأدلة على جرم كل منا. والأهم من كل شيء لن تصدر جريدة الحزب إلى جانب ضياع الصلة بالمجلس المركزي بسبب سلوكك الأرعن.

كانت الإجابة الإجهاش في البكاء والدموع مرة أخرى.

كانت الزنزانة بالجناح العاشر أكثر اتساعاً وإضاءة، والتغذية أفضل عما هو الحال في «صربيا». بيد أن الحبس الانفرادي الذي استمر ثلاثة أشهر كان أشد وطأة على موشكات. لقد عانت وقاست هناك من كل ما يمكن أن يخطر بالبال. لم يسمحوا لأبيها بزيارتها إلا بعد شهر. جرى اللقاء عبر حاجزين من الأسلاك فيما كان يجلس شرطي إلى جوار صوفيا يقطع حديثها مع أبيها بمجرد أن يتعدى إطار الشؤون العائلية. كان سيجيزموند موشكات مكتئب النفس. فالجناح العاشر ليس مجرد سجن! إنه مخصص لأخطر أعداء القيصر. ولم يكن الأب راضياً عن أن تحظى ابنته بمثل هذا «الشرف». فبسبب اعتقال الابنة فقد موشكات عمله واختصم مع زوجته. كان الرجل الهادىء الطباع دائماً والمثقل بهموم الحياة حاسماً هذه المرة في رده حين تعرض للوم زوجته مؤكداً أنه لن يترك صوفيا في محنتها، وغادر المسكن احتجاجاً، ليعيش لدى شقيقته.

وفي اليوم التالي للزيارة كتب سيجيزموند موشكات خطاباً إلى صهره فيليكس دزيرجينسكي في كراكوف، يقول له في ختامه: «... لقد تعذبت طويلاً، وعملت كثيراً، وقاسيت أكثر... غالباً ما كانت محاولاتي تبدو ضئيلة تتسم بالبلاهة. ولو كتب لي أن أبدأ حياتي من جديد، لبدأتها على نحو آخر. لقد أضفت عليّ صوفيا الكثير، وسمت بمشاعري، لأغدو منذ ذلك الحين إنساناً حقيقياً...».

طالع دزيرجينسكي عدة مرات خطاب موشكات. نعم، لم يمنحه القدر زوجة صالحة وحسب، بل وحماً جيداً أيضاً.

صادفت صوفيا في سجن «صربيا» أناساً يعرفون فيليكس خير معرفة. وكانت الأحاديث مع هؤلاء الناس تضفي عليها سعادة بالغة.

صار يقينها يتزايد من مدى كثرة أولئك الذين استمالهم إلى النضال الفعّال في سبيل قضية الطبقة العاملة، بتأثيره الشخصي عليهم.

تيسر سبيل وصول الخطابات من وإلى فيليكس بعيداً عن أعين الرقابة. كان ذلك يتحقق أثناء زيارات الأب. كانت الزيارة في هذا السجن أيضاً تتم عبر حاجزين مكسوين بشباك سلكية يذرع المسافة التي تفصل في ما بينهما أحد الحراس. غير أن محامي صوفيا استطاع الحصول على إذن يسمح بأن تتم الزيارة عبر حاجز واحد بعد أن قدم شهادة طبية تبثت ضعف سمع سيجيزموند موشكات. كان فيليكس يبعث برسائله على عنوان المطبعة التي التحق موشكات للعمل بها منذ حين، ليتولى بدوره تسليمها إلى ابنته ملفوفة في أنبوب أثناء الزيارة. وعلى نفس النحو كانت صوفيا تسلم رسائلها ليبعث بها أبوها إلى فيليكس على عنوان الطالب برونيسلاف كارلوفيتش بجامعة كراكوف.

علم فيليكس ادموندوفيتش بنبأ القبض على زوجته من جانيتسكي الذي سافر إلى كراكوف فور القبض على المشتركين في الاجتماع.

ذكر دزيرجينسكي:

ـ ليس هناك شك في أن عميلاً يوجد بوارسو. كل القادة يسقطون. بينما تظل المطبعة والمناطق في سلام.

أشار جانيتسكي:

ـ إن لاونشليخت نفس الرأي. أظن أنه لم يسلم من الاعتقال إلا لأنه لا يتصل مباشرة بمنظمة وارسو، بل يلتقي ببعض الأعضاء الموثوق فيهم.

إن قلق دزيرجينسكي الشديد إزاء مصير منظمة وارسو، وخوفه

على مستقبل صوفيا، أوحى إليه بالكتابة إلى المجلس المركزي حول أنه سوف يقوم اعتباراً من أول كانون الثاني/ يناير 1911 بتصفية شؤونه في كراكوف للسفر إلى المملكة البولندية.

ومرة أخرى رفض المجلس المركزي للحزب ذلك.

ورغماً عن ذلك، ما كاد دزيرجينسكي يعلم من خطاب سيجيزموند موشكات بنبأ حمل صوفيا حتى فقد صبره وسارع بالسفر إلى وارسو.

وصل الأب في زيارة عادية يوم 9 نيسان/ أبريل.

- صوفيا. لدي خبر يسرك. زارنا بالأمس شقيق فيليكس. شخص وقور لطيف المعشر. كلفه فيليكس بمعرفة كل شيء عن أحوالك. ظللنا نتحدث عنك ما يزيد عن ساعة. إنسان لطيف جداً.

- بابا. صِفه لي بكل دقة.

لم يخنها حدسها كامرأة. راحت تمطر أباها بالأسئلة، لتغدو مع كل إجابة على يقين أكثر من أن الزائر لم يكن سوى فيليكس. حتمت عليه ظروف السرية تقديم نفسه كشقيق.

تأكد حدسها في خطاب فيليكس الذي تسلمته في اللقاء التالي.

صارت صوفيا تطالع الخطاب مدركة معنى رموزه:

- «جزاء زيارتي المباغتة للأم، لقيت الجزاء الصارم». كانت تعي أن الأم هي «وارسو»، وأن «الجزاء» كان من المجلس المركزي. مضت تقرأ: «وعلى أي حال، تلك كلها أمور لا تستحق الاهتمام. كل ما يهمني هو أن تكوني قوية قادرة على تحمل كل شيء. إني حين أفكر أحياناً بشأنك وبشأن الطفل، تنتابني سعادة مبهمة رغماً عن كل شيء...».

يا إلهي... لكم ذلك جيد. إن هذا الشعور بالسعادة يراودها هي أيضاً على الرغم من السجن وانتظار المحاكمة والحكم، حين تشعر بطفلهما يتحرك في أحشائها!».

❀ ❀ ❀

جاءت السجانة بالغداء. كان الطعام في «صربيا» غاية في السوء. وكانت إدارة السجن تصرح لبعض المعتقلين الذين تحتم حالتهم الصحية غداء إضافياً بتسلم ما يريدونه من الخارج. واستطاع سيجيزموند موشكات الحصول على مثل هذا التصريح لصوفيا نظراً لحملها. كان العجوز يان روسول يحمل الغداء إليها من المطعم الشعبي المجاور. كانت الدموع تترقرق في عينيه حين يتذكر ما فعله دزيرجينسكي من أجل ابنه انطون أيام كانا سوية بالسجن، فيما يشعر بالسعادة لأنه يستطيع اليوم تقديم شيء ما إلى زوجته.

ـ هاتي صحنك يا فرانكا ـ ندت عن صوفيا التي كانت تود، شأن عادتها، اقتسام غدائها معها.

ـ لا أريد. كُليه أنت. إنكما اثنان. أما أنا فيكفيني طعام السجن.

أعلنت صوفيا عن غضبها:

ـ هل نعود ثانية! لن أتناول ملعقة واحدة بدونك. وأنت تعرفين ذلك جيداً.

اضطرت جوتوفسكايا إلى الإذعان. كانت معتلة الصحة. أصابها سل في السجن، بينما ليس لها خارج الأسوار معارف يهتمون بشأنها. ولو لم تكن صوفيا تعنى بأمرها لما استطاعت المقاومة طويلاً.

انكبتا على الكتب بعد الغداء. قطع صمتهما ضجيج رهيب. كان ثمة من يدق باب الزنزانة المجاورة بكرسي خشبي. لقد كانت روزا كوجان تعبر عن احتجاجها في حبسها الانفرادي. كانت هذه المرأة المعتلة نفسياً قادرة على الاستمرار في دق الباب ورفع صوتها الحزين بالغناء لساعات طوال.

وذات مرة عند خروجها للتريض بالفناء صاحت تقول:

- صوفيا موشكات عميلة! الموت للعملاء!.

ودفعت بصوفيا من فوق الدرج.

حملوا صوفيا إلى مستوصف السجن. جرت عملية الوضع قبل الموعد المحدد، وعلى نحو عصيب. ولدت صبياً أسمته يان في 23 حزيران (يونيو) 1911.

ومنذ أول أيام الصغير ياسيك على قيد الحياة كان عليه تحمل المحن العصيبة حسبما تقضي إرادة سفاحي القيصرية الذين رفضوا الإفراج عن أمه لتظل تحت المراقبة حتى يحين موعد محاكمتها. كان الطفل الذي ولد في الشهر الثامن من الحمل غاية في النحافة والضعف.

لم يكن هناك من يصدق أن الحياة سوف تكتب له. وقد ذكرت قابلة السجن وخادمة من المجرمات المعتقلات ذلك صراحة لصوفيا.

بيد أن الطفل لم يمت.

عادتها زوجة أبيها في مستوصف السجن دون أن يتوقع أحد ذلك. قامت بتسليم صوفيا خلسة رسالة من فيليكس: «... سوف يعيش ياسيك رغماً عن كل شيء، وسوف يشب صحيحاً معافياً». كان يدرك ما تعانيه وحاول أن يشد من أزرها.

كانت زوجة الأب تعمل رسامة. قامت برسم صورة لياسيك وأرسلتها إلى فيليكس بناء على طلب صوفيا.

وبعد ثلاثة أسابيع أعيدت صوفيا ثانية إلى الزنزانة مع طفلها.

لم تكن العناية بالطفل في السجن أمراً سهلاً. علاوة على أن ياسيك كان يمرض كثيراً. كان ينخرط في البكاء، لتظل صوفيا تهدهده حتى تعييها الحيلة فتنخرط هي الأخرى في البكاء.

كانت إحدى السجّانات المتقدمات في السن تعنى بأمرها، تقدم لها النصيحة العملية التي تعينها على تهدئة الطفل. وكانت صوفيا تنتظر على الدوام بفارغ الصبر وردية تلك السجانة التي يوحي منظرها بالصرامة، على عكس جوهرها الطيب الحنون.

كتبت صوفيا سيجيزموند فيما بعد تقول: «حين كان ياسيك يبدو معافياً شبعاناً، كان يضفي بابتسامته ولعثمته قدراً من السعادة يجعلني أنسى كل تلك الأمسيات التي مضني فيها الألم والمعاناة. لقد كانت ضحكات الطفل في ظل جو السجن الكئيب وسكون المساء المطبق أشبه بشعاع شمس وضاء يجسد مباهج الحياة».



كانت قاعة محكمة وارسو الرحبة رطبة قفرة. وكانت تجلس في قفص الاتهام امرأتان هما صوفيا وشكات تحمل طفلها الرضيع، وفرانتسيشكا جوتوفسكايا. كان الجمهور الضئيل يملأ المقاعد الأمامية بالكاد، وانقسم إلى شطرين متبايني المواقف. كانت الصفوف التي على يمين الممر للجندرمة ورجال الشرطة وموظفي المحكمة، أما على يسار الممر فكان يجلس أقارب المتهمتين. كانت المحاكمة مغلقة، ولم يسمح بحضورها لغير هؤلاء.

كان ضوء ذلك النهار المعتم من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) يتسلل في تثاقل عبر النوافذ العالية، ليضفي على القاعة ما يزيد من كآبة الموقف.

صار سكرتير المحكمة يتلو وثيقة الاتهام. كانت صوفيا قد تسلمتها في آب (أغسطس) وعرفت مضمونها عن ظهر قلب، ولذا فقد كانت القاعة تشغل جل اهتمامها. أما الأب فقد وضع راحة يده إلى جانب أذنه يعينها على الإصغاء لكل ما يقال. كان يميل من آن لآخر ناحية زوجته التي تعيد على سمعه ما غمض عليه. وإلى جوارهما كان يجلس شقيق صوفيا الأكبر ستانيسلاف برفقة زوجته يانينا. وصل قادماً من لوبلين لحضور المحاكمة. كان يبتسم لصوفيا مشجعاً يومىء إليها بما يعني استحسانه.

كان ياسيك ينام على ذراع أمه بعد أن أرضعته وأحسنت تغطيته قبل بدء المحاكمة.

بدأ الاستماع إلى أقوال الشهود. أجاب أحدهم كان قد جاء بوحي من المباحث، رداً على سؤال المحامي بأن الجواسيس وصلوا بمحض الصدفة إلى المسكن الذي تم اعتقال موشكات فيه، مقتفين أثر إدوارد سوكولوفسكي. فقد بدت زيارة ذلك المثقف لأحد الأحياء العمالية ودخوله بيت أحد العمال أموراً تثير الريبة.

صارت صوفيا تفكر بين نفسها: «أعتقد أنه يكذب. يبدو أن المباحث تود تغطية عميلها الذي كشف عن اجتماعنا بهذه الأقوال».

بدأ المدعي العام حديثه في جو من السكون التام. راح يصب جام غضبه ولعناته على رؤوس أعداء الاستبداد. بيد أن ياسيك استيقظ في هذه اللحظة وتعالى بكاؤه. رفع المدعي العام من صوته،

لينخرط الطفل في البكاء بصوت أعلى. ترددت بالقاعة ضحكات مكتومة. زاد رنين جرس رئيس المحكمة من الضجيج العام.

بدأت صوفيا ترضع طفلها. سارع المدعي بإيجاز حديثه طالما الطفل صامت. طالب بإصدار حكم النفي الأبدي إلى سيبيريا على كل من موشكات وجوتوفسكايا.

أعربت صوفيا عن امتعاضها. لم تكن تتوقع مثل هذه الوضاعة والقسوة حتى من ممثلي القضاء القيصري. كان يراودها احتمال صدور مثل هذا عليها، لكن على فرانكا... إنها لم تكن حتى عضواً في الحزب. كانت أول خدمة تقدمها للحزب حين أعلنت عن موافقتها على أن يكون مسكنها عنواناً لمراسلات صوفيا.

أعلنت صوفيا حين منحت حق الكلمة الأخيرة:

ـ أعلن بكل حسم مرة أخرى أن جوتوفسكايا لم تكن عضواً بالحزب، ولم تكن تعلم شيئاً عن محتوى المظروف المرسل إليّ من كراكوف على عنوانها.

لم يجد ذلك شيئاً. أعلن رئيس المحكمة الحكم تحت وقع صراخ الطفل. كان الادعاء يتفق مع طلبه... النفي الأبدي لكلتيهما إلى سيبيريا.

استمعت فرانكا إلى الحكم وهي في حالة يرثى لها. كما كانت صوفيا مكتئبة النفس. لم تكن المرأتان تنتظران لجوتوفسكايا أكثر من السجن لمدة عام واحد أو النفي الإداري لمدة قصيرة إلى الجزء الأوروبي من روسيا.

تسلم فيليكس تقريراً مفصلاً من سيجيزموند موشكات عن

المحاكمة. ختم العجوز خطابه بما يلي: «... ترك انطباعاً مؤسفاً يثير السخرية ذلك الجهاز القضائي الذي يتغطرس متباهياً بقوته استناداً إلى سبعة قضاة، ومدع عام يستشيط غضباً، وسكرتير ومنفذ قضائي ضد امرأتين ضعيفتين نحيلتين وطفل رضيع تحت حراسة جنود يحملون أسلحتهم على أهبة الاستعداد. إن هذا الجهاز الذي تآكل بفعل صدأ الوضاعة وانتهاك الشرعية سرعان ما سوف يقضى عليه ما دام يشعر بتلك الرهبة الفظيعة إزاء امرأتين ضعيفتين يصدر عليهما حكمه بالنفي إلى آخر أطراف العالم».



وصل فجأة فيليكس ادموندوفيتش دزيرجينسكي إلى شقة سيجيزموند موشكات. ظل الأب موشكات يذكر ذلك اليوم جيداً. كان مساء 12 كانون الثاني (يناير) 1912.

لم يكن دزيرجينسكي يرى هذه المرة ضرورة إخفاء اسمه. أصبح لا يشك في أنه يستطيع التواجد في أمان لدى أسرة سيجيزموند موشكات. كما أن القضية التي جاء من أجلها لم تكن لتسمح له أن يظل مجهول الهوية.

ـ إني موجود في وارسو لقضاء أعمال حزبية. وقد جئت إليكم للتشاور معكم بشأن ياسيك. سوف يرسلون صوفيا إلى المنفى قريباً، فيما لست أدري ما يمكن عمله بشأن الطفل. أود أخذه معي... لكنني لا أعرف ما يخبئه القدر لي غداً.

كان الاضطراب واضحاً على فيليكس الذي مضى يقول:

ـ رفاقنا في برلين ينصحون بإيداع ياسيك أحد بيوت الصغار هناك. يقولون إن الظروف حسنة به. لكنكم تعرفون أنه مريض ضعيف. كيف لي تركه بدون اهتمام ورعاية ذويه.

تنهد موشكات قائلاً:

ـ رهيبة هي هذه الملاجىء. كان من الممكن إيداع ياسيك الملجأ التابع لـ «مستشفى المسيح» حيث يودع أطفال المعتقلين على حساب الدولة. لكنه اتضح أن الأطفال يموتون هناك كالذباب.

لبث الأب والجد يفكران طويلاً، دون أن يهتديا إلى شيء سوى البحث عن ملجأ خصوصي جيد وموثوق فيه. لم يكن الأقارب والمعارف يستطيعون استضافة الابن إما لأسباب مختلفة وإما لخوفهم تحمل مسؤولية حياة طفل مريض ضعيف.

لم يمر من الوقت أكثر من نصف ساعة بعد رحيل دزيرجينسكي عن شقة موشكات حتى اقتحم رجال الشرطة المكان. استولوا على خطابات فيليكس التي كان قد بعث بها إلى سيجيزموند موشكات، وعلى المراسلات التي وردت إليه لتسليمها إلى صوفيا، ونصبوا كميناً لدزيرجينسكي بالمسكن. ظل رجال الشرطة ينتظرونه طيلة يومين على أمل القبض عليه.

مضى من الزمن شهر. كان الجو بارداً رطباً في الزنزانة التي أودعت صوفيا بها. اشتد سعال ياسيك. لم يكن ممكناً تحميم الطفل المريض في الزنزانة الباردة، أو إخراجه إلى الهواء الطلق للنزهة. انعكس اضطراب الأم على تغذيتها لرضيعها. أصيب الطفل علاوة على السعال باضطراب المعدة. بدأ كساح الأطفال يظهر لديه. «السجن ليس مكاناً لتربية الطفل»، جملة قالها أحد الأطباء، صارت ترد إلى خاطر صوفيا باستمرار. قررت إيداع الابن إحدى دور الحضانة الخاصة. غير أن ياسيك أصيب هناك بالتشنج وبدأت صحته في التدهور كثيراً.

اقتربت ساعة الترحيل إلى سيبيريا. فاقم قلق الأم على ابنها وشعورها بالعجز عن مساعدته من آلامها ومعاناتها. راحت فرانكا في هذه المرة تهدىء من روع صوفيا، بعد أن انتقلت ثانية إلى الإقامة في زنزانتها.

أوصى الطبيب بإرضاع الطفل لبن أم، إلى جانب طعامه العادي في دار الحضانة. تولت يوستينا كيمبنر رفيقة صوفيا في الحزب توفير هذا اللبن. إن إدراك المرء لعدم تخلي رفاق الحزب عنه في محنته يضفي على النفس سعادة بالغة.

جرى في ليلة 26 آذار (مارس) ترحيل دفعة من المحكوم عليهم بالنفي، ضمت صوفيا موشكات بين صفوفها. خرج والد صوفيا وزوجته ورفاقها في الحزب لتوديعها بمحطة تيريسبول.



كانت أورلينجا التي ينبغي أن تقضي فيها صوفيا سيجيزموند موشكات فترة العقوبة، أي كل حياتها المتبقية، مكاناً كئيباً عبارة عن حوالى ثلاثين بيتاً خشبياً قديماً علاها السواد كائنة بمرج كبير عند منعطف نهر لينا. لم تكن ثمة شجرة واحدة أو حديقة تجاور أياً من هذه البيوت. كما كان الشارع الوحيد غارقاً في الأوحال. استأجرت صوفيا غرفة صغيرة مقابل روبلين اثنين في الشهر.

استغرق طريق صوفيا إلى المنفى قرابة ثلاثة أشهر على مراحل. فقد بدأت الرحلة من وارسو في نهاية آذار (مارس) وانتهت في أورلينجا في منتصف حزيران (يونيو). شهدت هذه الفترة كثيراً من الجديد.

تسلمت صوفيا خطاباً من أبيها، يبلغها فيه أنه أخذ ياسيك من

دار الحضانة نظراً لأنه كان مريضاً بها طول الوقت، وأرسله إلى شقيقه بقرية كليتسك البيلوروسية. كان العم ماريان طبيباً باطنياً محنكاً. أما زوجته يوليا المثقلة بأعباء أربعة أطفال فقد أحاطت ياسيك بكل رعاية. رغب سيجيزموند موشكات في العناية بحفيده وانتقل أيضاً للإقامة في كليتسك لدى شقيقه. بدأ الطفل يتماثل للشفاء تدريجياً، أسهب العجوز في وصف حياة ياسيك بخطابه الذي بعث به إلى ابنته مدركاً مدى أهمية ذلك بالنسبة للأم. وعن غير قصد انهمرت دموع الفرح على وجنتي صوفيا حين علمت بأن أسنانه بدأت في الظهور، وبأنه يقول «ما» حين يشاهد صورتها.

اجتاح الحنين الشديد صوفيا مرة أخرى. كانت تود الهرب فوراً وعلى متن أول باخرة، لرؤية وليدها. بيد أن الهرب دون هوية ونقود كان مستحيلاً. كان فيليكس ينوي توفيرهما، بيد أن أنباء لم تصلها منه بعد. كان يلاحق صوفيا قلقها على زوجها إلى جانب حنينها إلى ابنها. أين هو؟ وكيف حاله؟.

وفي تموز (يوليو) خرق نمط الحياة الجامد في أورلينجا ظهور رفاق الحزب. كانوا في طريقهم برحلة المنفى إلى الشمال. سمح لهم بالنزول إلى أورلينجا ريثما ترسو باخرة المنفيين إلى الشاطىء.

ظلوا يتبادلون الحديث مع صوفيا بضع ساعات، يشاطرونها ويقصون عليها أخبار الأحداث في روسيا وبولندا، ويخبرونها بأحوال الرفاق. بيد أن أحداً لم يستطع أن يحكي لها أي شيء جديد عن فيليكس، مما أحزنها كثيراً.

مضى المنفيون في طريقهم. وصارت أيام الانتظار الطويلة تجثم على النفس من جديد. كانت صوفيا تتردد على مكتب البريد كل يوم،

حيث يطالعها البوسطجي العجوز بابتسامته، يقول لها بنبرة تحمل معنى المداعبة:

ـ سيكتبون إليك يا سيدتي. . . حتماً سيكون ذلك.

وها هو أخيراً يسلمها على نحو احتفالي كتاباً وصل من أبيها. وصلها عقب هذا الطرد خطابان من فيليكس، الواحد تلو الآخر، يبلغها في الأول على نحو مستور بحدوث انشقاق في الحزب: «إنك لا تدرين بل ولن تستطيعين إدراك ما يحدث هنا. أما ما يحدث فهو أمر رهيب يجعل الحياة لا معنى لها إن استمر هذا الحال». بدت هذه الكلمات وكأنها خنجر أصاب قلبها. فقد كانت تتخيل مدى وطأة الانشقاق في صفوف الاشتراكية ـ الديمقراطية البولندية والليتوانية وتأثيره على نفس فيليكس حتى يُقدم على كتابة مثل هذه السطور.

أما في الخطاب الثاني فكان فيليكس يوصيها بمطالعة كتاب آدم باهتمام، مؤكداً لها أنه سوف يضفي عليها كثيراً من «القوة». فحصت صوفيا الكتاب بتمعن. لم تجد أية آثار للكتابة السرية. . لم يكن الغلاف البالي يوحي بأي شيء يثير الشكوك. ومع ذلك خمنت صوفيا أن الغلاف بالذات يخفي بين طياته هوية سفر مزورة. نعم. . . فيليكس خبير كبير في مثل هذه الشؤون. وعلى الرغم من رغبتها الشديدة في إلقاء نظرة على الهوية الجديدة فقد قررت عدم إفساد غلاف الكتاب حتى تصلها النقود. هكذا يكون الوضع أفضل كثيراً.

اقترب موعد انتهاء موسم الملاحة في نهر لينا. اضطربت صوفيا كثيراً. وها قد وصلت المائة روبل اللازمة لتغطية نفقات هروبها قبل وصول آخر سفينة إلى أورلينجا بيومين فقط.

أعدت صوفيا حاجياتها، وأخرجت الهوية من موضعها

بالغلاف. رائع يا فيليكس! لم تكن الهوية مزورة بل حقيقية تماماً. حفظت صوفيا بيانات الهوية عن ظهر قلب. وتدربت على التوقيع على نحو مماثل لتوقيع صاحبة الهوية.

وفي وقت مبكر من صباح 28 آب (أغسطس) رحلت صوفيا عن أورلينجا. استطاعت بعد عناء طويل الوصول إلى موسكو، ومنها إلى لوبلين حيث يقيم شقيقها الأكبر ستانيسلاف. كان السفر إلى كليتسك مستحيلاً. فلئن اكتشف هروبها من أورلينجا فسوف يبحثون عنها في وارسو أو كليتسك ـ حيث يعيش طفلها ـ قبل أي مكان آخر.

لم تستطع قبل رحيلها إلى خارج البلاد حتى أن تضم وليدها إلى صدرها!.

لم تكن تعرف مقر إقامة فيليكس في تلك الفترة، مما جعلها تكتب إليه على عنوانه القديم بكراكوف. جاءها الرد سريعاً. إلاّ أنه لم يكن من فيليكس. تسلمت عنوان فرانتسيشكا جانا في دومبروفا ـ جورنيتشا. «هذا يعني أن جانا سوف تسلمني وثيقة مرور لعبور الحدود. أما فيليكس فلعله في مكان ما هنا في بولندا».

سافرت صوفيا تواً إلى دومبروفا. استقبلتها جانا بترحاب بالغ وأفردت لها مكاناً للمبيت. لم تكن تعلم من تكون صوفيا حيث كانت تعيش تحت اسم آخر. كانت لا تعرف سوى أنها رفيقة بالحزب ينبغي عليها معاونتها في عبور الحدود.

ذكرت جانا:

ـ هل تعلمين بأن الحزب تعرض لكارثة كبيرة... لقد اعتقل ادموند.

ـ ومن يكون ادموند؟

ـ ألا تعرفينه؟ غير معقول. ليس هناك في الحزب من لا يعرف ادموند.

ـ ورغماً عن ذلك لا أعرفه ـ قالتها صوفيا بإصرار فيما بدا القلق يراودها. «أو يكون يوسف غير كنيته السرية؟».

ـ غير معقول هذا. زوجته منفية في سيبيريا وله طفل صغير ولد في السجن.

توقف وجيب قلب صوفيا. أدركت فرانتسيشكا جانا الموقف على الفور. اندفعت تحتضن صوفيا في حنان بينما انهمرت دموعها على وجنتيها.

ظلت المرأتان مضطربتي الجنان لفترة طويلة.

وعند الصباح سافرت صوفيا إلى كراكوف. كانت تبدو جامدة القسمات، والحركات، تفعل كل شيء بشكل تلقائي. لم يكن يؤرق تفكيرها سوى أمر واحد «الأشغال الشاقة.. الأشغال الشاقة.. الأشغال الشاقة». لماذا يعذبها القدر على هذا النحو؟ هل كان يحتاج لمعرفة ذلك الخبر الهروب من المنفى وقطع آلاف الفراسخ...

كانت بطاقة صغيرة تنتظرها في كراكوف، بعث بها فيليكس من وارسو: «عزيزتي! حدث مكروه لي. لقد أصابني المرض، وقد لا أراك قريباً. أقبلك والصغير ياسيك بكل جوارحي».

الأميرة صونيا(*)
(Sonia)
(-   )

هي إحدى جواسيس ألمانيا في البلاط العثماني، لاسيما في بلاط السلطان عبد الحميد الثاني.

كيف وصلت هذه الجاسوسة إلى قصر السلطان الأحمر؟

من ذا الذي يتذكر بعدُ في اسطنبول الأميرة صونيا، تلك المرأة الجميلة الفاتنة ذات العينين المخمليتين الناعستين، والوجه الصبيح ترتسم عليه بقايا من صبا بالرغم من عاديات السنين، ويكلله تاج من شعور فضية؟ من يذكر تلك المرأة، القلب اللعوب، التي اعتادت في الأمسيات الجميلة أن تتنزه في عربتها على طول شاطىء تيرابيا وهي تدخن الطوال من لفائف التبغ التركي الفاخر؟.

أروسية هي؟ ـ ربما! ألم تكن تمتاز ببهاء الصقلبيات؟

هل هي نبيلة؟ ـ أجل. فقد كان في مظهرها ما يوحي بذلك على الرغم من أنها لا تحمل «فرمانات» تثبت نبل أرومتها.

(*) المرجع: جان بردان «جاسوسات ألمانيات». ترجمة باسيل دقاق. دار المكشوف. بيروت. الطبعة الأولى 1947. ص3 ـ 24.

أغنيّة هي؟ ـ ما استطاع أحد أن يعرف أحوالها المالية. ولم يكن لها في المصارف ودائع. ولكنها كانت تنفق عن سعة، وتحب الأناقة والبهارج، وتعيش عيشة الترف.

كانت الأميرة صونيا لغزاً. وبقيت كذلك في أعين المجتمع الرفيع من سكان حي «ماشكان» الأنيق ـ حيث شغلت بناية من أفخم المباني ـ، إلاّ في عين سفير ألمانيا الذي كان يرسل إلى الأجنبية الحسناء كل أسبوعين غلافاً ثقيلاً.

وما عرف أحد غير الإنكليز الغرض من هذه الهدايا والرسالات الألمانية إلى الأميرة. ولذا رجاها ضباط الانتلجانس سرفيس (دائرة الاستعلامات البريطانية) غداة هدنة 1918 وبعد دخول الحلفاء إلى اسطنبول بأيام معدودة، أن تغادر المدينة!.

شاءت الصدف أن أسافر والأميرة صونيا على سفينة واحدة لمّا أبحرتُ قاصداً ميناء «بيره» في اليونان ـ كتب جان بردان ـ. وقد تصرمت منذ ذلك اليوم سنون عديدة ووقعت أحداث كثيرة. إلاّ أنني أذكر الأميرة صونيا جيداً كأن الرحلة تمت أمس. وأتصورها ممددة على مفرش في غرفتها تغمرها الفراء، ودخان التبغ من حولها حلقات وغيوماً، لا تطفىء لفافة إلاّ لتشعل أخرى، وأمامها صحن من نحاس لماع تدفن فيه أعقاباً مذهبة من اللفافات.

كانت تروي لبعض المسافرين طائفة من المغامرات والحادثات التي اشتركت بها، وتحرص على ألاّ تدع لهم سبيلاً إلى معرفة السبب في اشتراكها فيها، ولا كيف كانت هذه المشاركة. وكان يشع من ناظريها بريق غريب يجعلك تؤمن بأن هذه المرأة عاشت عيشة صاخبة حافلة بالغريب من المفاجآت والخطير من الأعمال.

كانت الأميرة صونيا تثير فضولي وإعجابي معاً. وطاب لي أن أسبر غورها، بل أحسست بإغراء لا يقاوم يدفعني إلى السعي لمعرفة حقيقتها وما يخفي مظهرها الوديع السحري من أسرار وغموض، فانقدت له. وكأن تلك القوة العجيبة التي تساعدك أحياناً على بلوغ ما تصبو إليه وتوطد العزم على إدراكه، قد وافتني، وماشاني الحظ. فأبصرت، حين وصول السفينة إلى المرفأ اليوناني، السيد فيليوتيس وهو ينحني باحترام وتودد للأميرة صونيا ويستعد لاستقبالها.

كان فيليوتيس هذا يونانياً من اسطنبول، وتاجراً معتبراً، ورجل أعمال معروفاً، تسلط بعض الزمن، على جماعة من السياسيين واشتغل بالشؤون السياسية وشارك في مؤامرات، وما تورع عن تدبير ثورة إذا كان له من ورائها غنيمة، أو صفقة تجارية أو امتيازاً بمشروع اقتصادي.

وقد تجنس بعدئذ بالجنسية الطليانية وسافر إلى فرنسا ليشرف على إدارة المباني التي كان نوغارو، أمين خزينة الفاتيكان، يبنيها في باريس ليجمد قسماً من أموال الكرسي الرسولي.

أدهشني أن أرى فيليوتيس واقفاً على الرصيف بانتظار وصول الأميرة صونيا. وزاد عجبي لما رأيته يسير بها إلى عربة خاصة وينتظرها حتى تصعد إليها، فيودعها باحترام وقبعته في يده ويعود إلى سيارته، فتنطلق به.

أيقنت أن الرجل يعرف من أمور الأميرة ما يجهل الكثيرون. وعزمت على أن أقابله، فركبت القطار إلى أثينا وذهبت إلى المسكن الذي كنت أعرف أنه يرتاده كلما جاء إلى عاصمة اليونان. وطرقت الباب ففتح لي فيليوتيس ذاته، فبادرته بالتحية وقلت:

ـ إنني سعيد برؤيتك يا سيدي.

ـ وأنا مثلك سعيد بهذا اللقاء. ولكن... كيف عرفت أنني في أثينا؟

فاجأني بهذا السؤال. ولكنني لم أرتبك، وأجبته، وأنا كاذب في جوابي، بأنني قادم من اسطنبول وأنني تحدثت في أثناء الرحلة مع الأميرة صونيا عنه.

كذبت، ولا عجب. فلئن تكن الحقيقة هي النور، فالكذب غطاؤها الوردي!.

وارتعد فيليوتيس وسألني:

ـ أو تعرف الأميرة صونيا؟

فابتسمت ابتسامة خفيفة كثيرة المعاني تركتْ محدثي في أوهامه وتخيلاته. ثم إنه أخذ يحدثني عن صرامة دائرة الاستعلامات البريطانية وتشديدها في مراقبة الناس وفضح أسرارهم. وروى لي بعدئذ قصة الأميرة صونيا بدقائقها وحقيقتها، فإذا هي شبيهة بأقاصيص ألف ليلة وليلة.



قال فيليوتيس:

«أظنك لا تجهل أن الفرنسيين والروس، على غرار الطليان والإنكليز، سعوا في السنين العشرين التي سبقت حرب 1914، بشتى الطرق الجاسوسية والسياسية، إلى التسلط على تركيا وربط مصيرها بمصيرهم. ولقد اشترك الألمان هم أيضاً بمعركة التنافس هذه. ومن الإنصاف القول أنهم جنوا ثمرات طيبة بالرغم من أن ألاعيبهم غالباً ما اصطدمت بألاعيب السلطان الأحمر عبد الحميد.

«ولكي أعد لك الجو الملائم لإدراك حقيقة الأميرة صونيا ومغامراتها، لا بدّ لي من أن أطلعك على بعض الحقائق عن حرب الجواسيس التي كانت تدور رحاها حول قصر السلطان عبد الحميد وفي داخله، وعلى قصة الرجل الذي كان يمسك بين مخالبه بمقدرات إمبراطورية لا تستحق نير مستبد مثله.

«اعلم إذاً أن عبد العزيز السلطان العثماني الثاني والثلاثين، الذي خلف والده على العرش في الخامس والعشرين من حزيران (يونيو) 1861، سعى سعياً نشيطاً في سبيل تحضير بلاده ورفع مستواها الاجتماعي والفكري. ولكنه اصطدم بعقبات داخلية وخارجية لا تذلل. فاضطر في ليلة 29 ـ 30 أيار (مايو) 1876 إلى التخلي عن العرش لابن أخيه مراد. وبعد اثني عشر يوماً قتل عبد العزيز. وعزي الجرم إلى مراد، وقيل إنه أراد التخلص من هذا المنافس الخطر كي لا يحاول أن يستعيد عرشه. والحقيقة أن مراد خان الثاني ما كان هذا شأنه، خصوصاً وأن أعداءه كانوا كثيرين، وجميعهم أعظم خطراً عليه من عمه عبد العزيز.

«كانت سياسة تركيا في ذلك الزمان رهناً بمشيئة مدحت باشا إلى حد بعيد. وكان هذا السياسي كثير الطموح، بعيد الأهداف، واسع المشروعات. ورأى أن السلطان مراد يعيقه في تحقيق أغراضه وبلوغ ما استهدفه لما امتاز به من استقلال في الفكر وتحرر من المؤثرات، فتحول عنه إلى عبد الحميد. واستطاع هذا أن يغرر بمدحت فأوهمه أنه إذا استطاع أن يصل به إلى العرش فيحل محل مراد، جعله السيد المطلق وأعاد إلى الباب العالي نفوذه يسوس شؤون السلطنة بدلاً من السلطان.

«ولم يكن بالمستطاع ارتكاب جريمة قتل سياسية جديدة لقلب السلطان وتنصيب عبد الحميد مكانه. فزعم من بيدهم الأمر أن مراد مصاب في دماغه، وأسقطت السلطة الدينية حقه في العرش، ونودي بشقيقه الأصغر عبد الحميد سلطاناً باسم السلطان عبد الحميد الثاني.

«على أن الذين ساعدوا عبد الحميد على الوصول إلى الحكم طمعاً في احتلال المناصب وكراسي الحكم، أخطأوا في الحدس وتبخرت آمالهم لمّا استتبّ الأمر له.

«كان عبد الحميد ابن إحدى نساء عبد المجيد، ماتت أمه بالسل وهي في السادسة والعشرين. وأكد العارفون ببواطن البلاط أنه لم يكن ابن السلطان، بل ثمرة مغامرة من تلك المغامرات الغرامية التي كثرت في البلاط يومذاك.

«لم يكن في عبد الحميد شيء من صفات إخوته ومزاياهم. وعرف هو بضعة النفس، واختلال المزاج، وغرابة الأخلاق والأطوار. فلا عجب إذا كان بعيداً عن السياسة الرشيدة بعد الأرض عن السماء.

«لمّا ماتت والدة عبد الحميد، وكان هو بعد في الثامنة، تعهدته إحدى خادمات الحرم، ثم عهد به إلى بيريستو خانم رابعة زوجات السلطان عبد المجيد. وأحبته هذه المرأة التي حرمت البنين حب عبادة. وبلغ من تعلقها بربيبها أنها رفضت الزواج بعبد العزيز لما خلف عبد المجيد.

«كانت بيريستو خانم مشهورة بكرمها وحميد خلقها، بقدر ما اشتهرت بجمالها. وقد أصبحت، بعد تربع عبد الحميد على العرش، السلطانة الوالدة. إلاّ إنها كانت تفضل بعض عرفان الجميل يبادلها

إياه ربيبها على هذا اللقب الرفيع. فقد أساء عبد الحميد إليها وبث حولها العيون والجواسيس والوشاة.

«وليس عجيباً أن يكون هذا شأن من تجسس على إخوته لحساب عمه، وعلى عمه لحساب مدحت باشا. وهل كنت تنتظر من رجل هذا شأنه وهذا منبته أن يستعين غير الرشوة والتجسس والفساد على بناء دعائم حكمه وحفظ شخصه والنجاة بحياته؟

«كان أول ما اهتم به عبد الحميد اعتقال جميع الأشخاص الذين كانوا في خدمة مراد. وقد تخلص منهم جميعاً، فمات بعضهم مسموماً وأبعد الباقون. ثم إنه تحول إلى أولئك الذين حملوه إلى العرش. فتخلص منهم بحرص وبطرق لبقة جنبته شرهم، واختفوا الواحد تلو الآخر إلى أن جاء دور مدحت باشا فقتل.

«كان القتل والتجسس دعامة سياسة السلطان الأحمر. واعتمد عبد الحميد على المرأة كل الاعتماد، ففرض على رجال حاشيته وقادته زوجات أو خليلات من قصر يلدز اشتراهن بماله ومجوهراته. فانقدن له انقياد النعاج، وحملن إليه أخبار أزواجهن وخلاّنهن، وجئن من لدنه بفنجان قهوة أو قدح من شراب يؤدي بمن يغضب عليه السلطان أو يشتبه به إلى عالم أفضل من هذا العالم الفاني!.

«في تلك الغمرة المظلمة وفي تلك البلاد التعسة، وجدت الجاسوسية الأجنبية أرضاً خصيبة، فترعرعت واشتد ساعدها واتسعت أرجاؤها، وليس من يحدها أو يعكر عليها صفو عملها. وانتشر الجواسيس والأعوان وسرحوا ومرحوا. وكانت الأميرة صونيا واحدة منهم، واشتركت في الحرب الجاسوسية الخفية تحت لواء داهية سياسي مثل دوراً كبيراً في حياة السلطنة.



«في عهد السلطان عبد الحميد، كان لغليوم الثاني الذي اهتم اهتماماً عظيماً بالشرق، سفير قدير في اسطنبول هو البارون مارشل فون بيبرشتاين، قال عنه زميله الإنكليزي أنه خنزير متوحش، ووصفه سفير إيطاليا بأنه فهد في جلد خنزير. ولعل الوصف الثاني أقرب إلى الواقع لأن البارون مارشل كان يخفي تحت مظهره الخشن لباقة نادرة، ومعرفة عميقة بالرجال، ونظراً ثاقباً.

«وما كانت ألاعيب السلطان تدهشه أو تغرّه. وكثيراً ما تغلب على عبد الحميد في مضمار الخداع، وهزمه في ميادين السياسة والرياء. من ذلك أنه استطاع بفضل أفراد من حاشية السلطانة الوالدة أن يعرف أن عبد الحميد يجيد اللغة الفرنسية ولكنه يخفي ذلك عن الناس فيتاح له، إذا ما أراد الرجوع عن كلمة قالها أو وعد قطعه، وكثيراً ما كان يفعل ذلك، أن يدعي أن ثمة خطأ في الترجمة.

«وقد أفاد البارون مارشل فون بيبرشتاين من معرفته هذا السر واستغله، وعلى الأخص العام 1889 في أثناء زيارة غليوم الثاني لاسطنبول.

«كان سفير ألمانيا قد أعد اللعبة بعناية وأسرّ إلى غليوم ما عليه أن يفعله عند زيارته السلطان... ودخل الإمبراطور الألماني وسفيره إلى قاعة الاستقبال في قصر عبد الحميد واقتيدا منها إلى غرفة صغيرة ليتحدثا إلى السلطان. واجتمعا به ولم يكن بينهم سوى ترجمان. وما كاد يستقر بالإمبراطور المقام حتى أشار إلى هذا بالانصراف والتفت إلى عبد الحميد وقال بفظاظة: «كلنا هنا يعرف اللغة الفرنسية. ولست أرى مبرراً لبقاء رابع بيننا نجهل حقيقة شعوره ومبلغ أمانته!».

«كانت ضربة شديدة جداً فوجىء بها السلطان أيما مفاجأة حتى

أنه أجاب بالفرنسية أنه لا يرى حرجاً في خروج الترجمان. إلاّ أنه، بعد حديث طويل، طلب إلى الإمبراطور وسفيره ألاّ يبوحا بالسر. وسارع غليوم فأكد له أن مصالح تركيا وألمانيا تقتضي بأن يظل الناس جاهلين أن العاهلين يستطيعان أن يتفاهما بدون ترجمان! وقال البارون مارشل أن كثرة الجواسيس حول القصر وفي داخله تقتضي حرصاً عظيماً.

«وانتقل الجماعة إلى الحديث عن الجواسيس والرقابة وتربص أعداء الملوك بملوكهم. فقال غليوم، وكان يردد الدرس الذي لقنه إياه سفيره، أن الخطر كل الخطر في جاسوس تأتمنه على أسرارك فيخونك، وتعتمد عليه في الحصول على أخبار من تريد فيخدعك، وأن الرقابة المفروضة على الأباطرة والملوك لا يغلها إلاّ شبكة تجسس معارضة تحصي حركات الخصوم وتنقل أخبارهم وتفضح مؤامراتهم. وأعلن غليوم أنه مرتاح البال من هذه الناحية لأن رئيس حرسه الخاص رجل أمين قدير، وإخلاصه فوق الشبهات. وتحسر السلطان وهو الذي جعل من كل رجل من رجاله جاسوساً له ورأى في كل منهم جاسوساً عليه يتربص به ليقتله، وتمنى لو كان في خدمته مثل رئيس حرس غليوم.

«نجحت لعبة السفير الألماني وأثمرت مقابلته وسيده الإمبراطور للسلطان. فقد استدعى عبد الحميد، في الأسابيع التي تبعت المقابلة، البارون مارشل مرات عديدة وطلب إليه أن يجد له شرطياً قديراً أميناً يستطيع أن يدير حرسه الخاص. وبالغ السفير في التمنع ليبعد الظنون عن شخصه وليفيد من الخدمة التي كان السلطان يكلفه تأديتها.

«وحدث ذات يوم أن كان السفير يطالب السلطان بامتياز لبلاده

ويرفضه هذا بإصرار. فعرض عليه البارون أن يفاتح الإمبراطور في أمر وضع رئيس حرسه الخاص تحت تصرف السلطنة. فقبل عبد الحميد وتمت الصفقة. وبعد شهر كان يترأس شرطة السلطان السريين ورجال حرسه شرطي ألماني قديم لم يكن يوماً رئيس حرس غليوم ولا حارساً من حراسه، بل كان في شبابه من موظفي الاسطبلات الإمبراطورية.

«على أن الشرطي الألماني كان داهية واستطاع أن يقبض على الموقف بيد من حديد، وأحبط جميع المؤامرات التي دبرت ضد السلطان. واشتغل في الوقت ذاته لبلاده، فما غابت عن برلين صغيرة أو كبيرة من شؤون السلطنة.

❁ ❁ ❁

«لم تقف آلاعيب فون بيببرشتاين عند ذلك الحد. فقد أمعن السفير في نبش أسرار السلطنة، وكلف الشرطي الألماني أن يفتش بين نسوة القصر عن امرأة تؤثر في عبد الحميد. ولكن سعيه كان عقيماً لأن السلطان لم يهتم بالنساء ولا ترك لإحداهن سبيلاً إلى التسلط عليه. كان يعتبرهن دمى خلقن لسلوى الرجال ومتعهم فحسب، وما رضي بأن يعقد معهن أواصر تمت إلى العقل أو الأعمال بصلة.

«وكاد السفير الألماني ييأس ويعدل عمّا رسمه من خطط. إلاّ أنه استطاع بفضل عميله «بروسر» أن يعثر على أمة مسيحية جميلة ساحرة في مطلع الصبا. فأدخلها الحرم السلطاني وتمكن من لفت نظر السلطان الأحمر إليها.

«كانت هذه الفتاة، واسمها صونيا، ذكية طموحة تفتحت نفسها على الدنيا فودت لو تنهبها نهباً بجماع كفيها. ودخلت القصر وما كادت تستقر فيه حتى دبّر الشرطي الألماني مؤامرة صغيرة مدارها

قبضة من الدراهم سرقها هو من مال السلطان وأوصاها بأن تفضحها لعبد الحميد كي تثبت له أمانتها وإخلاصها.

«فلمّا استدعاها السلطان أعلنت له ولاءها وكشفت له المؤامرة. فاستقدم رئيس الشرطة وكلفه التحقيق سراً. وجاءه هذا في اليوم التالي بالدليل على صحة ما فضحته صونيا وسأله أن يعهد إلى الفتاة بمراقبة الحرم ونقل الأخبار إليه.

«وثق السلطان بصونيا منذ ذلك اليوم بعد أن ثبت له صدقها وإخلاصها في خدمته. وأفاد البارون مارشل من ذلك فائدة عظيمة وضمن اشتغال صونيا له بما أغدقه عليها من هدايا، وبالنعمة التي أصبحت مدينة له بها بعد أن أدخلها إلى القصر، وبالمال الذي لم يبخل عليها به. وصونيا تحب المال وتحب الهدايا وتطمح إلى الرفعة والظهور.

«وكبر الدور الذي قامت به ألمانيا في تركيا، منذ أصبح السلطان عبد الحميد تحت رقابة شرطي وحظيّة يعملان لحساب الدوائر السرية الألمانية».

❀ ❀ ❀

من العسير أن أنقل هنا جميع ما رواه لي فيليوتيس في تلك الليلة عن الحسناء صونيا وعن أحوال البلاط العثماني. ولأكتفِ بنشر قصة مغامرة عظيمة بطلها أنور باشا:

كانت ألمانيا تسعى سعياً حثيثاً إلى التسلط على تركيا لتستطيع بفضلها أن تسيطر على العالم الإسلامي في حالة نشوب حرب. وكان عليها لبلوغ هذه الغاية أن تكتسب السلطان. إلاّ أن عبد الحميد بلغ من فن التملص والمداورة والمماطلة شأواً بعيداً. وبالرغم من «نصح»

الألمان ودسائس أعوانهم، استطاع أن يقاوم إغراء ألمانيا وأن يجتنب الوقوع في أحضانها. ولمّا لم يصل البارون مارشل إلى مراده باللين أراد أن يستعين بالإرهاب والإخافة. وكان أنور بك يعاشر السفير الألماني في ذلك الزمان ويتردد على داره. فلم ير الألمان أفضل منه عوناً على عبد الحميد. وأفهموه بلباقة أن حزب تركيا الفتاة يستطيع الاعتماد على مساعدة ألمانيا إذا كان راغباً في تحضير تركيا ورفع مستواها وتحسين أحوالها، وأن الإمبراطور قد يأخذ بناصر الحزب في حركة ترمي إلى إسقاط السلطان عن عرش ليس هو أهلاً له.

وكان أنور من كبار الطموحين تمزقه الرغبة في الوصول إلى أرفع المراتب، فلم يخف عن البارون أن أصدقاءه وأعوانه يرسمون خطة للاستيلاء على أزمّة الحكم. وشرح بعض تفصيلات الخطة. ولم يخف على الألمان أسماء عدد من شركائه.

«وبعد بضعة أيام، بينا كانت صونيا تطلع السلطان عبد الحميد على مؤامرة واسعة لها فروع في الحرم تدبر ضده، أخبر السفير الألماني أنور بك بأن أمره قد افتضح وسلمه مبلغاً كبيراً من المال يستعينه في الهرب بسرعة واطمئنان. وأخبره الألمان بأن كل ما عليه هو أن يظل على اتصال بألمانيا ليأمن الغد.

كانت اللعبة جميلة ومن الطراز الألماني المعهود. ولكنها لم تعط النتاج المطلوب. فلئن يكن أنور قد استطاع الإفلات من قبضة الحكومة، فقد طرد من الجيش وحكم عليه بالموت حكماً غيابياً. وحار في تعليل افتضاح أمره واكتشاف السلطان نياته وجماعته وهو لم يبح بها لغير الألمان...

أمّا السلطان فلم يدرك حقيقة ما دبره الألمان ولا الدور الذي

مثلوه في هذه المهزلة. ولذا قرّر السفير الألماني أن يدبّر في هذه المرة مؤامرة حقيقية. ولم يجد صعوبة في تحقيق ما اعتزمه. وساعده في ذلك المال وطموح جماعة تركيا الفتاة والخيانة المتفشية في البلاط. وكان موت الشرطي الألماني الذي عينه الألمان رئيساً لحرس عبد الحميد، فجأة بسكتة قلبية، مما سهل تنفيذ الخطة، لأن هذا الشرطي كان في الحقيقة يحامي عن السلطان بأمانة على الرغم من تجسسه عليه وعلى القصر لحساب بني قومه.

كان جماعة تركيا الفتاة يريدون قتل عبد الحميد. ولكن البارون مارشل أقنعهم لسبب لم يعرف حتى اليوم بأن من الحكمة الاكتفاء بإسقاطه وإبعاده من البلاد... ولمّا اغتصب الثوار القصر كانت صونيا بصحبة السلطان. فاغتنمت فرصة المعركة والفوضى واستولت على أوراق عبد الحميد، وكانت تعرف مكانها، وبينها خطابات عديدة من غليوم الثاني، واستطاعت أن تخفيها إلى أن هدأت العاصفة فسلمتها إلى سفير ألمانيا.

قامت صونيا بمهمتها خير قيام وبلباقة ودهاء نادرين، ومثلت في التجسس دوراً مزدوجاً وظلت بعيدة عن الشبهات.

❁ ❁ ❁

تحررت صونيا من الحرم وقيوده الذهبية وأصبحت، والجميع يجهلونها في اسطنبول، الأميرة صونيا التي لم يعرف أحد أصلها أو حقيقتها إلاّ سفير ألمانيا. وفتحت لها منازل علية القوم في المدينة، فأخذت تستقبل أنصار النظام القديم وبعض أركان حزب تركيا الفتاة والبارزين من الأجانب المقيمين في اسطنبول.

فماذا كانت تفعل؟ وهل بقيت في خدمة الألمان وظلت تساعد عبد الحميد؟.. إليك ما حدث:

كان عبد الحميد، بالرغم من كثرة عيونه وجواسيسه وشرطته وحرسه وسهره على سلامته، يدرك أن سيأتي يوم تدول فيه دولته فيضطر إلى الهرب. وعلى هذا وضع ثروته الضخمة ومجموعة مجوهراته الثمينة في حرز أمين. وبينما أخفت صونيا مالها في السفارة الألمانية، أرسل السلطان الأحمر أمواله وجواهره إلى برلين حيث أودعها مصرفين ما يزالان يجهلان صاحبها لأنها أودعت باسم مستشار السلطنة.

كانت هذه الثروة، وقد قدرها بعضهم في العام 1914 بستة أو سبعة ملايين من الليرات الذهبية، تساعد عبد الحميد في منفاه بسالونيك على تهديد الثوار الذين استولوا على مقود البلاد. وكان رجال حزب تركيا الفتاة لا يجهلون أن المال سلاح فتاك لا يقاوم، وله في سكان تلك البلاد يومئذ فعل السحر. ولما عجزوا عن الاهتداء إلى ثروة السلطان الخليع لم يشاؤوا قتله بل سعوا إلى الاتفاق معه.

ونصح الألمان لرجال الحكم الجدد بأن يستخدموا صونيا فقبلوا وأذنوا للمرأة بأن تقابل عبد الحميد. وكانت كلما زارته تحمل إليه ريع أمواله التي كانت الحكومة الألمانية ترسلها إليه بانتظام.

ولم يعرف أحد في تركيا كيف كان عبد الحميد يتلقى المال بالرغم من الرقابة الشديدة. أمّا هو فقد كان يعهد إلى صونيا بأمر توزيع الأموال على أعوانه وأنصاره ليظلوا على إخلاصهم له ويضاعفوا من نشاطهم، وعلى سجانيه ليتساهلوا في معاملته ومراقبته. وبذا استطاع أن يعود إلى عاصمة ملكه السابق. وكان لهذه العودة أثر كبير في سياسة تركيا.

وزاره كثيرون من عيون السكان. وكان كل يوم يتلقى من سعاة

الأميرة صونيا رسائل من ألمانيا أو تقارير خاصة وضعتها هي بالاتفاق مع السفير الألماني. وإنما كان الفضل في تحالف تركيا وألمانيا لعبد الحميد وصونيا اللذين ساهما في زج البلاد بحرب خاسرة.

لم يدرك أحد الممثلين السياسيين الأجانب هذه الحقائق. ولمّا علم الملحق العسكري الإنكليزي في اسطنبول بالدور الذي قامت به صونيا كان الوقت قد فات، وكان العالم في مطلع تشرين الأول (أكتوبر) 1914، والألمان قد سيطروا على الموقف، وما بقي من سبيل إلى العمل، ولا ترجّى أحد فائدة من السعي. وفي التاسع والعشرين من تشرين الأول أغرقت سفن حربية تركية، بدون إخطار سابق، سفناً روسية في البحر الأسود، وقصفت مدينتي تيودوزيا ونوفوريسيك المفتوحتين، وأطلقت حممها في أوديسا على الباخرة الفرنسية الكبيرة «بورتوغال».

واحتفل الألمان احتفالاً صاخباً بدخول الأتراك في الحرب. وأسفرت الأميرة صونيا عن وجهها بعد أن ظلت سنين عديدة متخفية تعمل وراء ستار صفيق، وتجتنب الظهور حتى أنها لم تنس أنها كانت عبدة قبل أن يدخلها الألمان القصر، واشتركت في احتفالات السفارة الألمانية، وافتضحت علاقتها بالألمان.

وكان يومئذ بين الحاضرين مراقبون لم تفتهم حركات صونيا وأحاديثها مع الألمان وعلاقتها بهم.



تصرمت الشهور وتبدل الرجال والوجوه، ولكن الأميرة صونيا بقيت حيث هي تقبض مالاً وفيراً وتنفق بتبذير ولا تأتي عملاً. ولم تقبّحها الأربعون التي قطعتها من عمرها، بل زادتها رونقاً وبهاء. إلاّ

أن الألمان ليسوا كرماء ولا ممن يعطون بدون حساب وبدون مقابل... وعلى هذا فقد تلقت صونيا في أواخر العام 1915 أمراً بالسفر إلى سويسرا والامتثال لأوامر فون بسمارك رئيس دوائر التجسس الألمانية.

نفذت الأمر مكرهة حزينة النفس. ولا غرو فقد شق عليها أن تترك الشرق بسحره ومفاتنه لتتعرف إلى بلاد جديدة وتعيش عيشة الغرب. وما كانت بالمستبشرة بهذا التبديل، ولكنها اضطرت إلى الخضوع. كانت عبدة فتحررت، إلا أنها وقعت تحت نير عبودية من لون آخر. وما استطاعت إلاّ الخضوع، وقبلت بالسفر.

أقامت في مدينة لوسرن، وكلفت مهمات صغيرة أدتها بدون عناء. وفتح لها جمالها وكرمها أبواباً عديدة. إلاّ أن نشاطها واندفاعها في العمل فتحا عليها عيون موظفي دائرة الاستعلامات البريطانية.

وحدث ما ليس في المستطاع اجتنابه... ولاح لهذه المرأة التي بقي قلبها مغلقاً دون الرجال والتي لم تضطرب نفسها بعاطفة ولا اهتزت إلاّ للمال والهدايا، لاح لها في إحدى عشايا ربيع 1916، الحب بوجهه الجميل الفاتن، وهزها شعور لم تعرفه من قبل بالرغم من أنها كانت دائماً ألعوبة في أيدي الرجال.

كان ذلك على بحيرة «كاتركانتون» حيث الطبيعة ساحرة توحي بالشعر والحب... تذكرت صونيا تلك الساعات اللذيذة التي قضتها على ضفاف البوسفور، وحنّت إلى ليالي الشرق الساحرة المقمرة. وتحررت حيناً من مشاغلها مع الألمان، فتوجهت بعد العشاء إلى ضفة البحيرة واستقلت مركباً صغيراً وراحت تتنزه في البحيرة وتمتع النفس بمباهج تلك العشية.

وانسابت من البحيرة على بعد نصف فرسخ من الشاطىء ألحان شجية سحرية كأنها خارجة من أعماق المياه في هدأة المساء تبعث في الأوصال رعدة خفيفة هي مزيج من تفتح الشعور وانبساط النفس وإحساس برهبة وحبور معاً، يعقبها استسلام لذيذ لأحلام وخيالات مبهجة محزنة تقبض النفس تارة، وترسلها طوراً على انقباض الأوتار وامتدادها وارتفاع العقيرة وانخفاضها.

كان الضارب على «القيثار» ضابطاً ايكوسياً من كبار جرحى الحرب اعتاد بين عشية وأخرى أن يقصد إلى هذه البحيرة الحنون يعزف بين أحضانها ويرتل أغنيات بلاده في ظلمة الليل ووحشته.

ترددت صونيا على البحيرة بعد تلك الليلة، ليالي عديدة لتستمع إلى أغنيات الايكوسي تبعث الحنين في نفسها. وأدركت أن في الدنيا مباهج كانت تحرمها إياها مشاغلها المادية ويبعدها عنها انصبابها على العمل وحده... شعرت صونيا أن هناك أشياء غير المادة والمنفعة الوضيعة. وأخذ مركبها يقترب كل مساء من مركب الايكوسي أكثر فأكثر إلى أن كان الوصل وانقطع الغناء وما بقيت البحيرة تسمع سوى همسات حبيبين متيمين.

عرفت صونيا لوناً جديداً من الحياة، وانفتحت أمامها آفاق جديدة مغرية. ولكنها لم تكن محترسة، فافتضحت علاقتها بالضابط الايكوسي، ورأت عيون الدائرة السرية البريطانية من الحكمة قطع صلة خطرة ارتاح لها الألمان كل الارتياح. واستدعي الضابط إلى السفارة البريطانية في برن وأفهم أن من أحبها وأحبته ليست سوى الأميرة صونيا، وأن اتصاله بها خطر.

كانت الضربة شديدة على قلب الضابط وآماله. ولكنه كان قبل

كل اعتبار، جندياً ليس له إلاّ التنفيذ. وبعد يومين غادر لوسرن وقد نقل إلى مركز جديد، تاركاً لصونيا كلمة فاترة وبعض المال تتعزى به!.

كانت الرسالة ولاسيما المال طعنة في قلب صونيا مزقته بلا رحمة، فانهارت وسقطت بدون حراك كزهرة في أوج تفتحها حصدها منجل ظلوم. ولمّا انقطع خبرها وفتش عنها خدم الفندق وجدوها مسجاة على الحضيض في غيبوبة وبين يديها رسالة وتحويل مالي مدعوكين.

ظلت صونيا أسابيع عديدة في شقاء عظيم فريسة لحمى في دماغها كادت تذهب بحياتها. ولمّا أنقذها الأطباء السويسريون من الموت أو الجنون، نصحوا لها بالعودة إلى اسطنبول حيث قضت فترة نقاهة طويلة.

وعادت المرأة شيئاً فشيئاً إلى الهدوء بعد العاصفة الهوجاء التي هدّتها، وعاشت عيشة هادئة، ونسيت الماضي وما أدت من خدمات للألمان. ولكن هذه الحياة لم تدم. فقد انتهت الحرب ودخل الحلفاء إلى اسطنبول، فطردها الإنكليز، والإنكليز قوم يعرفون معنى النظام، حاضرو الذاكرة، لا ينسون ثأراً ولا ينامون على ضيم.

هذا ما رواه لي فيليوتيس عن الأميرة صونيا. . . وانقضت سنون عديدة. ولمّا أردت كتابة هذه القصة سعيت لأعرف ما صار إليه أمرها، وجهدت في البحث والتفتيش فعلمت أن الألمان أهملوا معاش صونيا بعد أن تبدل نظام الحكم في بلادهم، فبقيت ثلاثة أو أربعة شهور تنفق ثمن مجوهراتها حتى خلا وفاضها وفقدت حتى القوة على النضال للعيش. فأدخلت ملجأ للأجانب في حقل بعيد من حقول

ايبير باليونان. ولكنها لم تستطع البقاء مدة طويلة لأن الناس ضاقوا ذرعاً بعجوز لا فائدة منها. وطوحت بها الأقدار أخيراً إلى مدينة سالونيك حيث عاشت زمناً من فضلات المحسنين. ثم آواها أحد المستشفيات إلى أن لفظت آخر أنفاسها.

❁ ❁ ❁

تعتبر ألمانيا الدولة التي استخدمت النساء أكثر من أية دولة أخرى في نبش الأسرار السياسية وسرقة وثائق عسكرية أو خلق أجواء موافقة لأغراضها في بعض المناطق.

ولم يكن البارون مارشل فون بييبرشتاين أول من ابتدع هذه الوسيلة في التجسس. فقد سبقه إليها في القرن الحادي عشر إمبراطور ألمانيا اوتون الأول يوم استعان بشقيقته في ردّ محاولات الفرنسيين في استرداد حدود الرين.

واستخدم بسمارك النساء ونادى بأهميتهن في السياسة والحرب على رؤوس الأشهاد.

حدث ذلك يوم أبعد غليوم الثاني بسمارك من منصب المستشارية. فقد اعتكف هذا في قصر «فريدريكروهه» حيث راح يقضي أيامه في إملاء مذكراته على كاتبين والتنزه في الغابات وصب جام غضبه على من خلفوه في الحكم وعلى الإمبراطور خاصة.

وزاره ذات يوم في القصر وفد من الألمان المقيمين في الألزاس واللورين. وأخبر بسمارك رجال الوفد، في ساعة هياج، أنهم لا يمثلون سكان الألزاس واللورين المضموتين إلى ألمانيا وأن ثمة وادياً سحيقاً يفصل بين اللوريني والألماني. وقال: «إن هؤلاء السكان جماعة يفكرون كما يفكر الفرنسيون، ومحال أن تستطيعوا حملهم على

تغيير شعورهم ولو استعنتم أشد الموظفين البروسيين صرامة وأكثرهم إخلاصاً. إنكم لا تجيدون فنون الإغراء واكتساب الود. وحبذا لو استطعنا استبدالكم كلكم بنساء جميلات ذكيات... ومن المؤسف حقاً ألاّ يكون عندنا في ألمانيا حسناوات كثيرات يجمعن إلى الجمال ذكاء ومقدرة».

قال موريس بوش، أحد مؤرخي بسمارك، إن رجال الوفد أحسّوا بإهانة وكادوا يتمزقون غيظاً. ولكن بسمارك استطرد يثبت لزائريه صحة رأيه، قال:

ـ لئن نكن قد استطعنا أن نتغلب على الفرنسيين، فما ذلك إلاّ لأن سياستي مهدت لجنود جلالة غليوم الأول سبيل النصر...

أتعرفون أيها السادة، أنني أنا الرجل البسيط الطباع، المحافظ على أخلاقنا الجرمانية المتينة وعلى أموال الأمة، كنت أستخدم بأموالكم جيشاً من النساء في فرنسا؟ أراكم قد دهشتم لما أقوله لكم! فلا تعجبوا. واعلموا أنه كان لي في البلاط الفرنسي وبجانب الوزراء وفي المجتمع الباريسي وبين بعض رجال الصناعة معاونات جميلات، وأنهن هن اللواتي أتحن لنا الانقضاض على فرنسا في الوقت الملائم وسحقها بسهولة وبأقل الخسائر. وأنني استطعت أن آمن شر سياسيّ هو اليوم عظيم الخطر على ألمانيا لأنه واسع النفوذ قوي الشكيمة شديد المراس، بفضل عشيقته التي هي أحد أعواني.

«وأخشى ألاّ يهتم خلفي دي كابريفي بهذه الناحية الحساسة من سياستنا الخارجية، وألاّ يتبع الأساليب الفعالة التي اتبعتها مع الفرنسيين».

ولكن خلفاء بسمارك لم يخيبوا ظنه، لأنهم لم يكتفوا باتباع

أساليبه في التجسس والعمل السياسي، بل وسعوها حتى شملت جميع الميادين السياسية، ومختلف البلاد التي تهتم ألمانيا بشؤونها. وقصة الأميرة صونيا خير دليل على ذلك.

واستخدم غليوم الثاني نساء أرقى الطبقات النبيلة في ألمانيا، لدعم سلطانه وفضح أسرار جيران ألمانيا. ومد دوائر الاستعلامات السياسية والعسكرية الألمانية بالخطير من الأخبار. وما كان غليوم يتراجع أمام أية خطوة يرى فيها تثبيتاً لسلطانه المطلق وتحقيقاً لأغراضه. ومن أقواله المشهورة في إحدى خطبه:

«ليس في هذه البلاد سوى سيد واحد هو أنا، ولست أرضى بأن يكون فيها غيري. وفي ألمانيا قانون واحد نافذ هو قانوني أنا. وإذا أمرتكم رجالاً ونساء بالعمل وجب عليكم الانصياع، حتى لو طلبت منكم قتل أهلكم وإخوتكم وأخواتكم وجبت عليكم الطاعة!».

كان القيصر الحاكم بأمره ونهيه. ولم تنج أكثر نساء الطبقة الراقية اعتزازاً ومناعة، من قبضته. واستخدم من شاء منهن في التجسس والسياسة وحوّلها إلى جاسوسة من أسقط طراز.

صونيا بيستنيتسكيا[*]

(Sonia Pistnitskia)

(-)

هي إحدى جواسيس الاستخبارات السوفياتية ثم الألمانية. وقد اشتهرت بأنها من أبرز النساء في عالم الجاسوسية. كيف كان ذلك؟

في مطلع العام 1939 كانت تقيم في فرنسا امرأة ألمانية لفتت أنظار الدوائر السرية بكثرة الرسائل التي كانت تتلقاها من ابنها يعلمها فيها باعتزامه الهرب من الرايش، ويطلب إليها السعي في سبيل إيصاله إلى حدود بلجيكا ومدّه بالمال اللازم لهربه ومساعدته ليأمن كل ما يعرّضه للسؤال أمام السلطات. وقد ذكر لها في إحدى خطاباته أنه سيسلك طريقاً توصله إلى منطقة مالميدي في فرنسا.

سعت المرأة لدى السلطة المختصة بمراقبة الأجانب واستعانت جماعة من أصحاب النفوذ فسندوها وزوّدوها بوصايا للمسؤولين في بلجيكا. وأعلنت ذات يوم أنها عازمة على السفر إلى بلجيكا لاستقبال ابنها. ولم يكن بد من تنظيم إجازة سفرها من فرنسا إلى بلجيكا والاطلاع على أوراق هويتها. وشاء سوء طالعها أن يعثر ضابط الأحوال المدنية في السجل الخاص بها على تصريح كانت قد أدلت

(*) المرجع: جان بردان «جاسوسات ألمانيات»... ص150 ـ 153.

به في العام 1928 يوم وصلت إلى فرنسا لتقيم فيها، وأعلنت فيه أنها غير متزوجة.

ونقل خبر هذا التصريح وتناقضه مع ادعاء المرأة أن لها ابناً شاباً قادماً من ألمانيا، إلى دوائر التحقيق المختصة. وتظاهرت هذه بأنها لم تفضح أمر الجاسوسة الألمانية. وأوعزت دائرة الاستعلامات إلى موظفيها في ألمانيا بالتحقيق، فكانت النتيجة أن المرأة عزباء وأن لا بعلاً لها ولا ولداً شرعياً أو غير شرعي.

ووصل الشاب (الابن المزعوم) إلى الحدود الفرنسية ـ البلجيكية، وإذ كان يهم بالدخول قبض عليه وفضحت حقيقته فإذا هو ضابط من ضباط الجيش الألماني متنكر باسم مستعار وجاسوس مكلف القيام بمهام تتعلق بكشف بعضٍ من نواحي الدفاع الفرنسي.

ثم اعتقلت المرأة فاعترفت بأنها أكرهت على التجسس إكراهاً. وروت قصتها فادعت أنها اضطرت بسبب الفاقة إلى الاشتراك في سرقة دبرتها عصابة من الشبان تعرفت بهم صدفة وغرروا بها ثم طلبوا منها تمثيل الرواية عن وصول ابنها المزعوم، مهددين إياها بفضحها والإيقاع بها في أيدي الشرطة إذا امتنعت.

❀ ❀ ❀

لما عقد مؤتمر لوكارنو التاريخي التقيت للمرة الأولى ـ يقول جان بردان ـ تلك المرأة التي سميت بعدئذ بذات العينين الذهبيتين. كانت المرأة نحيلة القوام وعنوان الأناقة. اندست في صفوف الصحافيين وبين أركان وفود الدول زاعمة أنها أمينة سرّ «عصبة الأسرة والسلام» وهي المؤسسة الأميركية التي نادت بمكافحة الحروب والذَّود

به في العام 1928 يوم وصلت إلى فرنسا لتقيم فيها، وأعلنت فيه أنها غير متزوجة.

ونقل خبر هذا التصريح وتناقضه مع ادعاء المرأة أن لها ابناً شاباً قادماً من ألمانيا، إلى دوائر التحقيق المختصة. وتظاهرت هذه بأنها لم تفضح أمر الجاسوسة الألمانية. وأوعزت دائرة الاستعلامات إلى موظفيها في ألمانيا بالتحقيق، فكانت النتيجة أن المرأة عزباء وأن لا بعلاً لها ولا ولداً شرعياً أو غير شرعي.

ووصل الشاب (الابن المزعوم) إلى الحدود الفرنسية - البلجيكية، وإذ كان يهم بالدخول قبض عليه وفضحت حقيقته فإذا هو ضابط من ضباط الجيش الألماني متنكر باسم مستعار وجاسوس مكلف القيام بمهام تتعلق بكشف بعضٍ من نواحي الدفاع الفرنسي.

ثم اعتقلت المرأة فاعترفت بأنها أكرهت على التجسس إكراهاً. وروت قصتها فادعت أنها اضطرت بسبب الفاقة إلى الاشتراك في سرقة دبرتها عصابة من الشبان تعرفت بهم صدفة وغرروا بها ثم طلبوا منها تمثيل الرواية عن وصول ابنها المزعوم، مهددين إياها بفضحها والإيقاع بها في أيدي الشرطة إذا امتنعت.

❀ ❀ ❀

لما عقد مؤتمر لوكارنو التاريخي التقيت للمرة الأولى - يقول جان بردان - تلك المرأة التي سميت بعدئذ بذات العينين الذهبيتين. كانت المرأة نحيلة القوام وعنوان الأناقة. اندست في صفوف الصحافيين وبين أركان وفود الدول زاعمة أنها أمينة سرّ «عصبة الأسرة والسلام» وهي المؤسسة الأميركية التي نادت بمكافحة الحروب والذَّود

عن السلام العالمي والتي انضم إليها أكثر من مليون امرأة أميركية.

وسرعان ما لفتت المرأة الأنظار إليها. وتحدث الساسة عنها وعن المؤسسة الكبيرة التي تمثلها. ولا عجب فقد كان لها من بسمتها الساحرة ولطفها وجاذب عينيها الزرقاوين الذهبيتين، خير عون على إقناع مندوبي الدول بأنها تعمل من أجل السلام وتتسقط الأخبار وتطرح الأسئلة وتستوضح الخفايا لتوافي مؤسستها بها.

وأدهشني في آخر يوم من أيام المؤتمر أن أرى الصبية في غمرة الزحمة السياسية العظيمة التي منعت كثيرين من الصحافيين والمصورين من الوصول إلى أعضاء الوفود، غارقة في حديث مع عضو من أبرز أعضاء الوفد الفرنسي. وحسدتها على هذا السبق الصحفي والتفت إلى زميل أميركي كان بجانبي وأطريت له نشاط مواطنته ونجاحها.

نظر إليّ الشاب نظرة استغراب وقال مبتسماً:

ـ مواطنتي؟ كيف تقول إنها مواطنتي؟ إنها فنلندية يا صاح!.

ـ خل عنك المزاح. أليست هذه المرأة أمينة سر «عصبة الأسرة والسلام»؟ لقد أكدت لنا ذلك بنفسها وأخبرتنا أن العصبة تضم أكثر من مليون امرأة أميركية!.

وانفجر الأميركي ضاحكاً كأنه حسبني أهرف. وحدث ساعتئذ أن بدأ رئيس الوفد الفرنسي يدلي ببيان للصحافيين عن المؤتمر، فانشغلنا به عن قصة المرأة. وسافرت في ذلك المساء إلى لندره ونسيت الصبية ودعواها، إلى أن جمعتني الصدفة بها في العام 1933، بعيد تسلم هتلر زمام الحكم في الرايش الألماني.

كنت في برلين يومذاك، وكم كانت دهشتي عظيمة لمّا رأيت

صورة المرأة ذات العينين الذهبيتين منشورة في الصحف مع خبر يعلن اعتقالها. وإذا اسمها **صونيا بيستنيتسكيا**، وإذا هي من أقارب عضو في مجلس «الكومنترن». وقد وصفتها الصحف بأنها جاسوسة روسية عظيمة الخطر.

لم تكن الأميركية المزعومة، التي ظنها زميلي الأميركي فنلندية، سوى جاسوسة روسية اشتغلت في مؤتمر لوكارنو لحساب دائرة التجسس والاستعلامات السوفياتية.

كانت الفضيحة من الأخبار الفريدة التي أثارت اهتمام الصحافة العالمية بأسرها. وطمعتُ في الحصول على تفصيل القضية ودقائقها معتمداً على ما كان الألمان يبذلونه من الجهد لنشر أكثر ما يمكن نشره عن نشاط الشيوعين، وعلى ما اعتادته شرطة برلين في ذلك العهد من تزويد الصحافيين والمخبرين بكل ما تملك من أخبار وفضائح تتعلق بهذا النشاط. ولكن المسؤولين رفضوا بكل أدب إعطاء أي إيضاح عن قضية صونيا الحسناء واكتفوا بإبلاغنا أن المرأة اعتقلت وهي مسلحة وأنها ستعدم. وكان من العبث الإلحاح للحصول على المزيد من التفصيل.

ومضت الأيام... وإذ كنت في بروكسل في أحد أيام تموز (يوليو) من ذلك العام، كدت أصعق لمّا رأيت صونيا في قاعة فندق المتروبول حية ترزق وبصحبتها جاسوس من مشاهير موظفي الدوائر السرية الألمانية أو بالأحرى النمسوية.

قد تكون الحسناء ذات العينين الذهبيتين قد اشتغلت بعض الزمن للدوائر السرية الروسية، وهذا ما أشك فيه. ولكنها في الحقيقة كانت موظفة مرموقة من موظفي دائرة التجسس والاستعلامات الألمانية.

وظلت مدة الحرب العالمية الثانية مساعدة أمينة للأميرال كاناريس الذي أدار شبكات التجسس الألمانية إبان الحرب بيد من حديد ورسم خطط التجسس ومكافحة الجاسوسية في الميدان العسكري، بينما ظل نيكولاي يعمل خلف الستار. وقد كان كاناريس من أعداء هتلر وفي عداد من دبّروا المؤامرة الشهيرة لإسقاطه.

حرف الغين

1 ـ غابرييل بوتيه.

2 ـ غابي غاست.

3 ـ غريتا غاربو.

غابرييل بوتيه(*)
(Gabrielle Botee)
(1916 - 1893)

جاسوسة بريطانية شهيرة قدّمت خدمات جلّى لبلادها في الحرب العالمية الأولى. وهي التي اشتهرت بقولها: «وداعاً، لا تأسفي على شيء. هذا أمر طبيعي جداً. إنها الحياة نغادرها مثلما نأتيها. أنا غير آسفة على شيء. كوني عاقلة وشجاعة...». بين القطب الأخيرة من قطعة قماش مطرزة كتبت غابرييل بوتيه، في 31 آذار (مارس) 1916، هذه الرسالة الأخيرة الموجهة إلى أختها «هيلين». كانت غابرييل تعلم، بخلاف لويز دو بيتينيي التي خفف حكم الإعدام الصادر بحقها وتم نقلها إلى سجن ألماني، أنها لن تنجو من الموت وأنه سيصار إلى إعدامها رمياً بالرصاص، بعد عدة ساعات، في حقل الرمي الوطني.

وُلدت غابرييل بوتيه في مدينة «تورني»، في شهر شباط (فبراير) من العام 1893. وكانت الابنة الثانية لعائلة من الطبقة البورجوازية الغنية. عُرفت غابرييل بمرحها وبشكلها الذي يشبه الصبيان حين ألمت بها تلك المأساة التي غيّرت مجرى حياتها. فقد توفيت والدتها

(*) المرجع: جينو ڤيفا إيتيان وكلود مونيكيه «تاريخ الجاسوسية العالمية» ترجمة مروان بطش. دمشق 1998. ص229 - 232.

المريضة، عن عمر يناهز الثلاثة والثلاثين عاماً، مخلِّفة وراءها أربعة أطفال، لأب ذي طباع غير مستقرَّة، أهملهم قبل أن يتخلى عنهم ويهجرهم. وعندئذٍ وضعت غابرييل في دار للأيتام في بلدة «بروجليت» حيث خضعت، حتى سن السابعة عشرة، لنظام قاسٍ، وعُزلت عن العالم الخارجي ولم تتلق أية زيارة أو أي طرد يحمل هدية.

أما «جول بوتيه» الذي عاد وتزوّج ثانية وجمع ثروة، فقد قرر استعادة ابنتيه. لكن غابرييل وشقيقتها هيلين التي تكبرها بسنة واحدة لم ترغبا في العودة إلى أبيهما. وكانت غابرييل التي لم تثبت على عمل، واشتغلت على التوالي عاملة في ورشة خياطة وخادمة وممرضة وبائعة، قد أدهشت الكثيرين بذكائها وسرعة خاطرها التي لا يجاريها فيها أحد. ففي منزل السيدة كوليه التي سيكون لها دور هام في نشاطها السري، استأجرت الجميلة غابرييل غرفة صغيرة في جادة «آنفيرس» بمدينة بروكسيل. وفي آذار (مارس) من العام 1914، خُطبت إلى السيد موريس غوبير، لكنّ زواجها به لم يتم بالرغم من آلاف المشاريع التي حاولا إقامتها معاً. إذ بعد عدة أشهر من الخطوبة، جرت تعبئة ضابط الصف البلجيكي الشاب الذي تاه في عاصفة الحرب العالمية الأولى. وبعد أن تسلّم عدة رسائل عاطفية من غابرييل، كان آخرها في السابع عشر من آب (أغسطس) من العام 1915، فقد كل اتصال مع شقرائه الجميلة التي لم يعد يراها منذ ذلك الحين. ذلك أن غابرييل بوتيه كانت اتخذت قراراً مهمّاً بعد كتابة آخر رسالة له: لقد صممت على العمل من جديد وعدم البقاء ساكنة في وجه هذه الحرب الرهيبة وخطيبها في الجبهة. كان يتوجب عليها أيضاً خدمة بلادها بشكل أو بآخر. لذا فقد توجهت إلى هولندا دون أن تُعلمَ أحداً. واستقلّت من مرفأ روتردام الباخرة «كوبنهاغن» المتوجهة

إلى لندن، حيث تطوعت فوراً في المخابرات الإنكليزية. وإذ أضحى اسمها الآنسة لوغران، تمّ تكليفها بجمع المعلومات حول موقع القوات الألمانية في بلجيكا وتحركاتها. وكانت أجابت العميل الذي جندها وحذّرها في الوقت نفسه من مخاطر مهمتها، أجابته بلا تردد: «لقد فكّرت في ذلك مليّاً، وأنا مصرة على موقفي. إذ أن هذا العمل يعني في نظري الإخلاص التام للوطن وأقصى ما يمكن أن تبذله لبلدها امرأة وخطيبة جندي».

لدى عودتها إلى بلجيكا، بعد أن اضطرت من جديد لاجتياز الحدود الهولندية في سواد الليل، أطلعت الجاسوسة السيدة كوليه على عملها الجديد وطلبت منها استلام الرسائل الواردة من «فليسينغ». ثم انصرفت إلى المغامرة ببرود أعصاب وشجاعة لا تلين. وإذ كانت خبيرة في فن التنكر، أخذت المرأة الشابة تعمل متنقلة بين جبهة «إيبر» وبلدة «موبوج»، متنكرة تارة بزي ممرضة وتارة أخرى بزي صيادة بالصنارة. لم يكن أحد يضارعها في التنقُّل بين المقاهي، تبيع مرة الصحف، وتغازل مرة أخرى الضباط الألمان، لتستمع إلى أحاديثهم عن كثب وتسترق النظر إلى الرقم الذي خيط في داخل قبعاتهم، لكي تتعرف على أفواجهم وتكتشف بالتالي التنظيم القتالي الألماني. والأدهى من ذلك أن غابرييل كانت ترتدي زي ضابط بروسي باسم «والتر هينيغ» حين كانت تسافر إلى بريطانيا لتقدم تقريراً حول عملها السري. وبالرغم من المخاطر التي كانت تتعرض لها كلّ يوم، لم تفقد غابرييل قط روح الفكاهة: إذ كانت توصل بنفسها الصحيفة السرية «بلجيكا الحرة» إلى مكتب الحاكم الألماني الجنرال «فون بيسينغ» وتقول بنبرة ساخرة: «يجب أن نرفه قليلاً عن صاحب السعادة».

بيد أن تنقلاتها العديدة أيقظت في آخر الأمر شكوك الألمان الذين تتبعوها وأوقفوها للمرة الأولى في العام 1915. وقبل اقتيادها إلى التحقيق، وقفت في غرفتها ونزعت من عنقها ميدالية تحمل صورة ملكها ألبرت، فوضعتها في درج قائلة للضابط الألماني: «لا أريده أن يمضي الليل في مركز القيادة الألمانية». كانت وطنية غابرييل بوتيه الصادقة تكمن في هذه الجملة. وقد استمر التحقيق معها ثلاثة أيام، فكانت قحّتها وألفاظها الفظة تثبط عزيمة العدو. وبالإضافة إلى ذلك، رفضت غابرييل التوقيع على تصريحاتها المدونة باللغة الألمانية. وما أن أُطلقَ سراحها حتى عادت إلى مزاولة نشاطها. لقد تمّ اعتقال المسؤولين الرئيسيين في المنظمة التي كانت تعمل بها وواجهوا جميعهم فرقة الإعدام، لكن غابرييل لم يداخلها الخوف مطلقاً، بل كانت تزيد من جهودها.

في العشرين من كانون الثاني (يناير) من العام 1916، كانت السيدة كوليه غائبة عن المنزل تقوم ببعض المشتريات حين قرع الباب رجل مجهول. فاستقبلته ابنة أخيهاوقالت له: «لا يوجد لدينا آنسة باسم لوغران... هذا إن لم تكن ترغب بالتحدُّث إلى غابرييل بوتيه؟»، وعندئذٍ طلب الرجل المجهول من الآنسة الشابة إعلام السيدة كوليه بأنه سينتظرها في مقهى مجاور. ولدى عودتها، توجهت السيدة كوليه إلى الموعد المحدد، معتقدةً أنها ستجد هناك الرجل الذي كان يأتي بالرسائل من «فليسينغ» والذي انقطعت أخباره منذ عدة أسابيع. كانت تجهل أن هذا الأخير قد وقع في الأسر وأنه تكلم تحت التعذيب. أما الرجل المجهول الذي ادعى أن اسمه كيندر مانز، فقد أعلم السيدة كوليه بأنه مكلف بتسليم الآنسة غابرييل مخططات بطاريات المدفعية الألمانية في منطقة الإيزر. كان الرجل، بالرغم من

لكنته الألمانية الخفيفة، يوحي بالثقة، إذ كان يعرف كلمة السر الخاصة بشبكة غابرييل. ولكن حين عاد إلى الشقة، في الثاني من شباط (فبراير)، برفقة ثلاثة ألمان، كان يحمل بيده مسدساً. وما لبث أن أخذ ينزع بغضب أوراق الجدران ويلقي بمحتويات الخزائن على الأرض، ويكسر التحف المعروفة الواحدة تلو الأخرى أمام أنظار غابرييل الهادئة. وبعد انتهاء التفتيش تم اقتياد المرأة الشابة.

تعرضت غابرييل للاستجواب والتعذيب طوال أيام وليالٍ. ولم تكن لتخرج عن صمتها إلاً لكي تبصق كراهيتها في وجه جلاديها وتكيل لهم الشتائم. وحين مثلت أمام هيئة المحكمة في قاعة الجلسات الكبرى في مجلس الشيوخ، رُفض طلبٌ بتعيين محام بلجيكي للدفاع عنها. وصدر الحكم عليها بالموت، فوقع عليها وقوع الصاعقة وعندئذٍ صرخت قائلة: «أنتم الشر مجسَّداً بصورة بشر. لقد نهبتم وأحرقتم بلادنا، وعذبتم وذبحتم جنودنا والمدنيين الأبرياء. حتى النساء والأطفال لم ينجوا من شرِّكم». فصرخ فيها رئيس المحكمة قائلاً: «اخرسي! أوَ تعلمين أن مهنة التجسس تستحق الموت؟ لقد كانت شبكتكم السبب في موت آلاف الجنود الألمان». وحين غادرت قاعة المحكمة وقد أحاط بها الجنود، صرخت غابرييل في الجمهور قائلة: «انظروا إليّ، إنني جاسوسة بلجيكية وقد حكموا عليّ بالموت».

وفي سجن سان جيل، كانت غابرييل تحاول إخماد غضبها وثورتها بالغناء بصوت عالٍ. ورفضت التوقيع على التماس بالعفو عنها. وهل تطلب هي الرحمة من العدو الذي يضطهد بلادها؟ لا أبداً!.

انقضت أسابيع طويلة بين صدور الحكم ولحظة تنفيذه. كانت أجهزة الجنرال «فون بيسينغ» تأمل، من خلال هذا الانتظار الأليم، ثني عزيمة الجاسوسة، ومن ثم انتزاع بعض المعلومات الدقيقة منها حول شبكتها ولكن عبثاً. إذ لم تعترف غابرييل بشيء. وبعد عدة وساطات، نجحت هيلين في الحصول على مقابلة أخيرة مع أختها، وكان ذلك في 31 آذار (مارس)، إذ وصل إلى مسامعها أن موعد الإعدام قد حُدِّد لليوم التالي. وقد قالت لها همساً وهي تبكي: «إنه لصباح غدٍ». فأجابتها غابرييل بهدوء: «كنت أتوقع ذلك... لقد رُحّلت الآنسة دو بيتيني مع عدة أشخاص محكوم عليهم بالموت... أما أنا فقد بقيت، وهذا يعني أنني سأُعدم».

وفي مطلع نيسان (أبريل) من العام 1916، وفي الساعة 5,30، اقتيدت غابرييل، وأجفانها محمرة من البكاء والدموع، إلى حقل الرمي الوطني. وإذ كان الجنود يحيطون بها، أخذت تصلي بصوتٍ عالٍ، ثم حيّت الكاهن والضابط والجنود، وسارت بخطوات سريعة ووقفت أمام فرقة الإعدام. وبينما كانت تصرخ عالياً: «تحيا بلجيكا، تحيا...» تهاوت بهدوء تحت طلقات الرصاص. وسيقول فيما بعد الضابط الألماني الذي شهد عملية الإعدام: «لقد ماتت هذه المرأة مثل قلّة من الرجال ممن يعرفون كيف يموتون». ولسوف يستخرج جثمان غابرييل بوتيه من قبره في 27 أيار (مايو) من العام 1919 كي يتمكن مواطنوها من تشييعها باحتفال رسمي. وستنحني الملكة إليزابيت بنفسها، وقد اتشحت بالبياض، أمام الجثمان قل أن تضع على التابوت وسام الصليب من فئة ليوبولد. كما سيُثبت على جدار منزلها في مدينة «تورني» لوحة تذكارية تحمل العبارات التالية: «هنا وُلدت البطلة الوطنية غابرييل بوتيه التي أعدمها الألمان بجبن».

يبقى أن نعلم أنه بينما كانت «غابرييل بوتيه» تواجه فرقة الإعدام في أيار (مايو) من العام 1916، كانت ماتا هاري لا تزال تجهل أنها ستواجه المصير نفسه بعد سنة ونصف من ذلك الحين.

غابي غاست(*)
(Gabi Gast)
(-   )

إحدى جاسوسات ألمانيا الشرقية.

إذ تمّ تجنيد «غابي غاست» من قبل دائرة التجسس الألمانية الشرقية، على أثر لقائها بحبيب حياتها «كارل هينز شنايدر»، المعروف باسم «كارليتزيك»، حين كانت طالبة في العلوم السياسية. وقد أنجزت مهمتها بنجاح كامل حين تقرَّبت من أستاذ جامعي كبير بغية أن تعمل مع الاستخبارات الألمانية الغربية. وبعد أن أصبحت زوجة ذلك الأستاذ، وكان يدعى «لينفيلدر»، أخذت تعمل في المقر العام للاستخبارات الألمانية الغربية، في مدينة «بولاش» بالقرب من ميونخ، وكُلِّفت بإعداد دراسات حول بلدان أوروبا الشرقية. وقد أرسلت، بين عام 1973 و 1990 تقاريرها المصورة كافة، وفي آن واحد، إلى مستشارية ألمانيا الفيدرالية وكذلك إلى استخبارات ألمانيا الشرقية بعد أن كانت تخفيها في عبوات من مزيل الرائحة.

أما ماركوس وولف، رئيس دائرة التجسس الألمانية الشرقية

(*) المرجع: جينو ڤيفا إيتيان وكلود مونيكيه «تاريخ الجاسوسية العالمية». مرجع سابق. ص247.

الأسطوري الذي التقاها للمرة الأولى في يوغسلافيا في العام 1975، فقد اعترف هو نفسه بأنها كانت عميلة استثنائية ذات قناعات إيديولوجية ولا تقبل العمل من أجل المال. «وقد فتحت لها حساباً في أحد مصارف ألمانيا الديمقراطية حيث كانت تتلقى بين 700 وألف مارك شهرياً لمساعدتها في حال العودة إلى ألمانيا الديمقراطية».

وإذ وشى بها ضابط من دائرة التجسس الألمانية الشرقية، في أثناء حلّ هذه الدائرة، كان يسارع، مثل كثيرين غيره، إلى تغيير معسكره، فقد جرى اعتقالها قبل ثلاثة أيام من إعادة توحيد ألمانيا، وهو الحدث الذي كان يُفترض أن يجمعها بـ«كارل هينز شنايدر». وقد صرّح «ماركوس وولف» للصحفي الفرنسي «موريس نجمان» قائلاً: «كان مصابها كبيراً وتشعر بقلق شديد على ابنها الذي بلغ السادسة عشرة من عمره. كان عجزي عن مساعدتها يدفعني إلى الجنون. وكنت أشعر بالمسؤولية عمّا ألمَّ بها». وفي تلك الأثناء، اختار حبها الكبير (شنايدر) أن يعيش مع امرأة أخرى. وعاشت «غابي غاست» بقية حياتها وقد حطمتها لعبة التجسس الكبرى.

غريتا غاربو(*)
(Gretta Garbo)
(1905 - 1990)

هي إحدى أكبر نجوم السينما في هوليوود في النصف الأول من القرن العشرين، كما لعبت في الوقت نفسه دوراً هاماً وخطيراً لصالح الاستخبارات الأميركية والبريطانية ضد النازيين في البلاد الإسكندينافية، وتحديداً في السويد. وكان أهم كتابين صدرا في النصف الثاني من القرن العشرين، بل في الربع الأخير منه، وتناولا قضية تجسس «غريتا غاربو» هما: «مآثر وإخفاقات الجاسوسية الأميركية» من تأليف «بيار دي فيلمارست» وصدر في جنيف سنة 1978، وكتاب «النازية والحرب العالمية الثانية في سينما التجسس» لـ «رولان لاكورب» وصدر في باريس سنة 1983.

والجدير بالذكر، أنه خلال السنوات السابقة مباشرة للحرب العالمية الثانية، كانت غريتا غاربو، السويدية الأصل والمولودة عام 1905 باسم «غريتا لوريزا غوستافسون»، مثلت العديد من الأدوار

(*) **المرجع**: إبراهيم العريس في مقالته عن الجاسوسية. نشرت في مجلة الوسط. العدد 552 في 26 آب 2002 ص16 ـ 17.
ود. صالح زهر الدين «قاموس المخابرات والتجسس». الجزء الحادي عشر. المركز الثقافي اللبناني. بيروت. الطبعة الأولى 2003. ص169 ـ 175.

الكبيرة التي تليق بشهرتها في أفلام مثل «ماتا هاري» (1931)، و «غراند أوتيل» (1932) والملكة كريستينا (1933) و «آنا كارنينا» (1935) و «غادة الكاميليا» (1937). لكنها على رغم نجاحها الساحق في هذه الأفلام أعلنت فجأة أنها لم تعد راغبة في المزيد وتفضل الابتعاد.

ويبدو أن غريتا غاربو تأثرت كثيراً بشخصيات النساء التي لعبتها، وبدأت ترى نفسها على غرارهن في الواقع... خصوصاً دور العميلة السوفياتية التي تكتشف الحب والحرية إذ تبعث إلى الغرب...

وهكذا، حين اندلعت الحرب العالمية الثانية وتوجهت غاربو لتعيش فترة في ستوكهولم، على عكس ما كان يتوقع كثيرون، تسارعت التساؤلات: ماذا تراها تفعل هناك؟ وكيف تختار هذه النجمة العالمية أن تعيش في مدينة غزاها النازيون، بينما يفرّ كثيرون من ستوكهولم نحو بلدان أقل تعرضاً للحرب بخاصة نحو الولايات المتحدة؟... ومن أولئك الذين صعب عليهم تصور الأمر «لويلا بارسونز» إحدى الشخصيات الأكثر نفوذاً في هوليوود في تلك الأيام. فذات يوم كانت غريتا غاربو في الولايات المتحدة، فتساءلت «بارسونز» بدهشة وغضب عما يجعل «هذه المرأة التي أعطتها أميركا كل شيء تستنكف عن المشاركة في قوافل النصر التي راح الفنانون الأميركيون وغيرهم يشكلونها لدعم المجهود الحربي الأميركي، بعدما دخلت أميركا الحرب».

بالنسبة إلى «بارسونز» كان استنكاف غاربو مثيراً للشبهات، ومن شأنه لاحقاً أن يقضي على مستقبلها السينمائي، لأن الشعب الأميركي والشعوب الحرة كلها في رأي بارسونز: لن تستطيع أن تنسى الذين

وقفوا معها، والذين تخلوا عنها. لكن بارسونز لم تكن تعرف، وهذا طبيعي، أن غاربو كانت تجازف، ليس بمستقبلها الفني فقط، بل بحياتها أيضاً، من أجل القضية نفسها التي خُيّل لبارسونز أنها تكفلها.

في ستوكهولم كانت غاربو تعيش في تلك الأوقات بالذات، أخطر أيام حياتها. وعلى الأقل هذا ما كان يؤكده كتاب بيار دي فيلمارست، والذي يقول استناداً إلى العديد من الوثائق والمعلومات التي جمعها، أن غاربو كانت بين العام 1939 و 1943 وخلال الفترة التي قضتها في ستوكهولم «محوراً رئيسياً لعمليات الهروب والتهريب وجمع المعلومات لمصلحة الديمقراطيين والحلفاء»، وليس في السويد وحدها، بل كذلك في الدانمرك وفي بقية البلدان الإسكندينافية. وهذا العمل كله كان تطوعياً وسرياً، قامت أهميته الكبرى على كونه لم يثر أدنى ارتياب من جانب النازيين، الذين كانوا على العكس من ذلك يبدون تقديراً كبيراً للفنانة الهوليوودية ويسهلون لها مهماتها من دون أن يدروا. ولكن كيف بدأت حكاية غاربو مع العمل الاستخباراتي الأميركي (والإنكليزي اكسسوارياً)؟.

في العام 1939 عين ويليام ستينفنسون مسؤولاً أساسياً عن أجهزة التجسس ومكافحة التجسس في بريطانيا، وهو بهذه الصفة سيلعب دوراً أساسياً في طول أوروبا وعرضها.

وكان ستينفنسون المولج من قبل تشرشل بنسج علاقات مع زميله الأميركي ويليام دونوفان، الذي كان يعتبر اليد اليمنى للرئيس روزفلت في العمليات السرية، تماماً كما أن ستينفنسون كان يعتبر اليد اليمنى لونستون تشرشل في النوع نفسه من العمليات. والاثنان تعاونا على إقامة العديد من الشبكات التي خاصت الحرب السرية ضد النازين في

كثير من البلدان الأوروبية. وكان ستينفنسون، على رغم جنسيته الكندية، من أصول اسكندينافية، وهو قبل تفرغه التام لأعمال أجهزة الاستخبارات، كان خلال النصف الثاني من العشرينات، عمل في إنتاج الأفلام الصامتة حيث تعرف إلى غاربو وارتبط معها بصداقة عميقة.

عرفها في قمة مجدها، وكان يعرفها عن كثب عند نهاية العقد التالي حين بدأت تفكر بالاعتزال.

وكان ستينفنسون يعرف مقدار حماسها لأيّ شيء تقدم عليه، لذلك ما إن فكر بأن الوقت قد حان للقيام بأي شيء في اسكندينافيا، حتى فكر فيها وفاتحها بالأمر، فوافقت من دون تردد.

وبمساعدته اللوجستية بدأت تقسم وقتها بين شقتها في نيويورك والفيلا التي تملكها في الريفييرا الفرنسية، ومنزل لها في سويسرا، ثم شقق عديدة في البلدان الاسكندينافية، أهمها شقتها في ستوكهولم. وفي العاصمة السويدية بالتحديد، راحت غاربو تظهر نوعاً من الحياد المتواطىء المزعوم مع البعثات الثقافية والدبلوماسية النازية التي كانت بدأت تتكاثر متعاملة مع السويديين (ذوي الجذور الجرمانية، حسب المقاييس النازية)... وصارت غاربو تدعى إلى الحفلات والمناسبات التي يقيمها عادة كبار القادة العسكريين والدبلوماسيين الألمان في العواصم الاسكندينافية. ولما كان كل واحد من هؤلاء يجد نفسه ميالاً، في حضرة السيدة والنجمة السينمائية الكبيرة، إلى الثرثرة والحديث عما فعل وعما سيفعل، كان ما تجمعه غاربو كل يوم يشكل حصيلة رائعة من المعلومات والآراء، وترسلها إلى ويليام ستينفنسون الذي يقوم بتحليلها. ويبدو أن غريتا ظلت طوال سنتين أو أكثر قادرة

على أداء ذلك العمل على أفضل وجه، بل أن شقتها في ستوكهولم تحولت منذ العام 1942، ودائماً من دون أن يشتبه النازيون بشيء، مكان لجوء وانطلاق لـ «كل عميل ومضطهد ديمقراطي» يسعى إلى الهرب إلى أماكن أكثر أماناً له من أوروبا المحتلة.

والمرجح أن غاربو سهلت وموّلت العديد من العمليات من هذا النوع لكن هذا لم يكن كل شيء، ولم يكن الأهم في نشاطاتها.

فالواقع أن رولان لاكورب يقول إن بطلة «نينوتشكا» و «غادة الكاميليا» اعتادت طوال تلك الفترة أن تقوم بجولات بين المدن والمناطق الاسكندينافية، زاعمة أنها مكلّفة من قبل شركة بارامونت السينمائية اختيار ممثلين وممثلات لأفلام الشركة.

وهي قد فعلت هذا خصوصاً في فنلندا ومرات عدة متتالية. غير أن المهمة الحقيقية التي كانت تقوم بها هناك، هي القيام باتصالات سرية مع مجموعات المقاومة المناهضة للنازيين، لحساب أجهزة مكافحة التجسس والاستخبارات الأميركية. بل أن ستينفنسون ودونوفان غالباً ما كلفاها بإيصال أموال وأخبار إلى تلك المجموعات.

ومن المؤكد أن غريتا غاربو، بابتسامتها وصمتها الشهيرين كانت خير من يمكنه أن يؤدي تلك المهمة. وهي حين بدأت منذ أواخر العام 1943 تقلل من زياراتها إلى إسكندينافيا، كان واضحاً أنها شعرت بأن عملها قد انتهى، وأنها لو غامرت بالمزيد ستنكشف. ويقيناً أنها ابتسمت كثيراً حين سمعت ما قالته عنها «بارسونز»، كما ابتسمت أيضاً حين كانت تتخيل وجوه القادة النازيين، لاسيما الذين وقعوا في هواها واستفادت من هيامهم بها للقيام ببعض مهماتها...

كانت تتخيل وجوههم، حين يعرفون أخيراً، ما كانت تقوم به حقاً...

أخيراً وعلى رغم سرية ما قامت به، وقلة الأشخاص الذين اطلعوا عليه، لم يفت الأجهزة الأميركية والبريطانية أن تشير لاحقاً، وإن بأشكال مواربة إلى «الخدمات العظيمة والشجاعة» التي قدمتها غريتا غاربو لقضية الحرية والديمقراطية ضد النازية والنازيين.

أما هي فواضح أنها حين اعتزلت الدنيا والسينما والحياة العامة، خلال الخمسين سنة الأخيرة من حياتها (إذ رحلت في العام 1990) ظلت محافظة على سرّها هذا بين العديد من الأسرار التي صمتت عنها طوال حياتها وشكلت أسطورتها المثيرة، على عكس زميليها: «كوردا»، الذي صارت مآثره أمثالاً تضرب، و «هايدن»، الذي روى بنفسه أعماله البطولية متفاخراً بها. كما لم يفت المخرج «سيدني بولاك» أن يتحدث عنها بوضوح في بعض حوارات فيلم «ثلاثة أيام للكوندور» الذي مثله «روبرت ردفورد» لاحقاً.

حرف الفاء

1 ـ فائقة مصراتي.

2 ـ فالنتينا نيكولاييفنا مالينوفسكا.

3 ـ فاليري بليم.

4 ـ فان كريجير.

5 ـ فرو شارلوت ويللباش.

6 ـ فرولين إيرمغارد شميدث.

7 ـ فلور البريطانية.

8 ـ فليفالي ديكينسون.

9 ـ فورتينيه.

10 ـ فوزية حسام.

11 ـ فيرا دوكس.

12 ـ فيفان أولشن.

13 ـ فيكتورين كاري.

14 ـ فيكي حكيم.

15 ـ فيوليت زابو.

16 ـ فيوليتا سانيا.

فائقة مصراتي(*)
(Faika Mesrati)
(- 1974)

هي ابنة الجاسوس فارس مصراتي الذي كان يعمل لمصلحة المخابرات الإسرائيلية مع الجاسوس اليهودي دافيد أوفيتس.

إذ بتاريخ 3/ 2/ 1992 (يوم الاثنين) أعلن في القاهرة عن قيام المخابرات وسلطات الأمن المصرية مشتركة بتوقيف يهودي ينتمي إلى الكيان الصهيوني وابنته، وذلك بتهمة التجسس، وجمع معلومات عن أهداف عسكرية واستراتيجية لمصلحة العدو.

وطبقاً لمصادر الأمن المصري، فإن الصهيوني الذي يدعى فارس صبحي مصراتي (من أصل عربي) أثار شكوك أجهزة المخابرات المصرية، بعد رصد دخوله البلاد مرات عديدة، خلال فترة زمنية قصيرة، وكانت كلها بحجة السياحة، وبعد وضعه تحت المراقبة الدقيقة، تأكدت الشكوك، حيث تم رصد محاولاته لتوطيد علاقته بعدد من المواطنين المصريين، مستخدماً ابنته في ذلك: وفي هذا السياق، فإن المصادر نفسها تقول، إن هذا الجاسوس نجح بهذه

(*) **المرجع**: سعيد الجزائري «ملف التسعينات عن أعمال المخابرات». الجزء الثاني. دار الجيل. بيروت. الطبعة الأولى 1997. ص588 ـ 623.

الوسيلة بتوطيد العلاقة مع شاب مصري، يعمل باحثاً اجتماعياً يدعى علي حسن عطية.

وحسبما أعلن في القاهرة، فإن الجاسوس «الإسرائيلي» كان استأجر شقة فاخرة، في أحد أحياء العاصمة المصرية، وحين قامت قوات الأمن بمداهمة الشقة للقبض على الصهيوني وابنته، كان المواطن المصري المذكور معهما، وخلال عملية المداهمة حاول الجاسوس «الإسرائيلي»، الهرب بالقفز من النافذة، غير أن الشرطة تمكنت من الإمساك به بعد أن كسرت إحدى قدميه بعد إلقاء نفسه من الطابق الثاني.

هذه هي المرة الأولى منذ توقيع معاهدة كامب ديفيد الساداتية عام 1979 التي تعلن فيها السلطات المصرية عن (ضبط) عصابة إسرائيلية للتجسس بكل معنى الكلمة؛ أعضاؤها الإسرائيلي (فارس مصراتي) من مواليد 1951، وهو من يهود ليبيا، وابنته (فائقة مصراتي) من مواليد 1974. وقد اعترف الأب وابنته بعد مراحل التحقيق بتجسسهما لصالح المخابرات الإسرائيلية (الموساد) مع اثنين آخرين من الإسرائيليين سنأتي على ذكرهما لاحقاً، إلا أنها ليست المرة الأولى التي يندس فيها جواسيس إسرائيل لجمع معلومات عن القوات المسلحة المصرية، وأماكن تمركز قوات الأمن، وحجم النشاط الاقتصادي وآراء السياسيين وطلاب الجامعات، ومعلومات شخصية ودقيقة عن الشخصيات العامة... وكل شيء عن مصر.

الموساد تستخدم سلاحي الجنس والمخدرات

فتحت أقوال «فائقة» أمام سلطات التحقيق الملف الأسود للتجسس الإسرائيلي في مصر. فقد جاءت إلى البلاد عدة مرات

بصحبة والدها تحت ستار السياحة، واستخدمت جسدها لجمع المعلومات التي تريدها. . لم تكن المهمة صعبة. خصوصاً بعدما أقامت في حي مصر الجديدة، وأقامت صداقات عديدة مع أبناء هذا الحي الراقي.

وجاءت أنباء السقوط مدوية في الأوساط المصرية. فقد بحت أصوات كثيرة في السنوات الأخيرة لكشف أبعاد المخطط الإسرائيلي لاختراق المجتمع المصري، لأن إسرائيل ما زالت تعتبر مصر «العدو رقم واحد» حتى في ظل معاهدة السلام. . ولكن حاول البعض الإدعاء بأن ما يتردد مبالغ فيه بشكل كبير.

في العام 1991 فقط زار مصر (130) ألف سائح إسرائيلي، وفي الأعوام الخمسة [1987 ـ 1992] زارها نصف سكان إسرائيل. وقد ضبطت سلطات الأمن المصرية عشرات الإسرائيليين وبحوزتهم دولارات مزيفة أرادوا إغراق السوق المصرية بها. . وضبطت (16) حالة حاول فيها الإسرائيليون إخفاء أسلحة في ملابسهم وسياراتهم. . . علاوة على عشرات القضايا لإدخال المخدرات، خصوصاً الهيروين إلى مصر.

لم يكن أمراً عفوياً أن تنتشر في مصر أنواع جديدة من المخدرات والسموم بعد معاهدة السلام مع إسرائيل؛ وهي السموم البيضاء التي لم تعرفها مصر منذ أوائل القرن، ولم ينتشر الهيروين بهذا الشكل إلا بعد الصلح مع إسرائيل، وألقت أجهزة الأمن القبض على عصابات كثيرة من بينها الإسرائيلي يوسف طحان الذي ينتظر تنفيذ حكم الإعدام في أحد سجون القاهرة. وترددت أنباء عن أن إسرائيل حاولت تهريبه أكثر من مرة.

ومن واقع الدراسات الكثيرة التي نشرت مؤخراً، لم تكن إسرائيل وراء ترويج المخدرات في مصر فقط؛ وإنما في العديد من البلدان العربية بغرض الإجهاز على شباب الوطن العربي الذي يمثل الخط الاستراتيجي الثابت ضد إسرائيل.

زعم البعض أن دور إسرائيل لم يثبت بشكل يقيني في تهريب المخدرات... ولكن أثبتت قضايا التهريب التي تم ضبطها مؤخراً الدور الذي تلعبه الأيديولوجية الصهيونية لإغراق السوق المصرية بالمخدرات، فمن مصلحة القوى المعادية وعلى رأسها إسرائيل تخدير الشعب المصري.

تحت حماية المظلة الديبلوماسية

لم تتوقف أعمال المخابرات الإسرائيلية ضد مصر بعد معاهدة السلام. بل وجدت في «السلام» فرصة فريدة للاختراق والحصول على كل المعلومات، وإجراء مسح شامل للمجتمع المصري من جميع جوانبه.. ويشير بعض الكتاب المتخصصين في شؤون المخابرات إلى أن سفارة إسرائيل في القاهرة تتجسس على كل حركة، وكل كلمة.. يقول الكاتب المصري ماهر عبد الحميد:

«كان واضحاً أن الإسرائيليين قد أقاموا سفارتهم من طابقين حتى يتجنبوا أية محاولات للتنصت على ما يجري في الطابق الأعلى. وقد برزت على سطح السفارة فجأة غابة من الهوائيات، أشياء أشبه بالثعابين والعقارب، بعضها على شكل دوائر، وبعضها على شكل أطباق، وعشرات من العصي المعدنية المتعامدة والمتقاطعة أخذت تظهر واحدة بعد الأخرى...

وفي النهاية كان يمكن لأي مراقب من الناحية الأخرى للنهر من

أن يحصي اثنين وعشرين هوائياً مثبتة كلها فوق سطح العمارة، ومتجهة إلى السماء».

وكان أحد الدبلوماسيين الإسرائيليين قد استأجر شقة في الطابق الحادي عشر من العمارة رقم (42) المطلة على كورنيش النيل في اتجاه المعادي. وكان هذا الإسرائيلي يستخدم سيارة بيجو بيضاء تحمل أرقاماً غير دبلوماسية، وقد اتضح أنه استأجر هذه السيارة ليستخدمها في تنقلاته تاركاً سيارته الدبلوماسية في مكان الانتظار المخصص لسكان هذه العمارة. وكان بمقدور أي عابر للكورنيش أن يستوثق من أن الإسرائيلي موجود في منزله طالما أن سيارته الديبلوماسية موجودة في موقف سيارات العمارة، بينما هو يتجول بسيارته البيجو الخاصة المسجل عليها (ملاكي القاهرة).

ولكن فيما يبدو أن المخابرات المصرية تحرص على عدم الإعلان عن قضايا التجسس التي تقوم بها المخابرات الإسرائيلية لأسباب عديدة، فعندما حامت الشبهات حول عدد من موظفي السفارة الإسرائيلية بالقاهرة الذين يقومون بأنشطة تجسس، استجابت إسرائيل لطلب مصر وسحبت في هدوء اثنين من الدبلوماسيين، «لتجاوزهما حدود وظيفتهما الدبلوماسية إلى التورط في أنشطة غير مشروعة». وكان أحد هؤلاء قد قام بزرع أجهزة تجسس وتنصت في كل العمارة الضخمة على النيل، والتي تحتل السفارة الإسرائيلية الطبقات الثلاث الأخيرة منها.

ويسكن هذه العمارة وفي المنطقة المجاورة بعض الشخصيات التي رأت السفارة الإسرائيلية أن التجسس عليهم يفيد عمليات الموساد... ومن قبل كان قد تم ضبط أجهزة للتنصت مزروعة في

عدد من المنازل وأشجار الحدائق بمنطقة المعادي التي يسكن فيها الإسرائيليون.

التجسس تحت مظلة السياحة أيضاً

* في عصر «السلام» تختلف أساليب التجسس عن فترات الحروب. فالرسائل المفخخة والطرود الملغومة دخلت متحف التاريخ وأصبحت بالية ولا تتناسب مع طبيعة العلاقات الجديدة وحسن الجوار والحدود المفتوحة.

وعلى الرغم من ذلك فالعقيدة التجسسية راسخة وثابتة لا تتغير. وضعت بمعرفة بن غوريون رئيس الوزراء الإسرائيلي [الأسبق] الذي أنشأ الجهاز.. وعمد إلى توسيع صلاحيات فرع «الموساد».. وجعل واجبه الأول هو جمع وتحليل المعلومات في الخارج، في أي منطقة لها أهمية بالنسبة لإسرائيل.

ويقوم أسلوب الموساد في التجسس على عدة أسس:

* العنف الشديد وسرعة التخلص من أعداء إسرائيل، وإيهام الرأي العام بقوة المخابرات الإسرائيلية.

* استخدام اليهود المنتشرين في سائر أنحاء العالم في أعمال التجسس.

* ابتكار وسائل جديدة وفقاً لطبيعة العلاقات التي تربط إسرائيل بمختلف الدول. وبالفعل ابتكرت إسرائيل وسائل جديدة تختلف عن التجسس التقليدي وبدأت في إرسال عشرات الفتيات الإسرائيليات تحت شعار «السياحة» لاستدراج بعض الشباب المصري، لأعمال منافية للآداب في الشقق المفروشة والنوادي الليلية والفنادق الكبرى..

ونشرت صحف المعارضة في مصر أنباء عن استخدام إسرائيل لفتيات مصابات بالإيدز، لمعاشرة الشباب المصري ونشر هذا المرض اللعين. ولكن لم تثبت صحة هذه المعلومات.

وتسربت أنباء عن إصابة الفتاة الإسرائيلية«فائقة» التي ضبطت في قضية التجسس الأخيرة بمرض الإيدز.

وأجرت السلطات المصرية تحريات واسعة حول الشبان الذين كانوا على علاقة بها، حيث كانت تغادر مسكنها في الثامنة مساء ولا تعود إليه إلاّ في اليوم التالي.. وقال الشهود في منطقة سكنها أنه لا يمكن حصر عدد الشبان الذين كانوا يترددون عليها.

وفي رسالة ماجستير مطبوعة بعنوان «محاولة تهويد الإنسان المصري» كشف الباحث المصري مدحت أبو بكر، النقاب عن قيام الموساد بتجنيد بعض طلاب الجامعات عن طريق أقاربهم العاملين في السفارة الإسرائيلية، وتشجيعهم للسفر إلى إسرائيل في رحلات حصل مقابلها أقاربهم على مكافآت مجزية نظير تجنيدهم.

وحاول الموساد أكثر من مرة إرسال سرب من «الجميلات» في مناسبات مختلفة، اشتركت فيها إسرائيل، التقين خلالها بشباب الجامعة من الأساتذة المساعدين والمدرسين والمعيدين والطلاب. وظن كل واحد منهم أنه قام بمغامرة عابرة مع إحدى الفتيات. وانتهى الأمر بعودتهن بعد تبادل المعلومات البسيطة الكافية للتعارف والعناوين.

وفوجىء هؤلاء الشباب برسائل من تل أبيب تحمل الأشواق واللوعة والهيام، مع الرغبة في تجديد اللقاء في مصر وإسرائيل لقضاء أوقات ممتعة أخرى... فبدأ يجهز كل منهم بحثاً صغيراً حول قضية

مما يشغل الشباب أو يمس مشاكلهم السياسية والتعليمية وغيرها.. وتحدد كل فتاة موعداً للشاب تكون فيه بانتظاره في المطار.

اكتشف الموساد أن أجهزة الأمن المصرية متيقظة وترصد الخطوات منذ اللقاء الأول، واتخذت خطوات عاجلة لإنهاء العملية.

لم تكن «فائقة» الإسرائيلية التي باع أبوها جسدها للحصول على معلومات عن مصر هي الأولى ولن تكون الأخيرة.. قد انتقلت إسرائيل من مرحلة المتفجرات والقنابل، إلى الجنس والمخدرات والإيدز.. وما زال في جعبتها الكثير.

كثر الحديث والإعلان والتحقيقات الصحفية عن هذه الشبكة الخطيرة، ولوضع حد لكل ذلك أعلن السيد اللواء محمد عبد الحليم موسى (وزير الداخلية المصري) أن الجاسوس «الإسرائيلي» فارس مصراتي قد اعترف بأنه يعمل لحساب الموساد وينتمي إلى منظمة «إسرائيلية» متطرفة وأنه كان يسعى لجمع معلومات عن أهداف حيوية وشخصيات عامة ودولية في القاهرة. بدأت أجهزة الأمن المصرية في اتخاذ سلسلة جديدة من الإجراءات والتدابير الحازمة حيال دخول «الإسرائيليين» إلى مصر سواء بقصد السياحة أو أية مهام أخرى... وأصدرت وزارة الخارجية المصرية ـ بناء على طلب الأجهزة الأمنية ـ أوامر مشددة للسفارة المصرية في تل أبيب بالحدّ من منح تأشيرات دخول «للإسرائيليين» إلاّ في أضيق الحدود وبعد إجراء مزيد من التحريات وذلك لحين صدور أوامر وتعليمات جديدة إليها. وتبحث وزارة الداخلية المصرية مشروعاً استثنائياً يقضي بعدم عودة السائح «الإسرائيلي» إلى مصر مرة أخرى إلاّ بعد مضي مدة معينة على زيارته السابقة ومن المفترض أن تكون من ستة إلى ثمانية شهور، حيث ثبت

من التحقيقات مع زعيم الشبكة أنه دخل مصر هو وابنته أكثر من مرة في الشهور القليلة الماضية تحت ستار السياحة.

وشملت التدابير أيضاً حصر «الإسرائيليين» الموجودين في القاهرة وقت مراقبة وكشف الشبكة وتكثيف التحريات حولهم للبحث عن عناصر أخرى والتحقيق مع كل من كانت له صلة ـ من قريب أو بعيد ـ بالجاسوس «الإسرائيلي» وابنته وبقية عناصر الشبكة.

وتم تشديد الحراسة والرقابة الأمنية على منفذي طابا ورفح في سيناء اللذين شهدا حالات تسلل متعددة من قبل «الإسرائيليين» وإن كان معظمها لمهاجرين يهود من موسكو وأوروبا الشرقية بعد فشلهم في الحصول على عمل في «إسرائيل».

وفضلاً عن ذلك كله، شددت الحراسة على المتهمين وأحيطت التحقيقات معهم بسرية تامة.

عين المخابرات وأجهزة الأمن المصرية الساهرة

ابتداء من عمل المخبرين الضروري واسمهم في مصر (المرشدين) الذين يقدمون المعلومات الهامة عن مشاهداتهم وعلمهم بالأشياء التي تمس أمن الوطن أولاً بأول إلى المخابرات وأجهزة الأمن، وانتهاء بالتعليمات الصادرة إلى رجال الأمن العام في مراكز الحدود المصرية براً، وبحراً، وجواً، برصد حركة حضور الإسرائيليين إلى مصر وعددها وتواريخها. (هذه العملية لم تعد سراً لأن وزارة الداخلية المصرية نفسها أعلنت عنها). وقد تجمع لدى هذه السلطات معلومات هامة تفيد أن الإسرائيلي (فارس صبحي مصراتي) وابنته فائقة مصراتي قد دخلا إلى مصر عدة مرات متقاربة بقصد السياحة وكانا يترددان على الفنادق الكبرى بالقاهرة التي تحوي صالات ديسكو حيث

أقاما شبكة كبيرة من العلاقات العامة مع بعض رجال الأعمال المصريين ورجال المجتمع. واستغلت فائقة جمالها في جذب الأنظار إليها وأقامت علاقات متعددة مع شباب مصريين لم تستمر علاقة الواحد منهم معها أكثر من يومين. كما أنها سعت إلى الزواج من أحدهم للحصول على الإقامة في مصر. إلا أن الذي لفت أنظار أجهزة الأمن المصرية أن «الإسرائيلي» فارس وابنته أوهما المحيطين بهما من المعارف والأصدقاء أنهما لبنانيان وإمعاناً في التخفي استخدما اللهجة الشامية في الكلام واتقناها ببراعة وكانا يتحدثان عن ذكرياتهما في لبنان المنكوب وجراحهما الناجمة عن الحرب الأهلية التي أتت على الأخضر واليابس.

وكان ذلك هو الخيط الأول الذي دفع بأجهزة الأمن المصرية إلى وضع «الإسرائيلي» وابنته تحت المراقبة لمدة ثلاثة أشهر تكشفت خلالها خيوط فضيحة التجسس «الإسرائيلية».

وبعد إخضاعهما للمراقبة الدقيقة واكتمال الأدلة الكافية لإثبات تورطهما في النشاط التجسسي لحساب الموساد «الإسرائيلي» من تسجيل أصوات وتصوير مستندات وأوراق هامة ورصد تحركات مريبة ومكشوفة، أمرت نيابة أمن الدولة العليا المصرية بالقبض عليهما. وقررت الأجهزة الأمنية أن يلقى القبض عليهما داخل الشقة المفروشة التي يقيمان فيها وهي تقع بالقرب من مطار القاهرة الدولي ومعظم الثكنات العسكرية الهامة.. وداهمت قوات الشرطة الشقة الكائنة بحي النزهة بمصر الجديدة فقفز الجاسوس «الإسرائيلي» هو وصديق مصري له ـ كان برفقته لحظتها ـ خارج الشقة وترك ابنته فائقة التي قبض عليها بسهولة.. وبعد مطاردة مثيرة في شوارع مصر الجديدة ـ أرقى الأحياء المصرية ـ ألقت الشرطة القبض على «الإسرائيلي» فارس وصديقه

المصري الذي أفرج عنه بعد ذلك وبعد التأكد من عدم صلته بالنشاط التجسسي «للإسرائيلي» وأنه تصادف فقط وجوده في الشقة. وعثر داخل الشقة المفروشة للجاسوس على أوراق ووثائق وصور هامة لمواقع استراتيجية وحيوية في مصر وضبطت كميات كبيرة من الساعات ثبت أنه كان يستخدمها في إرسال برقيات التجسس، كذلك بعض الأجهزة اللاسلكية وآلات تصوير صغيرة الحجم، بالإضافة إلى جهازي فيديو وتليفزيون وكمية كبيرة من تذاكر الطيران التي تثبت دخوله ليبيا أكثر من مرة. وعثر كذلك على تصاريح عمل وجوازات سفر مزورة.

وفي بداية التحقيقات التي أجراها المستشار «عبد المجيد محمود» المحامي العام الأول في مصر، أنكر «الإسرائيلي» فارس كل التهم الموجهة إليه. وخلال ذلك حاول السفير «الإسرائيلي» في القاهرة افراهام دوبيك الحصول على موافقة أجهزة التحقيق المصرية بإرسال أحد موظفي السفارة لحضور التحقيقات، إلا أن طلبه قوبل بالرفض ولم يسمح في البداية لأي من أعضاء السفارة بمجرد الالتقاء بالمتهمين أو حتى التحدث معهما لاعتبارين: الأول، أن السفارة نفسها قد تكون طرفاً في عملية التجسس؛ والثاني: لضمان عدم التأثير على أقوال واعترافات المتهمين.

وبمواجهة الجاسوس الأول بالأدلة، انهار واعترف بالتجسس والتخابر لحساب الموساد «الإسرائيلي» وكشف عن أن «إسرائيل» تجند عناصر الجماعات والمنظمات المتطرفة بها للقيام بأنشطة تجسسية ضد العرب مستغلة حماسهم المتطرف لدولة «إسرائيل» وكرههم الشديد للعرب.

وثبت من التحقيقات أن فارس مصراتي يهودي من أصل ليبي من «مصراته»، تركت عائلته ليبيا في أعقاب حرب 1948 وبعد إنشاء الكيان الصهيوني وأنه ينتمي لمنظمة «إسرائيلية» متطرفة.

الجاسوس تلميذ (كاهانا)

وقد علم أثناء التحقيق أن الجاسوس «الإسرائيلي» فارس مصراتي كان ينتمي إلى حركة كاخ العنصرية المتطرفة ـ التي كان يتزعمها مائير كاهانا ـ الذي اغتيل في الولايات المتحدة في العام 1990 واتهم الشاب المصري سيد نصير بقتله ـ إلا أنه تركها وانضم إلى حركة أخرى لا تقل تطرفاً.

وأشير إلى أن أجهزة الأمن بحثت عما إذا كان مصراتي ينوي تدبير شيء ما لأسرة سيد نصير المقيمة في مدينة بورسعيد انتقاماً لمقتل كاهانا حيث انتقلت زوجة نصير وأولاده من نيويورك إلى مصر لتعيش مع عائلة زوجها وتفرض الأجهزة الأمنية في مصر عليها حراسة مشددة.

وقال المصدر نفسه ـ هناك خيط آخر أكثر غموضاً تسعى أجهزة التحقيق للكشف عنه ويتعلق بما إذا كان من ضمن خطط الجاسوس «الإسرائيلي» التجسس على ليبيا أيضاً بالإضافة إلى مصر وجمع معلومات عن برنامجها النووي والكيميائي ومعلومات أخرى تتعلق بتواجد منظمات إرهابية في أراضيها بالإضافة إلى الحصول على معلومات خاصة في أماكن عسكرية وحيوية.

جاسوسان آخران في الفخ

وبعد أسبوع كامل من التحقيقات مع الجاسوس فارس مصراتي،

ألقت المخابرات المصرية القبض على نجله ماجد مصراتي أثناء محاولته عبور الحدود المصرية ـ الليبية قادماً من ليبيا واعترف بأنه يعمل مع والده وشقيقته لحساب الموساد. وبعد يومين فقط اعتقلت سلطات الأمن المصرية جاسوساً «إسرائيلياً» رابعاً اسمه ديفيد أوفيتس وهو تاجر «إسرائيلي» كثير التردد على مصر، ولوحظ أن علاقة قوية وغامضة كانت تربطه بالجاسوس مصراتي ووقع تحت المراقبة بعد القبض على أسرة مصراتي وضبطته الشرطة وهو يقوم بتحركات ومناورات مريبة لمعرفة مصير زعيم الشبكة. وألقت القبض أيضاً على ثلاثة مصريين تعاونوا مع عناصر الشبكة لتسهيل عمليات التزوير عليهم واستخدامهم كأدلّة في تنقلاتهم، ولم يضبط مع المتهمين أي سلاح. وكشفت التحقيقات عن أن المهمة الأساسية للجواسيس هي رصد كافة المعلومات السياسية والاقتصادية والعسكرية والثقافية عن مصر؛ والحصول على معلومات دقيقة تتعلق بالأماكن الحيوية والعسكرية وتحديد الأماكن الاستراتيجية والمنشآت العسكرية بالغة الأهمية. والحصول على معلومات عن خطة التطوير العسكري وبرامج التدريب المشتركة التي تجري مع دول أخرى ورصد أي تعاون عسكري بين مصر وسوريا ـ بالذات ـ والحصول على معلومات متكاملة عن الأسلحة العسكرية التي تملكها مصر ورصد حجم وقوة التيار الديني في مصر وموقعه في الشارع المصري.

كذلك تضمنت خطط الجاسوس «الإسرائيلي» وابنته الحصول على معلومات دقيقة خاصة ببعض الشخصيات القيادية والهامة في الدولة ودراسة تحليلية متعمقة لهم ولدورهم السياسي في المستقبل.

التدخل الإسرائيلي المكشوف

ووسط كل هذه الفضائح والجرائم الصهيونية كان موقف الحكومة «الإسرائيلية» غريباً للغاية حيث طالبت مصر بالإفراج فوراً عن المسجونين «الإسرائيليين» لعدم صحة الاتهامات الموجهة إليهم. وأبدى السفير «الإسرائيلي» في القاهرة تذمره من عدم السماح له بلقاء المتهمين ومتابعة التحقيقات والاطلاع على ملفات القضية، واضطر إلى أن يطلب مقابلة وزير الداخلية المصري [آنذاك] اللواء عبد الحليم موسى ووعده الأخير بالسماح له بلقاء المتهمين ولكن بعد إنهاء التحقيقات معهم.

ونفى المسؤولون في «إسرائيل» أية صلة للموساد بالمتهمين، وأكد مصدر قضائي أن الأدلة قوية وواضحة وضوح الشمس وتؤكد بما لا يدع مجالاً للشك تورط «إسرائيل» ومخابراتها في التجسس. وأهم هذه الأدلة: أدوات التجسس والتسجيلات الصوتية ودلائل التزوير والمعلومات الدقيقة التي تم رصدها وتصويرها فضلاً عن اعترافات المتهمين أنفسهم.

وتوقع المراقبون أن تؤدي فضيحة اكتشاف شبكة التجسس «الإسرائيلية» بالقاهرة إلى حدوث فجوة عميقة في العلاقات بين مصر و «إسرائيل»، وأن تعيد القاهرة النظر في بعض الإجراءات التطبيقية المعمول بها في إطار اتفاقيات كامب ديفيد خاصة ما يتعلق بالسياحة ودخول «الإسرائيليين» إلى مصر دون ضوابط مشددة.

وتوقع البعض أن تثير الفضيحة عاصفة سياسية في «إسرائيل» نفسها إذا ما تكشفت بقية خيوطها وقد تؤدي إلى الإطاحة بمسؤولين كبار هناك مثلها مثل فضيحة «لافون» الشهيرة في أوائل الخمسينات.

ولكن ظهر أن السلطات الإسرائيلية متماسكة في سبيل طمس فضيحة الموساد هذه وتقديم الاعتذار لمصر واعتراف القنصل الإسرائيلي بتجسس المصراتي وشبكته كما سيجيء معنا.

استمرار التحقيق وخلفية القضية

كنتيجة طبيعية لتفتيش شقة الجاسوس فارس صبحي مصراتي بعد إلقاء القبض عليه وعلى ابنته وولده ماجد وصديق العائلة الجاسوس الإسرائيلي (ديفيد أوفتيس) الذي ادعى أنه (تاجر)، عثرت المخابرات المصرية على عدد من الوثائق المهمة، وتقارير جاهزة من المعلومات الهامة عن أهداف عسكرية واستراتيجية، ومعلومات عن عدد من الشخصيات المصرية سنذكرها في هذا البحث.

والمعلومات التي نشرت عقب إذاعة البيان الصحفي من قبل السيد وزير الداخلية المصري عن القضية تفضي إلى اعتقاد السلطات الأمنية بخطورة هذه الشبكة، حيث عثرت أجهزة الأمن خلال تفتيش شقتها على أدوات متقدمة لتزوير الوثائق والمستندات الرسمية. وكشفت المعلومات الرسمية، في هذا السياق، عن أن الجاسوس الصهيوني استطاع بالفعل أن يقوم بتزوير بطاقتي هوية مصريتين له ولابنته، وأنه كان ينوي استخدامهما للحصول على جوازي سفر مصريين. أما المواطن المصري الذي اعتقلته أجهزة الأمن المصرية مع الجاسوس وابنته، فقد أُعلن أن التحقيقات معه أسفرت عن عدم تورطه في أي نشاط من أنشطة الجاسوسين الصهيونيين، وعدم معرفته بهويتهما الأصلية وأفرج عنه.

وضمن ما أعلنه البيان الرسمي المذكور، فإن نيابة أمن الدولة العليا المصرية أصدرت قرارها بحبس الجاسوسين على ذمة التحقيق

في القضية، تمهيداً لمحاكمتهما بالتهم المذكورة، وقد تصل عقوبتهما إلى الإعدام.

وبعيداً عن تفاصيل ووقائع قضية هذا الجاسوس الصهيوني وابنته، وفي انتظار ما سيتكشف من أبعادها، فإن أكثر المراقبين في العاصمة المصرية يرون أن الإعلان عنها مفعم بالدلالات السياسية. فعلى الرغم من أن هذه القضية لم تكن أول قضية تجسس لمصلحة العدو الصهيوني، تكشف عنها السلطات المصرية، منذ توقيع ما يسمى «معاهدة السلام المصرية ـ الإسرائيلية»، حيث أعلن عن قضية مماثلة قبل ثلاث سنوات (صيف العام 1989)، وهي القضية التي أدين فيها شقيقان مصريان بتهمة التجسس لحساب العدو، وحكم عليهما بالسجن، وشاركهما في ذلك أحد ضباط المخابرات الصهيونية (الموساد) الذي أدانته المحكمة التي نظرت في القضية. على الرغم من ذلك، فإن ما تكشف حتى الآن من وقائع القضية الجديدة، وتوقيت الإعلان عنها، دفعا المراقبين إلى إبداء الاهتمام الشديد بها، لعدد من الأسباب، أولها أنها أول قضية تجسس يتم الإعلان عنها، ويكون المتهمون المعتقلون فيها صهاينة، ممن يستفيدون مما يسمى «تطبيع العلاقات مع العدو» في الدخول بحرية إلى مصر. هذا من جانب الوقائع. أما من جانب التوقيت وملابساته، فإن هؤلاء المراقبين يرون ضرورة الربط بين الإعلان عن القضية، وما جاء فيه من أن الجاسوس الصهيوني وابنته نشطا في جمع المعلومات عن مؤسسات وأهداف عسكرية واستراتيجية مصرية، وبين بدء ما يسمى المفاوضات متعددة الأطراف، التي من ضمن أهم بنودها ـ إن لم يكن البند الأهم ـ موضوع نزع السلاح في المنطقة، وفق المفهوم الصهيوني والأميركي، أي تقليص القدرة العسكرية العربية، وضمان تفوق

استراتيجي ساحق لـ «إسرائيل»، في مواجهة الأقطار العربية مجتمعة.

ولعل ما يعزز ذلك لدى المراقبين في القاهرة، ليس فقط توافق الإعلان عن القضية مع تصاعد الجدل حول موضوع نزع السلاح العربي، وما يثار خلال ذلك من حملات أميركية وصهيونية عن القدرات التسليحية العربية، ومحاولات التصنيع الحربي في بعض الأقطار العربية ومن بينها مصر، ولاسيما في بعض الأنواع كالصواريخ وغيرها، لاسيما وقد علمت المخابرات الإسرائيلية من عملائها ونتيجة متابعة الدكتور جيرالدبول ـ مخترع المدفع العملاق عن زيارته للقاهرة سابقاً (قبل تصفيته من قبلها). ويشير العديد من المراقبين إلى أن المقارنة بين المرحلة، التي أعلن فيها عن قضية الجاسوسين الشقيقين في العام 1989، وبين مرحلة الإعلان عن الجواسيس الصهيونيين الأخيرة، ستكشف عن أنه فيما تم الإعلان عن القضية الأولى، وقتئذ، بعد صدور الحكم النهائي في القضية وإدانة المتهمين بها، أي بعد شهور طويلة استغرقها التحقيق والمحاكمة، فإن القضية الأخيرة تم الإعلان عنها مبكراً جداً، بالنسبة إلى الأولى (بل بالنسبة إلى ما اعتادت عليه السلطات المصرية في الإعلان عن هذا النوع من القضايا)، فلم تتجاوز المساحة الزمنية الفاصلة بين اعتقال الجاسوسين وبين الإعلان مدة أسبوع واحد الأمر الذي يدعو العديدين إلى الاعتقاد أن لدى القاهرة الرغبة في استثمار هذه القضية، في هذا الوقت بالذات. وضمن أهم أهدافها من ذلك تأكيد امتعاضها الشديد مما يثار ضمناً أو صراحة عن القدرات العسكرية المصرية، ونشاط التصنيع الحربي في مصر، هذا بالطبع فضلاً عن الإشارة إلى الدرجة، التي بلغها ضيق السلطات المصرية بالأنشطة التخريبية، التي يقوم بها الصهاينة، الذين يدخلون مصر تحت ظلال «التطبيع»، وهي الأنشطة

التي تتنوع وتنتشر على مساحة كبيرة من الجرائم، ابتداء من الغزو بالمخدرات، ومروراً بمحاولات إغراق السوق المصرية بعملات النقد الأجنبي المزورة، وتخريب الزراعة المصرية، بل محاولة نشر مرض الإيدز بين الشباب المصري. كما أن هذه الجرائم لا تنتهي بالتجسس الفاضح على الأهداف والقدرات الحيوية المصرية.

التطورات الهامة في شبكة تجسس المصراتي

كانت أبرز التطورات في قضية اعتقال المخابرات المصرية لشبكة تجسس (عائلة المصراتي) الإسرائيلية اتساع نطاق التحقيق والاتهام حتى بلغت حصيلة المقبوض عليهم في حينه ستة أشخاص هم لإعادة العلم:

فائقة مصراتي

هي ابنة الجاسوس فارس مصراتي التي اعتقلت في مصر مع والدها والجاسوس اليهودي دايڤيد أوفيتس، حيث كانوا يعملون لمصلحة المخابرات الإسرائيلية، وذلك بعد أن توصلت المخابرات المصرية إلى معلومات أنها تشارك فارس المصراتي نشاطه في شبكة التجسس ومواطنين مصريين. وقد أظهرت التحقيقات أن زيارات أوفيتس، إلى مصر تعددت، وتوافق أغلبها مع فترات وجود فارس في القاهرة، حيث استطاعت أجهزة الأمن رصد عدد من اللقاءات بينهما، والتي كان بعضها في الشقة، التي استأجرها فارس وابنته، وبعضها الآخر في أماكن أخرى.

وتقول مصادر أجهزة الأمن المصرية، أن دايفيد أوفيتس كان يدخل مصر تحت ستار أنه رجل أعمال، يسعى لعقد صفقات مع

رجال أعمال مصريين. وتضيف هذه المصادر، أن أوفيتس استطاع بالفعل إقامة علاقات وصلات قوية مع عدد من رجال الأعمال المصريين وأسرهم، وأنه بذلك نجح في أن يصنع لنفسه دائرة حيوية لجمع المعلومات، بعيداً عن مخاطر رصده إذا تحرك بمفرده.

أما بالنسبة إلى الاثنين المصريين المقبوض عليهما على ذمة التحقيقات في القضية، فلم تشأ السلطات المصرية الكشف عن هويتهما، ولا عن مدى تورطهما في نشاط الجواسيس الصهاينة، غير أن مصادر في نيابة أمن الدولة العليا المصرية، أبلغت الصحافة، أنه تم استجواب العديد من المواطنين، الذين كانوا على صلة بفارس وابنته، غير أنه لم يتم القبض إلا على اثنين فقط لوجود دلائل جدية على احتمال معرفتهما ومشاركتهما في الأنشطة الإجرامية للشبكة.

نشر الإيدز، من مهمات الشبكة

ولعل أخطر ما تكشف من التحقيقات الجارية هو المساحة الواسعة لعلاقات أسرة الجاسوس فارس مصراتي، وبخاصة ابنته التي لعبت الدور الرئيسي في هذه العلاقات، عن طريق إغرائها العديد من الشباب المصريين، الذين كانت تتعرف إليهم، وتدعوهم إلى سهرات ماجنة معها، تتحدد نهايتها حسب تقديرها لأهمية كل منهم، وفي هذا السياق، تقول مصادر الأمن المصري أن عملية «الموساد» الصهيوني كانت تركز أساساً في علاقاتها على أبناء وأقرباء الشخصيات المصرية المهمة. وأنها كانت تصل في العلاقة معهم إلى حد الذهاب والمبيت معهم في مساكنهم، أو السماح لهم بالمبيت معها في شقتها، وتضيف المصادر نفسها أنه جاء في اعترافات الجاسوسة الصهيونية، حول دورها في شبكة التجسس مع أبيها، أنها تعرفت إلى المئات من

الرجال والشباب المصريين، وأن أسلوبها في جمع المعلومات منهم هو استدراجهم في الحديث، خلال اللقاءات الماجنة معهم. وأنها كانت تبدأ في معرفة اسم الشخص، وما إذا كان له أو لوالده أو لأحد أقربائه مركز مهم، وإذا توصلت إلى أن «الصيد» متوافر فيه، كانت تفتح باب الإغراء على مصراعيه، وتنتقل بشكل مدروس إلى استدراجه للبوح بالمعلومات التي يعرفها، وهي مدربة على الاحتفاظ بهذه المعلومات، حيث تذكرها في ما بعد لأبيها، الذي يقوم بدوره بتصنيفها وترتيبها. وقد اعترف فارس ـ حسب المصادر نفسها ـ بأنه كلما تراكمت لديه حصيلة من المعلومات، كان يسافر إلى الكيان الصهيوني لينقلها إلى جهاز «الموساد» ويعود ثانية ليستأنف نشاطه. وقد أشارت مصادر أجهزة الأمن المصرية إلى الصعوبات الكبيرة التي واجهتها في تعقب كل الذين كانت لهم صلاة بالجاسوسة، نظراً لضخامة عددهم، فضلاً عن أن اعترافها لم يتضمن قوائم بالأسماء الكاملة لهؤلاء الأشخاص، حيث ادعت أنها لا تتذكر أغلبهم لكثرتهم من جانب، ومن جانب آخر لأنها لم تكن تهتم إلا بما تحصل عليه منهم من معلومات تنقلها إلى والدها.

على أن اعترافات أخرى للجاسوس الصهيوني وابنته أضافت بعداً جديداً وخطيراً إلى القضية تمثل في ادعاء الجاسوس بأن ابنته مصابة بمرض فقدان المناعة المكتسبة (الإيدز)، وقد ترتب على هذا الاعتراف أن أجهزة الأمن المصرية ضاعفت جهودها للتوصل إلى الأشخاص الذين اتصلوا بالجاسوسة، لسماع أقوالهم في التحقيقات، ولإخضاعهم لفحوص طبية، لمعرفة ما إذا كانوا أصيبوا بعدوى «الإيدز» من عدمه.

وكانت السلطات المصرية سارعت، فور اعتراف الجاسوسة

بإصابتها بهذا المرض، إلى عزلها في زنزانة خاصة، في سجن طرة جنوب القاهرة، المودعة فيه مع أبيها، وباقي المتهمين في القضية، كما أخضعت لفحوص طبية للتأكد من حقيقة إصابتها بمرض «الإيدز» غير أن نتائج هذه الفحوص لم تعلن، وقد كان ذلك سبباً لبعض التكهنات، التي انتشرت في أوساط المراقبين في العاصمة المصرية بأنه ربما كان تسريب معلومة أن الجاسوسة «الإسرائيلية» اعترفت بإصابتها بهذا المرض الخطير جداً مقصوداً به تسهيل مهمة أجهزة الأمن المصرية في معرفة الأشخاص الذين تعاملوا مع الجاسوسة، حيث سيصيبهم الذعر من احتمال انتقال العدوى إليهم.

وعلى كل حال، فإن العديدين لا يستبعدون احتمال أن تكون ابنة الجاسوس الصهيوني مصابة فعلاً بمرض «الإيدز» وأن ذلك ربما كان من مؤهلات نشاطها التخريبي في مصر، ضمن الشبكة التي زرعها جهاز المخابرات «الإسرائيلي» ـ «الموساد». وعلى صعيد آخر، فإن المعلومات التي تتسرب حول التحقيقات في القضية، تشير إلى أن دور شبكة الجاسوسية الصهيونية، كان يتجاوز مجرد جمع المعلومات عن الأهداف الحيوية المصرية، إلى ممارسة أنشطة أخرى خطيرة، حيث لفت العديد من المراقبين الانتباه إلى النشاط المتعلق بأدوات التزييف والتزوير، ذات التقنية العالية، التي ضبطتها أجهزة الأمن المصرية في حوزة فارس وابنته والتي استخدمها بالفعل في تزييف بطاقات هوية مصرية لهما، للحصول على جوازات مصرية، مما يشير إلى احتمال وجود مخطط لهذه الشبكة للتحرك انطلاقاً من مصر إلى أقطار عربية أخرى بخاصة تلك التي لا تشترط لدخول المواطنين المصريين إلى أراضيها الحصول على تأشيرات مسبقة، أو تلك التي لا يحتاج المواطن المصري في انتقاله إليها إلى جواز سفر، وهي تنحصر الآن

في كل من الجماهيرية العربية الليبية وسوريا والسودان.

وفي هذا السياق، أثار القبض على ابن الجاسوس فارس، خلال وجوده في منطقة الحدود مع الجماهيرية، تكهنات بأنه ربما كان هناك محاولة من جانب هذه الشبكة لمد نشاطها التخريبي إلى ليبيا. وربما كان من أهدافها القيام بأعمال إجرامية تسيء إلى العلاقات الحميمة بين القطرين. وعلى الصعيد السياسي، فإن القضية أفضت إلى تفاعلات عديدة، أهمها ما أفصحت عنه ردود الفعل التي صدرت عن الكيان الصهيوني، وتركزت في تعليقات وسائل الإعلام «الإسرائيلية» فقط في ظل صمت رسمي شبه كامل، لم تقطعه سوى تصريحات مقتضبة، أدلى بها سفير الكيان الصهيوني في القاهرة افرايم دوبك. وقد أشارت ردود الفعل هذه إلى القلق الشديد الذي انتاب الأوساط الصهيونية من كشف شبكة جواسيس «الموساد» في مصر، ومن تأثير هذه القضية على العلاقات مع مصر، وزيادة حدة الغضب الشعبي على «التطبيع» مع العدو، وبالتالي زيادة عزلة الزائرين الصهاينة لمصر. غير أن أجهزة الإعلام الصهيونية بدت، في بعض ردود الفعل التي أبدتها، وهي تبذل محاولات مستميتة لتزييف وقائع القضية، ابتداء من نشر وتسريب معلومات مغلوطة حول هوية المتهمين فيها، وانتهاء باختلاق سياق مزيف لهذه الوقائع، وصل حد الادعاء بأن شبكة التجسس المكتشفة، كانت تعمل لحساب طرف عربي، بعد أن تم خداع عناصرها «الإسرائيليين» بأن نشاطهم سيكون لحساب «الموساد» (!!).

وبعيداً عن مزاعم الإعلام الصهيوني، فإن قلق الأوساط الصهيونية من القضية، ومن طريقة الإعلان الرسمي المصري الواسع عنها، وعن بعض وقائعها، بدت واضحة في التصرفات المحمومة، التي قامت بها سفارة العدو في القاهرة، حيث حرص السفير

الصهيوني افرايم دوبك على طلب اللقاء بوزير الداخلية المصري اللواء محمد عبد الحليم موسى، عقب تصريحات للأخير حول القضية، أكد فيها أن المتهمين أدلوا باعترافات تفصيلية عن علاقتهم بجهاز المخابرات الصهيوني، وعن النشاط المكلفين به في مصر، كما أكد في هذه التصريحات أن فارس وابنته يعتنقان الديانة اليهودية (عكس ما قالته الصحافة «الإسرائيلية» من أنهما ينتميان إلى عائلة عربية مسلمة).

وقد تعمد دوبك، عقب لقائه وزير الداخلية المصري، أن يصرح لإذاعة الكيان الصهيوني بأن الوزير أبلغه بأنه لم يقل «أن المتهمين اعترفوا» وقد بدا واضحاً من ذلك أن المقصود هو توفير قدر من الدعم للروايات المغلوطة، التي تنشرها وسائل الإعلام الصهيونية في هذا الصدد.

ويذكر في هذا السياق أن مندوبين عن سفارة العدو في القاهرة، حصلوا على تصريح من السلطات المصرية المختصة بزيارة الجواسيس المقبوض عليهم، بعد أن تقدمت السفارة بطلبات رسمية ادعت فيها أن لديها معلومات تفيد بتعرض المتهمين لإكراه مادي ومعنوي للاعتراف بعملهم لحساب جهاز «الموساد».

النيابة العامة تجدد السجن لأعضاء شبكة التجسس

لكن مقابلة السفير أو القنصل الإسرائيلي للمتهمين شيء، والتدخل في التحقيق شيء آخر، حيث رفضت نيابة أمن الدولة العليا المصرية طلبات السفارة الإسرائيلية السماح لمندوبي السفارة بالاطلاع على الملفات الكاملة للتحقيقات التي جرت حتى تاريخه، وذلك بعدما كشفت المخابرات وأجهزة الأمن المصرية نشاط الشبكة في جمع المعلومات الحساسة لمصلحة المخابرات الإسرائيلية. ومن جهة

أخرى، جددت نيابة أمن الدولة المصرية مدة حبس ضابط «الموساد» الصهيوني [آنذاك] ديفيد أوفيتس على ذمة التحقيق في القضية، على الرغم من الضغوط الشديدة التي مارستها حكومة العدو على الحكومة المصرية لإطلاق سراحه، غير أن النائب العام المصري سمح للقنصل الصهيوني في القاهرة بحضور جلسة تجديد حبس أوفيتس، ومعه محامي السفارة فقط.

وكانت مصادر قضائية مصرية نفت نفياً قاطعاً نبأ أذاعه العدو، وزعم فيه قيام سلطات التحقيق المصرية بالإفراج عن ضابط المخابرات الصهيوني. إضافة إلى ذلك، فإن التحقيقات مع أفراد شبكة التجسس الصهاينة، والمتهمين بالتعاون معهم من المصريين، تواصلت بكثافة، حيث استدعت نيابة أمن الدولة المصرية العديد من الأشخاص، الذين وردت أسماؤهم في التحقيقات، باعتبارهم كانوا ضمن دائرة الصداقات والمعارف الواسعة التي نشط فيها آل مصراتي، وخاصة الابنة فائقة، وتستهدف التحقيقات في هذه المرحلة ـ حسب مصدر قضائي مصري ـ الانتهاء من تحديد المجال الذي تحركت فيه الشبكة، ومعرفة ما إذا كان هناك مصريون آخرون غير المقبوض عليهم ـ حتى حينه (6) أشخاص ـ تورطوا في النشاط الإجرامي للشبكة، أو كانوا على علم به.

وفي هذا السياق، ما تزال الشائعات والتكهنات تتردد بقوة في القاهرة عن أسماء الفنانين والفنانات، الذين تسربت إشاعات نسبت إلى مصادر التحقيق، تفيد أنهم كانوا على علاقة وطيدة مع مصراتي وابنته، غير أن مصدراً قضائياً مصرياً نفى، تورط أي فنان أو فنانة مصرية في نشاط الشبكة. وقال المصدر، إن بعض الصور، التي ضبطت في منزل مصراتي، وكانت تجمع بين ابنته وبين الفنانين،

كانت صوراً «مركبة» وغير حقيقة، حيث كانت الجاسوسة تستخدم هذه الصور في الإيقاع بضحاياها، وإقناعهم بأنها على علاقة بمشاهير المجتمع.

وعلى صعيد آخر، قامت أجهزة الأمن المصرية بتكثيف الحراسة الخفية على بعض الشخصيات التي اعترف أفراد الشبكة بأنهم كانوا يراقبون ويحاولون جمع معلومات عن تحركاتهم، تمهيداً لوضع الخطط في «الموساد» الصهيوني لاغتيالهم والاعتداء عليهم. ومن هذه الشخصيات الدكتور خالد جمال عبد الناصر، وأسرة المواطن المصري سيد نصير المتهم باغتيال الإرهابي الصهيوني مائير كاهانا.

وقد اتخذت سلطات الأمن المصرية احتياطات أمنية شددت بموجبها الحراسة على منزل المهندس خالد ابن الزعيم المصري الراحل «جمال عبد الناصر» الذي برأته المحكمة بعد عودته طائعاً إلى وطنه مصر من يوغوسلافيا، من تهمة (قيادة تنظيم ثورة مصر).

وكذلك شددت الحراسة على منزل أسرة (سيد نصير) الذي برأته محكمة أميركية أيضاً من تهمة قتل الحاخام (كاهانا) رئيس حركة كاخ الإسرائيلية المتطرفة.

وأكدت بعض المصادر في القاهرة أن أكثر من جهاز أمني مصري اشترك في إعداد دراسة متكاملة عن النشاط الرسمي الصهيوني في القاهرة، ومدى علاقته بالأنشطة التخريبية والتجسسية، التي يقوم بها العدو، تحت ستار التطبيع في مصر. وتقول المصادر، أن هذه الدراسة تستهدف فرض نطاق من السيطرة على هذه الأنشطة، فضلاً عن جمع قائمة من الأدلة على تورط السفارة الصهيونية، وباقي المؤسسات الرسمية «الإسرائيلية»، العاملة في مصر، في النشاطات

المعادية، لتمكين أصحاب القرار السياسي من اتخاذ الإجراءات والقرارات المناسبة، وذلك في ضوء الأبعاد الخطيرة، التي اكتشفتها قضية شبكة آل مصراتي وحجم استفادة المخابرات الصهيونية من الأوضاع القانونية للدبلوماسيين الصهاينة في مصر، لممارسة أنشطة التجسس والتخريب، وإدخال أدوات وأجهزة لا يمكن دخولها أو تهريبها إلى البلاد إلاّ عن طريق الحقائب الدبلوماسية للسفارة الإسرائيلية. وهذا ما يحصل فعلاً لأن الأجهزة ومستلزمات التجسس التي صودرت من شبكة مصراتي وغيرها من قبلها لا يمكن إدخالها عن طريق المعابر الحدودية أو الطائرات بسبب التفتيش الدقيق على جميع الإسرائيليين القادمين إلى مصر.

القنصل الإسرائيلي في القاهرة يعترف

فاجأ القنصل الصهيوني في القاهرة روني بورات الصحافيين بتصريحات ناقضت كل الادعاءات التي روجها الإعلام «الإسرائيلي»، منذ الإعلان عن كشف شبكة آل مصراتي للتجسس، التي دفع بها جهاز المخابرات الصهيوني «الموساد» إلى مصر، تحت ستار التطبيع لجمع المعلومات الاستراتيجية والعسكرية عن مصر والجماهيرية العربية الليبية.

وفيما كانت ادعاءات الإعلام «الإسرائيلي» بشأن القضية تدور في نطاق إنكار أي علاقة للكيان الصهيوني واستخباراته بالشبكة والمتهمين بها، سوى أنهم «إسرائيليون» فقط، فإن القنصل بورات اعترف، في التصريحات التي أدلى بها عقب سماح السلطات المصرية له ولسكرتير عام السفارة ومحاميها بحضور جانب من التحقيقات مع الجواسيس، بأنه «للمرة الأولى منذ اعتقال أعضاء الشبكة تقتنع

السفارة والمسؤولون «الإسرائيليون» بأن الاتهام تجاوز حدود التزوير والتخابر وجمع المعلومات. وبأن المتهمين فارس صبحي مصراتي وابنته فائقة وابنه ماجد اعترفوا تفصيلياً في التحقيقات بأدوارهم، وطبيعة المهمات التي كلفوا بها، توقيتها وأسماء المسؤولين «الإسرائيليين»، الذين يتلقون منهم التعليمات، وطريقة توصيل المعلومات التي يجمعونها».

ولقد أدهش القنصل الصهيوني الصحافيين، الذين استمعوا إلى تصريحاته حين أضاف، أنه علم من خلال التحقيق، أن أجهزة الأمن المصرية أوقعت جهاز المخابرات «الإسرائيلي» في فخ، وأنها كانت على علم تام بتحركاتهم (يقصد أفراد الشبكة) من خلال مصادر معلومات أخرى، وأن الأمن المصري قام بترحيل فارس مصراتي، في شهر آب (أغسطس) 1991، كنوع من التمويه، وكإجراء يتبع ضد كل أجنبي تنتهي مدة إقامته في البلاد، وذلك كان بهدف ألا يتم إثارة الشك لدى «الموساد» في اكتشاف السلطات المصرية لتحركاته!.

وتابع بورات، «إن تل أبيب أعادت فارس مصراتي إلى مصر بإقامة قانونية، باعتبار أن مصراتي حجر الزاوية في الشبكة، التي كان أحد أهدافها الاستراتيجية أن يمتد نشاطها إلى الأراضي الليبية» (!!).

وفي نهاية هذه التصريحات قال روني بورات أنه سينقل هذه المعلومات التي اكتشفها من خلال حضوره جلسة التحقيق مع الجواسيس الصهاينة إلى حكومته بشكل عاجل.

أثارت هذه التصريحات ردود فعل واسعة في العاصمة المصرية، لعل أغربها ما صدر عن سفارة العدو في القاهرة ذاتها، حيث سارع المتحدث الرسمي باسمها إلى الاتصال بمكاتب وكالات الأنباء

الأجنبية في القاهرة بهدف ـ كما قال ـ «تصحيح» ما نقل من تصريحات عن لسان القنصل بورات، غير أن هذا «التصحيح» لم يتناول سوى أن بورات لم يقل إن ضابط «الموساد» دافيد أوفيتس الذي اعتقلته سلطات الأمن المصرية بعد أيام من دخوله إلى مصر لمتابعة قضية مصراتي لم يعترف في التحقيقات. وكانت نيابة أمن الدولة العليا المصرية قررت، في نهاية جلسة التحقيق مع المتهمين التي حضرها القنصل الصهيوني، تجديد حبسهم جميعاً على ذمة التحقيقات في القضية لمدة (15) يوماً.

كما قامت النيابة، خلال الجلسة ذاتها، بمواجهة أعضاء الشبكة كل منهم باعترافات الآخر، فضلاً عن الوقائع والمعلومات التي توصلت إليها سلطات التحقيق، وكذلك نتائج تقارير لجان فحص المضبوطات والتقارير الفنية من الجهات المختصة.

ويذكر أن حكومة العدو كانت طالبت رسمياً السلطات المصرية، في رسالة بعث بها وزير الخارجية الصهيوني ديفيد ليفي، بأن تتدخل لدى أجهزة الإعلام في مصر، لوقف ما أسماه بالحملات المعادية لـ «إسرائيل» التي تصاعدت منذ الإعلان عن شبكة آل مصراتي، والتي اعتبرها تضر جداً بصورة «إسرائيل» وبمستقبل العلاقات بين الجانبين.

وفي هذا السياق، ذكرت مصادر في وزارة السياحة المصرية أن (الأسابيع الأخيرة)، ومنذ إلقاء القبض على شبكة التجسس، شهدت ما يشبه المقاطعة «الإسرائيلية» للسياحة في مصر، حيث تم إلغاء الغالبية العظمى من الأفواج السياحية، التي كان مقرراً أن تحضر إلى مصر.

ثورة الجاسوس العاري

وفي أول ظهور علني للجاسوس فارس صبحي مصراتي وابنته فائقة بعد انتهاء التحقيق وبحضور بعض المحامين والصحفيين وقليل من الذين استحصلوا على تصاريح خاصة من وزارة الداخلية لحضور هذه الجلسة، وقد خصصت هذه الجلسة لعرض المتهمين على الجمهور والصحافة وأيضاً لاستصدار أمر استمرار حبسهم على ذمة التحقيق لمدة (45) يوماً حتى تبدأ محاكمتهم.

وكانت جلسة المحكمة، التي عقدت في إحدى الدور القضائية، شرق القاهرة، وسط إجراءات أمنية لم يسبق لها مثيل، شهدت وقائع مثيرة، بدأت فور دخول الجاسوس مصراتي وسط عدد كبير من أفراد الأمن المصريين إلى قاعة المحكمة، فبعد أن تم فك القيود عن يديه، ليمثل أمام المحكمة، انتابته حالة من الهياج الشديد، ثم قام بخلع ملابسه تماماً. وهو يردد ـ باللغة العربية ـ سيلاً من العبارات والشتائم البذيئة في حق أفراد الأمن المصريين، ومصر نفسها، وحين تصدى له أحد الضباط، ليمنعه من مواصلة خلع آخر ملابسه، قام الجاسوس بالاعتداء بالضرب على الضابط المصري، الذي لم يكن يتوقع ما حصل، فأصيب بنزيف نقل على أثره إلى أحد المستشفيات القريبة للعلاج.

كما أصاب الصهيوني مصراتي، خلال ذلك، عدداً من أفراد الأمن المصريين، الذين أحاطوا به، وأجبروه، في نهاية هذا المشهد المبتذل، بالقوة على معاودة ارتداء ملابسه، في حجرة ملحقة بقاعة المحكمة، أما ابنة الجاسوس، التي جلست خارج قفص الاتهام، فقد ظلت هادئة وشاردة الملامح، وكررت أمام المحكمة اعترافاتها بكل

التهم المنسوبة إليها، وإلى والدها، فيما أنكر الأخير أمام المحكمة كل اعترافاته في التحقيقات!!.

وأمرت المحكمة بتحرير محضر بالواقعة، التي ارتكبها فارس مصراتي خلال الجلسة حيث وجهت بعد ذلك النيابة العامة المصرية عدة تهم جديدة، منها التعدي على رجال الأمن أثناء أدائهم وظيفتهم، وإهانة رجال الشرطة، وارتكاب فعل فاضح علني، وإثارة الشغب في جلسة المحاكمة.

وقررت النيابة تقديمه إلى محاكمة عاجلة مثل أمامها بالفعل في حينها بهذه التهم الأخيرة.

وكان مندوب عن سفارة العدو في القاهرة حضر جلسة النظر في تجديد حبس مصراتي وابنته، غير أنه رفض التعليق على القضية أو ما حدث خلال الجلسة. كما حاول تجنب عشرات الصحافيين، الذين حاول مصراتي التعدي على بعضهم، مما جعل هؤلاء يحاولون الاشتباك معه، كما ردد عدد منهم هتافات معادية للكيان الصهيوني ومنددة بمحاولات ومؤامرات التخريب التي يرتكبها ضد المجتمع المصري تحت ستار التطبيع.

وقد حولت القضية الجنحية التي ارتكبها فارس مصراتي لتعديه وضربه رجال الأمن إلى محكمة خاصة حيث تم الحكم عليه بالسجن (3) سنوات فقط لجهة تعديه على رجال الأمن و (متابعة) محاكمته عن أعمال التجسس.

تجسس مصراتي على ليبيا

نعود إلى أصل هؤلاء الجواسيس؟.

الاعتراف الذي أدلوا به بعد القبض عليهم هو أنهم (أصلاً من يهود ليبيا) وقد سبقهم أهلهم (آل مصراتي) نسبة إلى مدينة (مصراته) الليبية، بالهجرة إلى (فلسطين العربية) منذ ثمانين عاماً وبعض هذه العائلة جاء إلى فلسطين عام 1948 بعد إنشاء الكيان الصهيوني والاحتلال الإسرائيلي.

المهم أن أصلهم العربي هو الذي رشحهم للقيام بمهمتهم في ليبيا ومصر. بالنسبة إلى ليبيا، كانوا مكلفين بالاتصال بالمسؤولين وبالشباب المثقف وببعض العسكريين لجمع معلومات محددة لم يعرف بعد عنها شيء كثير، لكن أخطر ما عرف هو أنهم عهد إليهم باغتيال العقيد معمر القذافي والبحث الدقيق لمعرفة ما إذا كانت ليبيا تملك القنبلة النووية.. فالخوف ينتاب إسرائيل كلما قيل إن إحدى الدول العربية مقبلة على صنع هذه القنبلة.

وعندما وصلوا ليبيا أشاعوا أنهم إنما جاؤوا لاستعادة مواطنيتهم والتخلي عن جوازات سفرهم.. لكنهم ما لبثوا أن عادوا إلى إسرائيل بعد فشل مهمتهم في ليبيا.

لكن يبدو أن هؤلاء «المصراتية» عريقون في الإجرام... فقد وجهت إليهم عدة تهم في إسرائيل كان بينها اغتيال شقيقتهم أمل بسبب سوء سلوكها... ويبدو أيضاً أن إسرائيل عندما جندتهم في خدمتها وعدتهم بتخفيف الأحكام الصادرة لمعاقبتهم. وقد تبين أنهم ذهبوا إلى ليبيا بأوراق هويات مزورة، كما لم يثبت أنهم حاولوا يوماً التخلص من أعباء التجسس لصالح إسرائيل.

الغريب في ادعاءاتهم أنهم يحاولون أن يؤكدوا بأنهم لا يزالون مسلمين، بينما تؤكد معلومات أخرى أن احتفاظهم بأسمائهم الإسلامية

هو لتسهيل مهماتهم وتنقلاتهم بين البلاد العربية لولا أن حظهم البائس أراد لهم الكشف عن حقيقتهم بمجرد وصولهم الأراضي المصرية. والثابت من ناحية أخرى أن والدهم «صبحي» لا يزال مقيماً في إسرائيل، كما أن هناك عدداً من أقربائهم لا يزالون نزلاء السجون الإسرائيلية.

وقد طلب آل مصراتي، المقيمون في الأراضي المحتلة إلى السلطات الإسرائيلية توكيل محام مصري للدفاع عنهم في القاهرة، وظهرت سارة زوجة فارس في التلفزيون الإسرائيلي وتحدثت بالعبرية بلهجة باكية وقالت أن فارس لم يكن جاسوساً بل كان مترجماً لزميله اليهودي! وقالت أيضاً أن فارس يجهل كل شيء عن مصر وأنه كان يشتري الأثاث لحساب السفارة الأميركية في القاهرة ليُصدّره من هناك ويتاجر به!.

على كل حال، السفارة الإسرائيلية في القاهرة أبدت اهتماماً كبيراً باتهام فارس المصراتي وطلبت حضور مندوب عنها في التحقيق الذي يجري معه. كما قدمت طلبات أخرى رفضت السلطات المصرية بعضها وتحفظت بشأن بعضها الآخر. مع ذلك لم يرفض المستشار عبد المجيد محمد المحامي العام لقاء القنصل الإسرائيلي كلما طلب ذلك، كما ذكرنا قبل ذلك.

أهم ما كان يشغل فارس هو تأمين إقامتهم في القاهرة، ويبدو أنه سعى في سبيل ذلك إلى عقد قران ابنته من أحد المصريين لتستطيع بهذه الوسيلة الحصول على إقامة دائمة في الأراضي المصرية. وقد ترددت شائعات كثيرة حول تنقلات فائقة في القاهرة وبين هذه الشائعات أنها أقامت علاقات مع بعض الفنانات، لكن حتى الآن لم يتأكد ذلك ولذا يرجح أنه غير صحيح.

ويقال أيضاً إن فارس كلف من قبل الموساد برصد تحركات الدكتور بطرس غالي واغتياله إن أمكن. وكان هدف إسرائيل من ذلك محاولة إثارة فتنة طائفية في مصر وهو ما أخفقت كل الجهود الخارجية في التوصل إليه، وحرمان العرب من أن يكون الأمين العام للأمم المتحدة منهم. وقد شعر الجواسيس الأربعة منذ البداية بأن مهمتهم تتجه إلى الفشل لأن أحداً من المصريين سواء من الموظفين أم من الشباب المثقف لم يتورط في إقامة علاقة معهم.

من جهة أخرى تبين أن فارس مصراتي دخل مصر تحت شعار السياحة وكانت ابنته ترافقه وكان هو ـ أي فارس ـ حريصاً على ذلك بهدف اصطياد الرجال ومحاولة الحصول على معلومات منهم، وهو ما اقترن بالإخفاق التام. وكان وهو يكلف ابنته يركز على أبناء الشخصيات العامة الرسمية المهمة، لكن أحداً من الذين اتصلت بهم لم يقع في الفخ.

وقد عرف أنه أثناء التحقيق مع ديڤيد أوفيتس تبين وجود جاسوسين آخرين معه فقبض عليهما، وأُحيلا للتحقيق كما عثر في أثناء تفتيش شقة أوفيتس على عقد إيجار مدته ثلاث سنوات وأن إيجار الشقة قد حدد بخمسمائة جنيه شهرياً.

والذين عرفوا الابنة «فائقة» أنها لم تكن تتمتع بجمال جذاب لكنها كانت لعوباً وتستخدم حركات الإغراء كثيراً وتتردد على الفنادق وصالات الرقص والديسكو للتعرف على أي عدد من الشبان.

ولكي تبعد إسرائيل الشبهات عن شبكة الجواسيس زعمت أن فارس مصراتي يعمل لحساب ليبيا وأنه تورط في عدة أعمال إجرامية في «رام الله» وبعد ذلك وجه اهتمامه إلى دراسة الإسلام ثم انتقل إلى

كفر قاسم لكي يصبح قريباً من الزعماء المسلمين. وقالت الصحف الإسرائيلية أيضاً أن فارس سافر إلى مصر من أجل الانضمام إلى الإخوان المسلمين، لكنه طرد من مصر وعاد إلى إسرائيل عن طريق ليبيا التي كان يعمل لحساب مخابراتها.

وعندما جاء أخيراً إلى القاهرة عمد إلى استئجار شقة مفروشة في العقار رقم (5) في شارع أحمد مخيمر في منطقة النزهة. وقد لاحظ سكان الحي أنه لا يستخدم هذه الشقة إلاّ نادراً وكان جعلها مجرد مركز له في القاهرة.

ولما تعرض للقبض عليه حاول الهرب لكن الطوق حوله كان محكماً.

وهكذا أخفقت إسرائيل في الحصول على شيء من شبكة التجسس التي أوفدتها إلى العاصمة المصرية.

جريمة شبكة فارس مصراتي سياسية

نتيجة هذه المعلومات الوافية عن النشاط الذي قامت به شبكة المصراتي تأكد أن التجاوزات الإسرائيلية المعلنة على الأراضي المصرية خلال الفترة الماضية مقتصرة على ارتكاب جرائم جنائية تمثلت في تزوير أوراق رسمية وسندات وتزييف العملات الورقية وخاصة الدولارات وسرقة الآثار وتهريبها، وكذلك الاستيلاء على الشعب المرجانية النادرة التي تستخدم في علاج أخطر أمراض العصر (السرطان والإيدز) من منطقتي نويبع وشرم الشيخ. وجريمة مصراتي ليست جنائية، لكنها سياسية في المقام الأول وتم إعدادها بعناية فائقة من «الموساد» وظهر ذلك واضحاً من التكليفات الصادرة إلى عميلهم ليرصد كافة الأمور الاستراتيجية والعسكرية في مناطق معينة في سيناء

وبور سعيد وبور فؤاد والإسكندرية وبعض محافظات صعيد مصر، ولم يتم الاكتفاء بذلك بل تصاعدت التكاليف بتدعيم الاتصالات مع بعض المصريين عن طريق التردد على الأماكن والجمعيات الدينية للوقوف على النشاط الأصولي في مصر وخاصة الأخوان المسلمون، التنظيم الذي اغتال الرئيس السادات، وكذلك الاتصال بأقطاب الإجرام الجنائي لتزوير المستندات الرسمية التي ضبطت مع الجاسوس وهي البطاقات الشخصية وشهادات تأدية الخدمة العسكرية وجوازات السفر للانخراط في صفوف المصريين والإقامة الدائمة بينهم.

إضافة إلى الارتباط بمشاريع تجارية تتطلب البقاء الدائم في البلاد ومنها الاشتراك في المزادات وبيع التحف الأثرية والتردد على المنازل وإقامة علاقات والوصول إلى بعض المستويات الوظيفية لرفع مستوى المعلومات بالتبعية. وقد اتضح من التكليفات الصادرة من أقطاب «الموساد» إلى الجاسوس درجة خطورته وصعوبة كشفه. ولذا تم تطوير تلك التكليفات حتى وصلت أثناء أزمة الخليج إلى القطاعات الشعبية التي تضررت من عودة معيليها من الخليج وإمكانية تصاعد ذلك للصدام مع السلطة. كذلك قياس شعبية الرئيس حسني مبارك وخاصة في أوقات الأزمة لكون هذا القياس له دور هام في السياسة الخارجية الإسرائيلية.

إلى ذلك امتدت حركة الجاسوس الاستخباراتية إلى الأراضي الليبية مستغلاً أصله الليبي والوثائق المزورة التي منحته الجنسية المصرية للوقوف على أبعاد التقارب بين البلدين. وخاصة بعد قرار فتح الحدود وإزالة الصعوبات. وبذلك أصبح مصراتي متعدد الجنسية: (إسرائيلي ـ مصري ـ ليبي). وقد كشفت تحقيقات نيابة أمن الدولة العليا تلك التكليفات التي تميزت بالآتي:

* أنها صادرة من مستويات عليا من جهاز المخابرات الإسرائيلي (الموساد).

* أنها جميعها تحمل طابعاً عسكرياً.

* أنها مرتبطة بفترة زمنية.

* أن ولديه فائقة وماجد ساهما في بعض هذه التكليفات حيث سافرا معه إلى ليبيا، وقامت فائقة بتدعيم بعض الشباب المصري وإقامة علاقات غير مشروعة معهم. وكانت تتقدم إليهم على أنها سورية ولبنانية أو مصرية بالبطاقة المزورة، وركزت علاقاتها مع مستويات وظيفية محددة كان آخرها مع الباحث الاجتماعي مصطفى علي حسن الذي ضبط أثناء عملية مداهمة مقر الجاسوسة وأخلي سبيله بمعرفة النيابة العامة لعدم علاقته بالوقائع المنسوبة إليها.

وأخيراً المفاجأة

بعد كل هذه التحقيقات والإثباتات والوقائع المادية كما يقولون واحتمال الحكم على شبكة المصراتي بالأحكام المعروفة في مثل هذه الحالة، صدرت المفاجأة عن السلطات المصرية المختصة بإطلاق سراح أعضاء الشبكة جميعاً وهم:

1 ـ فارس صبحي مصراتي، رأس الشبكة.

2 ـ ديفيد أوفيتس، الذي سمته الصحافة المصرية (ضابط المخابرات الإسرائيلية).

3 ـ فائقة فارس مصراتي، التي نسب إليها إنشاء العلاقات الجنسية مع الشبان المصريين للحصول على المعلومات.

4 ـ ماجد فارس مصراتي، عضو الشبكة وابن رئيسها.

وقضى القرار الذي صدر عن السلطات العليا بتسليم الجميع إلى سلطات العدو الإسرائيلي. وقد تفاعلت وبشدة قضية إطلاق السلطات المصرية (فجأة) لأعضاء الشبكة. رغم أن رئيس الشبكة (فارس مصراتي) سبق أن حكم عليه بالسجن لمدة ثلاث سنوات مع الأشغال الشاقة في قضية (منفصلة) عن قضية التجسس هي (إهانة العدالة المصرية والتعرض بالتعدي والضرب على رجال الأمن المكلفين بحراسته أثناء المحاكمة). فبينما كانت موجات النقد العنيف تتوالى من أوساط القوى السياسية وأحزاب المعارضة وقطاعات واسعة في الرأي العام المصري، ضد هذا القرار، باعتبار أنه يشكل مساساً خطيراً بالأمن الوطني وإهانة لأحكام القضاء المصري، ترددت شائعات حول أن إطلاق المتهمين الصهاينة في القضية، كان ضمن صفقة أطلقت بموجبها سلطات العدو عدداً من المواطنين المصريين، الذي اتهمهم الكيان الصهيوني بالتجسس لمصلحة المخابرات المصرية. وهذا الأمر وارد ومعقول في عالم التجسس والمخابرات لاسيما وكما ظهر من الكشف عن بقاء العميل المصري (رأفت الهجان) حوالى ربع قرن، وهو يتجسس للمخابرات العامة المصرية في عقر دار المخابرات الإسرائيلية التي تدعي السيطرة على أمن إسرائيل، وهنا لا يستبعد وجود عشرين رأفت الهجان (ديڤيد) داخل الكيان الصهيوني حتى الآن. إلا أن هذه الشائعات التي بدت وكأن دورها هو التخفيف من الموقف الحرج، الذي وقعت فيه الحكومة المصرية منذ إطلاقها شبكة فارس صبحي مصراتي، سرعان ما تبدد جوهرها، بل تَعَقّد الموقف أكثر، حين أعلنت سلطات العدو الصهيوني، بعد أقل من أسبوع من إطلاق جواسيسها، أنها ستحاكم مواطناً مصرياً كانت اعتقلته سراً قبل سبعة شهور. وذلك بتهمة جمع

المعلومات والتجسس لمصلحة المخابرات المصرية (رأفت جديد).

وكان لهذا الإعلان من جانب سلطات العدو ردود فعل في أوساط الرأي العام المصري، حيث كان كإلقاء وقود سريع الاشتعال على حريق كان شب بالفعل، مع إعلان نبأ إطلاق جواسيس شبكة فارس صبحي مصراتي. وفي هذا السياق أجمعت افتتاحيات صحف أحزاب المعارضة المصرية على وجود تهاون في عملية إطلاق سراح الشبكة الجاسوسية.

ولعل ما أسهم في اتساع دائرة الغضب والضجيج في أوساط الرأي العام المصري، أن إعلان سلطات العدو عن إحالة المواطن المصري، الذي لم تكشف عن اسمه إلى المحاكمة في الكيان الصهيوني صاحبته تصريحات أدلى بها عدد من كبار المسؤولين الصهاينة، أكدوا فيها أن سبب عدم الإعلان عن اعتقال هذا المواطن، طوال الشهور التي ظل خلالها خاضعاً للتحقيق، هو «عدم التأثير في قضية أفراد شبكة فارس صبحي مصراتي، وحتى يمكن إطلاق سراحهم» (!!).

في ضوء ذلك، سارعت الحكومة المصرية إلى إجراء اتصالات مكثفة مع سلطات العدو من جانب ومع كبار المسؤولين في الإدارة الأميركية من جانب آخر، لتأمين الإفراج السريع عن المواطن المصري.

وفي هذا السياق، حمّلت وزارة الخارجية المصرية سفير الحكومة المصرية لدى العدو [آنذاك] محمد بسيوني مذكرة شديدة اللهجة، سلّمها بسيوني إلى وزير خارجية العدو دافيد ليفي وتضمنت اعتبار كل سياق الوقائع الذي تم فيه اعتقال المواطن المصري

والتحقيق معه بغير علم السلطات المصرية، والإعلان عن اعتقاله، بعد الإفراج عن شبكة فارس صبحي مصراتي، يمثل عملاً عدائياً ضد مصر، ومخالفاً لأبسط قواعد وأعراف العلاقات بين الدول»، وانتهت المذكرة إلى ضرورة الإفراج الفوري عن المواطن المصري و «تطبيق مبدأ المعاملة بالمثل على قضيته».

وفي الاتجاه نفسه، فإن الحكومة المصرية قامت باستدعاء سفيرها لدى العدو محمد بسيوني، حيث التقاه في اجتماع مطول الدكتور أسامة الباز، أبرز مستشاري الرئيس حسني مبارك وحثه على المطالبة بحل سريع لهذه القضية التي أثبتت فيها إسرائيل استهتارها بجميع القيم والأعراف، خاصة ومن المعروف أن هناك أصولاً متعارفٌ عليها في تبادل الجواسيس والعملاء بعد القبض عليهم في جميع دول العالم، لكن الدولة والمخابرات الوحيدة في العالم التي تتصف بتخزين الحقد الأسود هي إسرائيل ومخابراتها.

فالنتينا نيكولاييفنا مالينوفسكا(*)
(Valentina N. Malinoveska)
(1914 -)

هي إحدى جاسوسات المخابرات السوفياتية في الدانمرك، وخريجة معهد التجسس السوفياتي براكهوفكا تحت اسم: **غريتا نلسون**. فكيف نفذت هذه الجاسوسة مهمتها؟ وبأيّ سلاح؟.

أصبحت غريتا نلسون فتاة غلاف بفضل جمالها الهادىء وشعرها الناعم وعينيها البنفسجيتين الباسمتين وذكائها. وكان بإمكان منتجي الأفلام السينمائية أن يجعلوا منها نجمة، لما تتمتع به من سحر ومواهب تمثيلية وذكاء.

ولكنها لم تكن تطمح إلى أضواء الشهرة ولا إلى تهليل الجمهور. فقد وجهت مواهبها بدلاً من ذلك إلى التجارة. فتحت متجراً في قلب كوبنهاغن لبيع الهدايا حيث اشتهر في غضون أسابيع قليلة. ويرجع نجاحه إلى سحر غريتا نلسون وشخصيتها الفذة التي أمنت لها اقتناع الزبائن ورضى مساعديها. وكانت غريتا تتكلم

(*) **المرجع**: «الجاسوسية في العالم». تأليف مجموعة من المؤلفين. دار الحسام. بيروت 1988. ص338 ـ 343. وسعيد الجزائري «حرب المخابرات في العالم». ص71 ـ 76.

الدانماركية كإحدى بنات البلاد؛ ولكن كان المستطاع في بعض الأحيان الانتباه إلى لكنة أجنبية تشوب صوتها. غير أن ذلك كان متوقعاً. فقد كانت سويدية بالولادة وعاشت حياتها في غوتبرغ إلى أن جاء بها زوجها وهو روائي دانماركي إلى كوبنهاغن. غير أنها اعتادت بسرعة طريقة العيش الدانماركية ولكنها قررت بعد ذلك «الحدث المؤلم» في حياتها أن تتابع العيش في كوبنهاغن. وكان الحدث هو هجر زوجها لها. فقد كانت هناك امرأة أخرى... وطفل على الطريق. ذلك ما أشيع. لكن أصدقاء غريتا لم يكونوا ليلحوا عليها في السؤال عن التفاصيل حرصاً منهم على مشاعرها إذ كان يؤلمها التحدث عن ذلك.

وهكذا تمتعت غريتا ومتجرها بضيافة الشعب الدانماركي، الذي لم تكن لديه أدنى شبهة بأن غريتا جاسوسة.

ومن المحتمل أن تكون غريتا إحدى ألمع النساء الجاسوسيات في تلك الحقبة. فهي لم تتابع التجسس بنجاح لمدة اثنتي عشرة سنة دون إثارة أي شبهة فحسب، بل استطاعت عندما افتضحت نشاطاتها التجسسية، الهرب في ظروف زرعت الشكوك حول إثبات جرمها.

جمال من لينينغراد

لم تكن غريتا نلسون دانماركية حتى ولا سويدية، بل روسية. وهي ابنة منظم الحزب في لينينغراد. وكان اسمها الحقيقي فالنتينا نيكولاييفنا مالينوفسكا. وكانت مؤمنة إلى درجة التعصب الأعمى بالحزب الشيوعي. وإلى ذلك، فإن جمالها وذكاءها كانا في طليعة الأسباب التي حملت السلطة على اختيارها للتدريب التجسسي. وأدخلت المعهد التجسسي السوفياتي براكهوفكا في تشرين الأول

(أكتوبر) عام 1944. وعند قبولها في المعهد أعطيت هوية جديدة وأصبح اسمها غريتا نلسون من التابعة السويدية ومن مواليد غوتبرغ. وسجلت رسمياً كعميلة للاستخبارات السوفياتية تحت رقم د ـ 441610/ 011 ـ ب.

لم يقتنع مدربو فالنتينا بكفاءتها إلا بعد عشر سنوات من التدريب فقد كانت معاهدة التجسس السوفياتية ذات مستوى عال من الكفاءة.

وتدربت فالنتينا بجد وأصبحت خبيرة في تقنية التجسس الحديثة. وعندما اجتازت امتحاناتها النهائية في براكهوفكا في تشرين الثاني (نوفمبر) عام 1945 كانت قد بلغت الحادية والثلاثين من العمر. واعتبرت مؤهلة لأن تقوم بأعباء شبكة تجسس في الدانمارك.

ووضعت غريتا في الاحتياط سنة أخرى في براكهوفكا، ذلك أن مدير قيادة الاستخبارات في موسكو ـ الشعبة الأولى ـ (المختصة بالحصول على الهويات الأجنبية) لم يكن مقتنعاً تماماً بالمستندات التي ستستعملها، كغطاء. ولذا أمر بإجراء كشف كامل للتأكد من سلامة مستقبل الجاسوسة العتيدة. وكان التقرير الأخير الذي استلمه يشير إلى أن غطاء غريتا الواقي كان على أكمل وجه.

وهكذا، وبعد عشر سنوات طويلة من التدريب المتواصل أصبحت الجاسوسية السوفياتية الجديدة مستعدة للبدء في العمل.

الزوج الهارب

وقبل الميلاد سنة 1954 بأسبوعين تسللت غريتا إلى «وطنها الأم». ولفترة شهر أخذت تتأقلم على العيش في السويد فسافرت طويلاً لتعوِّد نفسها على البلاد واستعانت بتدريباتها التجسسية لمعرفة

ما إذا كانت تزرع الشك لدى ضباط مكافحة الجاسوسية. وأثناء فترة التأقلم تلك حرصت غريتا على التقيد بتعليمات الاستخبارات السوفياتية الصارمة التي تمنعها من القيام بأي نشاط تجسسي.

وبعد عدة أسابيع من وصولها إلى السويد، سافرت إلى كوبنهاغن. وهناك تزوجت من دانماركي بناء على أوامر من مدير قيادة الاستخبارات في موسكو ـ الشعبة الثالثة ـ واختير زوجها بعناية فائقة من قبل هيئة الاختيار لدى دائرة الاستخبارات في موسكو. وكان شاباً شيوعياً متحمساً، فأطاع الأوامر بإعطاء الحق في كسب الجنسية الدانماركية عن طريق الزواج.

وبعد زواج غريتا بمدة وجيزة اختفى زوجها حسب الاتفاق المسبق. فقد طلبه قسم النقل الروسي إلى الاتحاد السوفياتي حيث سلم مركز مدرس لغة في براكهوفكا تحت إشراف الـ «ك.جـ.ب.».

واستقرت غريتا متمتعة بكل حقوق وواجبات المواطن الدانماركي وحرة من القيود المفروضة على المقيمين الأجانب. ولم تشك السلطات الدانماركية يوماً بأن زواج غريتا كان مدبراً من قبل موسكو. وكان التعليق الوحيد المثير للشك حول غريتا ينحصر بالدهشة من «حمرنة» زوجها لهجره امرأة لها جمالها وسحرها.

سحر الجنس

وقد خصت موسكو غريتا بالمبالغ الكافية لخلق شبكة تجسس، لكن كان على غريتا أن تبين مصادر المال فيما إذا أرادت القيام بعمل يغطي نشاطاتها. وهكذا فضلت الالتقاء برجال أعمال دانماركين فاستغلتهم متاجرة بسحرها الجنسي، فأقنعتهم بالمال اللازم لفتح متجر

لبيع الهدايا، وقد قبلوا ترك إدارة المتجر بيدها وكانوا بالمقابل يكتفون بالمنح التي كانت تغدقها على كل منهم على حدة.

واستطاعت باستغلالها الجنسي تأمين مصدر رأسمال شرعي وحصلت على أصدقاء منفذين وذوي مكانة اجتماعية مرموقة.

وما أن أتمت المتجر حتى أصبح بإمكانها الشروع في بناء شبكة التجسس. وزودتها موسكو بلائحة تتضمن أسماء الشخصيات المناسبة للتجنيد. فقامت غريتا بمقابلتهم شخصياً وانتقت منهم من وجدته ملائماً. وعملت على وضع المعدات التجسسية التقنية في المتجر. ونشطت في العمل حتى أن شبكتها كانت حتى شهر آذار (مارس) 1955 تتألف من سبعة عشر عميلاً ومخبراً. وكانت رسائل الميكرو دوت والأفلام الميكرو تتدفق على مقر القيادة في موسكو وكان رؤساؤها في دائرة الاستخبارات السوفياتية شديدي التأثر بأخبارياتها «المثالية» وعبقريتها البعيدة النظر.

كما عملت غريتا على أن لا تتدخل شخصياً في حقل النشاطات التجسسية. فقد علمها ذلك معهد براكهوفكا استناداً إلى خبرات غيرها من الجاسوسيات اللواتي ضبطن لعدم احتراسهن ولعدم تقيدهن بالتعليمات وقواعد السلامة التي تعلمنها في دائرة الاستخبارات السوفياتية.

ركزت غريتا على جمع المعلومات عن إنشاء حلف شمال الأطلسي وقواته الضاربة، وغيرها من الأمور العسكرية والتقنية الشديدة السرية. أما أهدافها الثانوية فقد كانت تتناول الأسرار الداخلية التي تتعلق باقتصاد الدانمارك واستراتيجيته السياسية. وكان عملاؤها ومخبروها الذين يحتلون وظائف حساسة في الإدارات

الرسمية يمدونها بفيض دائم من المعلومات، التي كانت تجدها موسكو لا تقدر بثمن.

أسرار في الهدايا

وكانت تخفي الأفلام الميكرو التي تحتوي على نسخ ورق كاربون عن الأسرار الهامة والمستندات الديبلوماسية والتقارير السرية داخل هدايا المتجر البريئة المظهر التي تُنتقى بمهارة وذكاء، مثل فراشي الثياب وماكينات الحلاقة الكهربائية والساعات المنبهة. وكان الكثير من هذه الأدوات تطير من كوبنهاغن داخل حقائب المسافرين حاوية أسرار الاستخبارات الروسية.

أما الرسائل والتقارير المستعجلة فقد كانت ترسل بالشيفرة بواسطة موجات راديو قصيرة وعالية الذبذبة. كما أن عدداً لا يحصى من المخابرات الميكرو دوت كانت تُخفى تحت الطوابع الملصقة على البطاقات البريدية التي كانت ترسل إلى عناوين وسيطة عبر العالم الغربي وترسل الأسرار بعدئذ إلى مدراء الاستخبارات في موسكو بطرق مختلفة.

وسرعان ما عقدت غريتا اتفاق عمل مع زميلها في ستوكهولم الذي كان بدوره على علاقة وثيقة بالجاسوس الكولونيل شتيغ وينير شتروم. ولم تسمح موسكو بعلاقتهما تلك ولكن خططهما الخاصة مكنتهما من تبادل الاخباريات المفيدة وزيادة الاخباريات المؤكدة التي كانا يرسلانها إلى رؤسائهما. وهكذا ثبت موقفيهما بالنسبة إلى مدرائهما في موسكو. فشغل الجواسيس الشاغل كان دائماً إرضاء رؤسائهم. فهم يعيشون حياة محفوفة بالخطر، لأن التخلص من العملاء غير الفعالين والذين لا يحوزون رضى رؤسائهم يتم بسهولة

بالغة، إما بالوشاية من نشاطاتهما السرية وإما بالاغتيال!.

ولم يكن متجر الهدايا في أي وقت من الأوقات محطاً للشبهات. فقد كانت تعتبر مديرته الحسناء مواطنة طيبة ومحترمة. وكان سعاتها ـ وهم صلة الوصل بينها وبين عملائها ـ يأتونها كزبائن عاديين، وكان نجاح غريتا أن سعاتها لم ينقلوا مرة أي شيء يثبت عليهم جرماً ما. كما أنهم لم يقبضوا مرة ثمن خدماتهم في الحال. فقد كانت الأفلام الميكرو وثمن الخدمات تترك في سلال المهملات حيث تؤخذ بعد ذلك عندما يكون ذلك مأموناً.

هاتف «الصندوق الأسود»

وفي شهر حزيران (يونيو) من عام 1963 قبض على الكولونيل شتيغ وينير شتروم. ونشطت في الحال مكافحة الجاسوسية الإسكندنافية والإنكليزية والفرنسية للقضاء على التجسس في البلدان الإسكندنافية. فقررت غريتا تخفيف نشاطاتها والاحتراز في تحركاتها ونقلها للمعلومات فاستعملت الصحف لإعطاء عملائها ومخبريها التعليمات وذلك باستعمالها شيفرة متفقاً عليها. كما استعملت التلفون لنقل الرسائل المستعجلة، متخذة جميع الاحتياطات «كالصندوق الأسود». فقد استأجرت مكتباً باسم مستعار وطلبت خطين برقمين مختلفين، فأعطت رقماً لعملائها لإيصالهم الرسائل المستعجلة بواسطة الشيفرة المتفق عليها مسبقاً، وأبقت الرقم التالي سرياً ووصلت الخطين «بالصندوق الأسود» وعندما كانت ترتقب مكالمة من أحد العملاء كانت تطلب الرقم السري من كابين عمومي، بينما يطلب العميل الرقم الآخر فيتم الاتصال عبر «الصندوق الأسود» الذي كان يعمل بواسطة مؤقت أوتوماتيكي فيقطع المكالمة بعد دقائق معدودة،

فقد كان يلزم لمكافحة التجسس سبع دقائق على الأقل لتتبع أية مكالمة، وهكذا حمت غريتا نفسها من أي خطر لتتبع المخابرات الهاتفية كما كان الصندوق الأسود مهيئاً لأن يقطع الاتصال بين الهاتفين إذا ولج الغرفة شخص ما. كما أن غريتا كانت تغير الكابين العمومي في كل مرة تتصل فيها بالرقم السري.

وهكذا استطاعت غريتا متابعة عمليات التجسس مدة أربع سنوات بعد اعتقال الكولونيل شتيغ روينر شتروم. وفي عام 1967 أثبتت التحقيقات مع الجاسوسية السوفياتية العامة في روما وتدعى أنجيلا ماريا رينالدي بأن ثمة جاسوساً روسياً يعمل في كوبنهاغن فأخطرت السلطات الدانماركية بذلك ولكن مكافحة التجسس الدانماركية لم تستطع الإمساك بأي خيط يوصلها إلى غريتا. ثم لما انحاز أحد كبار ضباط الـ «ك.ج.ب» الروسية إلى الغرب حمل معه مستندات كثيرة تتعلق بشبكات التجسس الروسية العاملة في الغرب. وكان واحد منها يختص بشبكة غريتا. وعلى الفور تحركت موسكو، وسافرت غريتا إلى العاصمة السوفياتية وتسلم عملاؤها إشارات التفرق والاختفاء كما أتلفت معدات غريتا التجسسية. وعندما أغار الحلفاء على متجر الهدايا لم يجدوا أية أدلة توحي بأنه استعمل للتجسس. ولولا اختفاء غريتا لما ظهر أي سبب للاعتقاد بأنها كانت جاسوسة.

ولا أحد يعرف أين تعمل الآن وبأية هوية.

فاليري بليم(*)

(Valeri Bleem)

(-   )

هي زوجة السفير الأميركي إلى النيجر وعميلة للسي.آي.إي!

في 23/ 7/ 2003 نشرت صحيفة «أريزونا ديلي ستار» الأميركية نبأ يحمل عنوان: «ما كان ينبغي للبيت الأبيض الكشف عن عميل سري للسي.آي.إي هو زوجة سفير أميركي». وطالبت الصحيفة في صفحة الرأي الخاصة بها الكونغرس بالحصول على توضيح من البيت الأبيض عن هذا الخطأ الفادح.

فالسفير جوزيف ويلسون الرابع تبين من تصريح بعض المسؤولين في البيت الأبيض بموجب ما تقول الصحيفة المذكورة إن زوجته التي رافقته في مهمة خاصة إلى النيجر في إفريقيا كانت مكلفة بمهمة من السي.آي.إي هناك. ففي شباط (فبراير) 2002 وفي غضون تحضيرات [جورج] بوش [الإبن] لمبررات غزو العراق واتهام [الرئيس العراقي] صدام [حسين] بامتلاك أسلحة نووية، اختارت وكالة

(*) **المرجع**: «المحرر العربي». العدد (407). 1 ـ 7 آب 2003. ص19.
وأيضاً: مقال نشر في «هيرالد تريبيون» بتاريخ 13/ 10/ 2003، وقد ترجمته جريدة «المستقبل» (اللبنانية) بتاريخ 18/ 10/ 2003. ص19.

المخابرات الأميركية المركزية (السي.آي.إي) السفير ويلسون للقيام بمهمة في النيجر والحصول على ما يؤكد سعي صدام لشراء يورانيوم من تلك البلاد وبشكل سري. وكان مسؤولان في البيت الأبيض قد كشفا أن ويلسون اختير لهذه المهمة الديبلوماسية كغطاء يوفر لزوجته التي تعمل مسؤولة في السي.آي.إي في شؤون تعقب تهريب الأسلحة النووية والطاقة النووية وجلب المعلومات عن هذه المسألة من النيجر.

وفي النظام الداخلي في البيت الأبيض يحظر الرئيس على أي من الموظفين معه بالكشف عن عمل سري يقوم به فرد آخر. وهناك من يرى أن الكشف عن مهمة وعمل زوجة السفير ويلسون هدفه إيقاف عملها في السي.آي.إي لأن زوجها لم يتعاون جيداً مع رغبة البيت الأبيض في تأكيد وجود صلة بين صدام والنيجر للحصول على اليورانيوم وإعداد السلاح النووي.

فقد صرح ويلسون بعد عودته من تلك المهمة مع زوجته أنه يشك كثيراً في وجود صلة تورط صدام بالسعي لامتلاك سلاح نووي من خلال موضوع النيجر. وقد أعد تقريراً بنفس هذا المضمون، مخالفاً نوايا ورغبة المسؤولين في البيت الأبيض التي تهدف إلى توريط صدام وزيادة خلق المبررات لشن الحرب عليه.

وحين نشر ويلسون تحليلاً في حزيران الماضي (يونيو) 2003 حول موضوع النيجر وعدم وجود ما يثبت سعي صدام للحصول على اليورانيوم من هناك في صحيفة «نيويورك تايمز» و «واشنطن بوست» غضب منه مسؤولون في البيت الأبيض؛ لأن ذلك يعرض بوش للمزيد من الانتقادات حول مبررات حرب العراق. وتقول الصحيفة الأميركية إن هذا الغضب وصل إلى حد تسريب اثنين من المسؤولين في البيت

الأبيض معلومات تتعلق بزوجة ويلسون وعملها في السي.آي.إي لأحد كبار الصحفيين الأميركيين بوب نوفاك.

فقد نشر نوفاك هذا النبأ وقال إن السيدة فاليري بليم زوجة ويلسون هي من كبار ضباط السي.آي.إي في قسم متابعة أسلحة الدمار الشامل وأن هذين المسؤولين في البيت الأبيض قالا له إنها هي التي اقترحت إرسال زوجها في مهمة ديبلوماسية إلى النيجر للتحقيق في موضوع شراء العراق (يورانيوم) من النيجر. ومع ذلك، لم يعترف ويلسون علناً حتى الآن أن زوجته مسؤولة في السي.آي.إي لكي لا يؤكد الأخطار عليها، لكنه قال لصحيفة «ذي نيشين» الأميركية: «إن الكشف عن هويتها بهذا الشكل سيعرقل كل عملية وعلاقة وشبكة ارتبطت بعملها ومهمتها».

وكانت محاولة التزييف الأميركية مع النيجر واضحة من أجل توريط العراق بالسعي لامتلاك سلاح نووي قد تحولت إلى قضية تمس مصداقية بوش و (السي.آي.إي) منذ بداية تموز (يوليو) 2003 الماضي. وهذا ما دفع عدداً من المسؤولين السابقين في السي.آي.إي إلى رفع «مذكرة» إلى الرئيس بوش يطالبون فيها بمحاكمة ديك تشيني نائب الرئيس وبعض المتورطين الآخرين في السي.آي.إي في التلفيق والتزييف.

ففي 14/ 7/ 2003 نشرت مجلة «كاونتر بانش» الإلكترونية نص المذكرة التي جاء فيها: «لقد أصبح الجميع الآن على اطلاع بمسرحية متعددة الفصول حول زيف الإدعاء بسعي العراق إلى شراء اليورانيوم من النيجر وتزايد المشاكل المترتبة عن هذا الزيف.

وإن المسؤولين الكبار في إدارتك أيها الرئيس يعملون الآن على

تغطية كل منهم للآخر وعلى طعن كل واحد للآخر في الخلف بدلاً من معالجة تلك المشاكل. والمقطع الذي يتحدث فيه مدير السي.آي.إي جورج تينيت بصيغة الرجل الذي يعتقد دون أن يقدم اعتذاراً يشير إلى اعترافه بأن المسؤول عن ذلك التزيف هو كوندوليزا رايس مستشارة الأمن القومي. فمن الواضح الآن أن السيدة رايس التي تشرف على أقسام في الشؤون الخارجية، وليس تينيت، هي المسؤولة عن تأليف المعلومات المزيفة.

والسيدة رايس لا تستطيع الإلحاح على أنها لم تعرف بمهمة السفير ويلسون وزوجته إلا في 8 حزيران (يونيو) 2003 لأن نتائج زيارة ويلسون إلى النيجر وصلتها وعرفت أنها لا تفي بالغرض. وإذا لم تقرأ تقرير ويلسون في آذار (مارس) عام 2002، فلا بد أن مقالة نشرها نيكولاس كريستوف في «نيويورك تايمز» في أيار (مايو) عن مهمة ويلسون لم تفتها لأن الجميع تحدث بقصة ويلسون.

إن نكران السيدة رايس يذكرنا بما زعمته في ربيع عام 2002 حين نفت وجود تقارير تشير إلى قيام منظمة القاعدة بالتخطيط لخطف طائرات وتفجيرها في مبان مهمة وهو التفجير الذي حدث في 11 أيلول (سبتمبر) 2001. وذكرت التقارير بعد وقوعه أن معلومات عدة وصلت إلى أجهزة الأمن الأميركية والمسؤولين تفيد عن وجود تلك التقارير. وفي يومنا هذا تزداد الدلائل في قضية السفير ويلسون على أن مكتب نائب الرئيس الأميركي ديك تشيني هو الذي أرسله إلى النيجر، وأن نتائج زيارته التي لم تتفق مع رغبات المسؤولين في الإدارة اطلع عليها الكثير منهم.

إن إهانة كبيرة جرى توجيهها للعمل المخاباراتي ووحدته حين

أعلن تشيني في 26/ 8/ 2002 أن صدام استأنف جهوده للحصول على أسلحة نووية وحين تبعه مكتب «التقدير المخابراتي القومي» (إن آي.إي) بنفس التقدير في أيلول (سبتمبر) عام 2002 ليؤكد رغبة تشيني. ولعل هذا ما يفسر هدف زيارة تشيني التي تكررت إلى مقر السي.آي.إي في ذلك الوقت وممارسة ضغوطه على المسؤولين في المخابرات لإصدار تقارير تتفق مع تصريحاته ورغبته. ألم يقف تشيني في مقابلة مع قناة (إن بي.سي) أمام الملايين ليقول إن «العراق بدأ يعيد بناء أسلحة نووية»؟ وعلى النقيض من تشيني وتقارير مكتب «التقدير المخابراتي القومي» كان معظم المحللين المطلعين في المخابرات يصدرون حكمهم بأن ما يعلنه تشيني وغيره من دلائل لا تفي بالحقيقة وثبتت بالتالي صحة قرارهم».

وتوجه هؤلاء المسؤولون السابقون في أجهزة المخابرات الأميركية إلى الرئيس بوش بالتوصيات التالية:

أولاً: إننا نوصي بوقف فوري لجميع المحاولات التي تبذل لتبرئة ديك تشيني من المسؤولية ونوصي بإصرار على إقالة تشيني من منصبه فوراً.

ثانياً: إننا نوصي بدعوة المراقبين التابعين للأمم المتحدة للعودة إلى العراق فوراً. وهذه الخطوة ستكون الأولى في طريق طويل لاستعادة الثقة بك كرئيس للولايات المتحدة.

ومع انتهاء صيغة المذكرة حتى هذا الحد، ظهر جلياً لعدد من المسؤولين السابقين في المخابرات الأميركية أن هناك محاولة حثيثة من المخابرات لتبرئة دور تشيني في التزييف ودفع المخابرات إلى تلفيق التقارير التي تصب في خدمة مخطط احتلال العراق تحت أي

مبرر أو حجة ممكنة. ففي الأسبوع الأول من تموز (يوليو) 2003 ظهرت مؤشرات واضحة من آري فلايشر الناطق باسم البيت الأبيض حين أراد القول بأن نائب الرئيس بريء، ثم جاء من بعده جورج تينيت مدير السي.آي.إي ليعلن أن تشيني بريء من محاولات التزييف مع أن الدلائل كافة التي تلاحظ حتى الآن تشير حقاً إلى دور رئيسي ومركزي قام به تشيني لخلق مبررات مزيفة ضد العراق.

وتقول مذكرة المسؤولين السابقين في المخابرات الأميركية إن فضيحة ووترغيت التي تورط فيها نيكسون تكاد لا ترقى إلى فصل واحد من فصول مسرحية فضيحة تشيني ورايس وتينيت الذي يعد الآن له دور كبش الفداء والإسفنجة التي سيتعين عليها امتصاص قاذورات جميع المتورطين.

في هذا الإطار، يؤكد الباحث الأميركي نيكولاس كريستوف قائلاً، تحت عنوان «أسرار فضيحة جاسوس» أنه مثل كل قصص الجواسيس، فإن قصة فاليري بلايم ويلسون، أكثر تعقيداً مما قد يبدو على السطح. أنا أعرف السيدة ويلسون، لكنني ما كنت أعرف شيئاً عن عملها في وكالة المخابرات المركزية. كما لم أكن أعرف أنها ناجحة جداً في عملها، وكانت كذلك منذ وقت طويل، كما ذكر أحد رفاقها في الصف. وسأظل دقيقاً وحذراً في الحديث عنها، فقد قيل لي إنها خبيرة في صنع المتفجرات ورميها، كما قيل إنها نفذت عمليات سرية في بقاع شتى من العالم، بين الأكثر بؤساً وقذارة. وما كانت مصدراً من مصادر هذا العمود.

ستبقى العمليات التي قادتها سرية طبعاً. لكن يمكن قول بعض الأشياء، دون الإضرار أو المخاطرة بحياة أحد. وتقوم وكالة

المخابرات المركزية الآن، ببحث مدى الضرر الذي أوقعه الكشف عن هويتها، وما هي المراكز التي ينبغي إقفالها بنتيجة ذلك. وفي حين بالغ الديمقراطيون في ما ذكروه عن تأثير ذلك على الأسرة، وعلى الحياة الشخصية، والعمل والمستقبل، بالغ الجمهوريون في الاستخفاف بالضرر النازل، وبالأعمال المعطلة. لكن دعونا نذكر بعض الحقائق الثابتة.

أولاً: تشكّ الـ CIA في أن يكون ألدريش أميس هو الذي أعطى اسم ويلسون للروس، قبل القبض عليه سنة 1994. وهكذا فإن سرية عملها كانت مكشوفة منذ وقت طويل، وأعيدت من أجل ذلك للولايات المتحدة.

ثانياً: عندما بدأ صعود السيدة ويلسون في وكالة المخابرات، كانت تتحول من العمليات السرية إلى العمليات الإدارية، وللتنسيق بين مختلف فروع الوكالة. وقبل كشف اسمها بقليل مثلاً كان يجري نقلها من فرع «التظاهر» بأنها سيدة أعمال مثلاً، إلى الخدمة الديبلوماسية، حيث تمارس العمل الاستخباري دون أن يُقال عنها إنها عاملة في الوكالة.

ثالثاً: في السنوات الأخيرة، صار عمل مدام ويلسون معروفاً في بعض الدوائر بواشنطن، وبخاصة بعد أن ظهرت كديبلوماسية. نعم عرف أنها من الوكالة، لكن لا أحد يعرف ماذا تعمل بالضبط فيها. ولذلك سميت من جانب الزملاء فاليري ب.، حتى إذا انكشف الاسم يبقى الضرر محدوداً.

وهكذا، فإن مزاعم الديمقراطيين المبالغ فيها عن أن كشف اسمها وعملها يعني تدمير حياتها الشخصية والمهنية، أمور مبالغ فيها

فحتى أيامها في الغرف الخلفية في السفارات في بيروت والجزائر، قد انقضت، وإذا كان الديمقراطيون قد بالغوا في المسألة؛ فإن الجمهوريين حاولوا، لأسباب سياسية أيضاً، التخفيف من أهميتها بطريقة لا يمكن قبولها. فكشف الاسم والعمل أساء إلى كل العمليات التي كان اسمها فيها. فالمصادر التي تزوّد بالمعلومات دون أن تعرف مع من تتعامل بالضبط، تعرف الآن هوية بلايم، كما أن الجواسيس الحقيقيين سيخافون ويختفون.

إن موظفي وكالة المخابرات شديدو الغضب على أولئك المسربين المتعمدين، والذي يدعو للأسى أنهم من الإدارة. ولاري جونسون، الذي دخل إلى المخابرات مع فاليري، جمهوري صوّت لبوش الابن، لكنه الآن شديد الغضب ـ وهو محق في ذلك ـ بحيث يقارن الذين كشفوا هوية جونسون، بـ ألدريش اميس وروبرت هانسن. ويقول جونسون الزوج: هذه امرأة وضعت روحها على كفها، وما كان عندها سلاح للدفاع عن نفسها في الأوقات الخطرة، بل الدرع الذي يحميها كان التنكر والاختفاء.

لقد كنا نحن أيضاً في الصحافة مخطئين، وأفكر هنا في أن أتجاوز التأدب المهني مع روبرت نوفاك، الذي ذهب إلى أن أحداً لن يصاب بأذى. نحن الصحفيين نعمل كثيراً بالخارج، وفي أماكن لا يتصور الذهاب إليها في الظروف العادية. وغالباً ما نعرف أثناء العمل أسماء العاملين بالمخابرات، لكن أحداً منا لا يفكر بإفشائها. ولذلك اعتبر كلام نوفاك لا يغتفر، وعليه أن يعتذر منه. وقد تركتنا هذه الحادثة في حالة تفكر شديد.

فان كريجير[*]
(Van Kriger)
(1944 -   )

هي جاسوسة ألمانية اغتالها الشاعر «مارسيل دومونسو». إذ لم يقتصر نشاط الشاعر «دومونسو» على قتل ميلاني كينان، بل تجاوزه إلى قتل جاسوسة أخرى هي السيدة فان كريجير، من «لوفان». فقد عرف في بروكسل عام 1944 أن هذه المرأة الألمانية الأصل تعمل لحساب «الغستابو» فتتوجه كل أسبوع إلى بروكسل، ومعها جدول بأسماء من يحظر لها الإيقاع بهم، وتعود منها وهي منتفخة الجيوب بالأوراق النقدية.

وعهد إلى الشاعر «دومونسو» بالتحقيق، حتى إذا توافرت لديه الأدلة قام بتسديد الحساب... وبعد ثمانية أيام قدم الشاعر الشاب إلى رفقائه، رجال المقاومة، تقريراً مفصلاً عن حياة السيدة «فان كريجير» وعن اشتباهه بعلاقتها مع الألمان، ولكنه لن يسدد حسابها إلا ساعة يقبض على الأدلة الحسية القاطعة. فقال له رفقاؤه:

- إنك لعلى صواب يا مارسيل!

(*) **المرجع**: موريس برانس «الجاسوسات الفاتنات». ترجمة جهاد قلعجي. ص54 - 57.

ـ ولن أستطيع القبض على هذه الأدلة إلا إذا كان لدي صباح الاثنين سيارة وستة من الرفقاء المسلحين!

ـ لك ما تريد!

وفي الساعة الثامنة من صباح الاثنين كان «دومونسو» ينهب الأرض على متن سيارته في طريق «تيرفوران» ويشرح لرفقائه الخطة المرسومة ويزودهم بالتعليمات اللازمة.

وكانت السيارة قد اتخذت طريق «لوفان» وما أن صارت على مسافة من «المتحف الاستعماري» حتى وجد «دومونسو» موضعاً ملائماً لتنفيذ خطته فأوقف سيارته على الخط الذي يمر عليه القطار، وقفز منها ليرفع غطاءها ويرتمي تحتها كأنه يصلح خللاً طرأ عليها.. وما كاد يفعل هذا حتى كان قطار «لوفان» قد أقبل وكان سائقه يقرع قرعاً مستمراً لينذر السيارة بالابتعاد عن طريقه، وإذ لم تتحرك السيارة من موضعها اضطر إلى إيقاف قطاره على قيد مترين منها.

وقبل أن يشرع سائق القطار بقذف سائق السيارة ببعض الشتائم والاحتجاجات لاعتراضه طريق قطاره، كان خمسة من الرجال المدججين بالسلاح يقفون على جانبي القطار ثم يقتحمه أحدهم ويصيح بركابه: ارفعوا أيديكم!..

وكان ثلاثة من الجنود الألمان أول من لبى هذا النداء.

ولم يلبث «دومونسو» أن دخل القطار وراح ينزع السلاح من الركاب ويرميه إلى الخارج، وأخذت امرأة تولول فدعاها «دومونسو» بصوته العذب وبكلام لطيف إلى السكوت فسكتت. وعندما هدأ روعها هتف قائلاً:

ـ هل السيدة «فان كريجير» في هذا القطار؟

فلم يسمع لسؤاله جواباً وأخذ الركاب ينظر بعضهم إلى بعض بقلق واضطراب، أما الألمان فقد تولاهم الذهول. .

وعاد صوت «دومونسو» يدوي قائلاً:

ـ إنني أسأل عن السيدة «فان كريجير»!

وظل الصمت مخيماً ولم يلق جواباً!

وعاد «دومونسو» يقول:

ـ ألا تود السيدة «فان كريجير» أن تتكرم عليّ بالجواب؟!

ودنا حينئذ، من سيدة جميلة غارقة في ثوب من «الساتان» الأسود وقال لها:

ـ عفواً يا سيدتي! . . ألست أنت السيدة «فان كريجير؟».

وانقلب وجه السيدة من الاحمرار الشديد إلى الاصفرار الشديد حتى بات كوجوه الموتى. .

ومد «دومونسو» يده ليتناول حقيبتها وهو يبتسم لها ويستأذنها في الاستيلاء على هذه الحقيبة. .

وبعد أن فتش ما فيها تفتيشاً خاطفاً قال لصاحبتها:

ـ أليست هذه تذكرة هويتك؟ . . إذن، أنت بلا ريب، السيدة «فان كريجير»، وإذن، فأنا لست مخطئاً. . وبعد، فهل لك أن تخبريني عن سبب ذهابك كل يوم اثنين إلى بروكسل؟

وتولى السيدة خوف شديد ولم تحر جواباً. .

فاستطرد «دومونسو» يقول:

ـ أنت يا سيدتي في خدمة الألمان، وأنت تحملين إلى «الغستابو»، كل أسبوع جدولاً بأسماء ضحاياك. . أليس كذلك يا سيدتي؟!.

وحاولت السيدة أن تبدي إشارة نكران وعرضت عليه وعلى الركاب حقيبتها.

فقال لها «دومونسو»:

ـ ولكن جدول ضحاياك ليس في حقيبتك بل هو في صدرك، فأنا عندما دخلت هذا القطار وناديتك باسمك للمرة الأولى رأيتك تمدين يدك إلى صدرك لتطمئني إلى أن «جدولك» ما زال في موضعه، فافتحي هذا الصدر لنرى ما خبأت فيه!.

وكان «دومونسو» والابتسامة لا تفارق شفتيه، يقبض بيمينه على مسدس، فمد يسراه إلى صدر السيدة وفك أزرار قميصها ثم أزرار حاملة نهديها وهي من «الساتان» الأسود أيضاً، فإذا في داخلها كيس صغير من قماش مثبت بالدبابيس، وقد شاهده جميع الركاب!

وسرعان ما انتزع «دومونسو» هذا الكيس الصغير وفتحه فإذا هو يحتوي على جداول بأسماء الذين يراقبون الراديو، وبأسماء أعداء ألمانيا الذين تجب مراقبتهم كما يحتوي على مذكرات شخصية بأسماء من يجب نفيهم ومن يجب توقيفهم، وبلغ مجموع هذه الأسماء أربعة عشر اسماً!.

وعندئذ قال لها «دومونسو»:

ـ لو بلغت هذه الأوراق بروكسل لكانت أربع عشرة أسرة من الأسر البلجيكية تلاحق منذ هذا المساء أو منذ صباح الغد وينكل بها

وتشرد بسببك أيتها السيدة «فان كريجير» كما جرت العادة في كل أسبوع. انهضي واتبعيني أيتها السيدة!

وتبعته السيدة «فان كريجير» وما كادت تترجل من القطار حتى كانت رصاصتان صامتتان تستقران في صدرها!

وأفسحت سيارة «دومونسو» الطريق للقطار، فمر، وسارت السيارة في سبيلها، ولم يبق في ذلك الموضع سوى جثة الجاسوسة الحسناء.

فرو شارلوت ويللباش(*)

(Fro Charlotte Willbach)

(- 1887)

هي إحدى أشهر جواسيس الألمان الشرقيين ضد مخابرات ألمانيا الغربية وحلفائها. حيث كان الفندق الذي تقطنه مركزاً هاماً وحساساً للنشاط المخابراتي التجسسي، باعتبار أن فرو هذه كانت من أهم وأكفأ عملاء موسكو في الخارج، إلى أن اكتشف أحد عملاء غيهلن الأمر.

إذ كان الشاب يقف على بعد قليل من نافذة غرفته في فندق «هامس» في باد غودسبرغ؛ تلك المدينة الصغيرة التي تقع في ضاحية من ضواحي بون، يراقب صاحبة الفندق تغادر فندقها متظاهرة بأنها تذهب لتأمين مشترياتها، وانتظرها حتى اختفت عن بصره فهبط السلم بسرعة إلى الطابق الأول حيث دخل إلى إحدى الغرف، وعلق على الباب تحذيراً كتب عليه: يرجى عدم الإزعاج. وأغلق الباب بهدوء ثم ارتجه بالمفتاح، وقضى نصف الساعة التي تلت ذلك وهو يعمل بسرعة، لكن وفق أسلوب دقيق.

(*) **المرجع**: كيرت سنجر «أعلام الجاسوسية العالمية». مرجع سابق. ص181 - 193. وصلاح نصر «الحرب الخفية...». ص189 - 190.

ولكي يبدأ الشاب عمله، قام بفحص الأثاث كله دون استثناء: الدواليب الصغيرة، طاولة الزينة، المغسلة، الدولاب الكبير ذو الباب المزدوج، الأسرّة، وقام بفتح الجرارات، وضرب على أطراف الأثاث وجوفه ليتأكد من عدم وجود مخابىء سرية، كما تلمس ظهر الأثاث بأصابعه الطويلة ولكنه لم يتمكن من اكتشاف أي شيء. ولذا قام فركز انتباهه على الستائر المرتفعة الثقيلة المعلقة على جوانب النوافذ. وهنا أيضاً لم يعثر على ما يثير شبهاته. وعندئذ توقف لبرهة قصيرة في وسط الغرفة عاضاً على شفتيه وهو ينظر بانتباه إلى كل ما حوله. وفجأة تعلقت نظراته الثاقبة فوق حاملة الثياب الثقيلة المصنوعة من الخيزران، إذ لاحظ أنها غير متوازية مع الجدار، وأن أحد أطرافها يبتعد عنه قليلاً بمقدار ثلاثة سنتيمترات تقريباً. وكان هذا المنظر مما يسترعي انتباه المراقب الفضولي. فعمد إلى استخدام كامل قوته لكي يتمكن من زحزحة هذه القطعة من الأثاث عن موضعها بحيث أصبح قادراً على الانزلاق من خلفها. واستلفت نظره وجود ثقب في الجدار بحجم قطعة النقود العادية وعلى ارتفاع قامة الرجل العادي. وكان من الصعب اكتشاف هذا الثقب ضمن الجدار المغطى بطبقة من أوراق الزينة التي تحمل رسوم الورود والزهور، فأدخل ضمن الثقب رأس حاملة مفاتيحه التي اصطدمت بجسم صلب ولكنه مرن. وعندئذ أخرج سكينه وقطع بعناية جزءاً من الورق وبذلك تمكن من اكتشاف لاقطة صغيرة (ميكروفون) بعد أن وضعت بعناية بحيث تستطيع التقاط أية محادثة تتم في الغرفة.

وكان لهذا الاكتشاف أثره في تأكيد الشكوك التي كانت تحوم منذ زمن طويل حول هذا الفندق الذي يحمل في ظاهره البراءة، والذي كان يتردد عليه الكثير من موظفي الدول الأجنبية، وبصورة

خاصة من الإنكليز والأميركيين. ولكنه كان في واقعه مركزاً للتنصت والجاسوسية. ولا شك أن عدداً من الأسرار قد تسرب بدون إرادة أصحابها من نزلاء هذا الفندق الذين كانوا يجهلون وجود الأذن المختفية خلف حاملة الثياب، ولذلك كانوا يتكلمون وهم يعتقدون بأنهم يتمتعون بحرية كاملة.

وابتسم الشاب وهو يدفع الأثاث ويعيده إلى وضعه السابق، فلقد كان هذا الاكتشاف بالنسبة إليه نصراً سيحمله إلى رئيسه **رينهارد غيهلن** وهزيمة جديدة يحملها على خصمه الكبير أرنست ويللوبير.

إن ألمانيا اليوم تعيش في موقد محتدم للجاسوسية بين الشيوعيين والمضادين للشيوعية.

ويبدو أن عدد شبكات الجاسوسية التي تعمل في المدينة المجزأة برلين لا يقل عن ثمانية وعشرين شبكة، وهناك عدد ضخم من الرجال والنساء شملتهم هذه العمليات التي لم يقتصر مسرحها على أوروبا وحدها بل تعداها إلى أميركا غرباً، وإلى روسيا والصين شرقاً. فمنذ سبعة أعوام وكل من غيلهن وويللوبير يعملان على تنظيم هذا النضال المروع، وكل منهما يعمل على توجيه منظماته القوية بذكاء وعناد مما جعل منهما قادة للجواسيس للدفاع كل عما يؤمن به.

وكانت **فرو شارلوت ويللباش** إحدى الأدوات التي استخدمها ويللوبير في أغراضه، كما كانت أكفأ وأقدر عملاء موسكو في الخارج، وقد اكتشف السوفيات هذه الجوهرة في شهر آذار (مارس) عام 1956. وهي أرملة تبلغ من العمر تسعة وستين عاماً. كانت قد افتتحت فندقها بعد الحرب بقليل في باد غودسبرغ. وكان الفندق يتميز بالراحة التي يؤمنها لنزلائه، وببساطته، وغرفه المتسعة، وموقعه

الجميل. وبما أنه يقع في حدود عاصمة ألمانيا الغربية فقد أصبح بسرعة الملتقى الرسمي لرجال البعثات الديبلوماسية والشخصيات الأجنبية القادمة من ألمانيا. وكانت فرو ويللباش فخورة جداً وهي تسجل في سجل الفندق لائحة بأسماء الشخصيات المرموقة.

وفي ذات يوم تقدم إليها رجل متظاهراً أنه لاجىء من المنطقة الشرقية وطلب منها تأجيره غرفة. وكان ذلك اليوم بارداً ومكفهراً: الرياح تعصف بشدة والسماء المغطاة بالغيوم الكثيفة تحجب ضياء الشمس إلا قليلاً وتنذر بالانفجار. وكان يبدو على هذا اللاجىء أنه يحتاج فعلاً للدفء والراحة. ولذا لم تتردد فرو ويللباش تلك السيدة الرقيقة والمحبوبة من وضع غرفة تحت تصرفه.

أما هذا الزائر فلم يكن في الواقع لاجئاً، بل كان اسمه **غيهرار رولر** وهو أحد عملاء رئيس جاسوسية ألمانيا الشرقية ويللوبير. وبعد أن أجرى هذا النزيل عدداً من المحادثات مع صاحبة الفندق طلب إليها فيما إذا كانت ترغب بكسب مبلغ إضافي من النقود بدون أن تبذل جهداً مذكوراً لقاء ذلك. وذهلت فرو ويللباش لهذا العرض الذي يهدف إلى وضع لاقطات (ميكروفونات) سرية في الغرف التي يتم اشغالها بصورة رئيسية من قبل الضباط الأجانب، ويتم إيصال هذه الميكروفونات إلى أجهزة تسجيل توضع في السقيفة.

وكان الهر رولر يتكلم بهدوء، ولكن بتصميم وحزم وهو يقول لها: إنك بعملك هذا تؤدين خدمة للإنسانية، كما أن الدور الذي ستقومين به بسيط جداً، وما عليك إلا أن تسحبي أشرطة التسجيل من جهاز التسجيل وتضعيها في علبة أغذية محفوظة «كونسروة»، ثم تضعين هذه العلب في السلة التي تجلبين فيها تموينك، وتنقليها إلى

عنوان يبعد عن هنا مسافة ساعة بالقطار، وهناك تعملين على تسليمها إلى أحد الرجال الذي يعطيك كلمة السر، وسيعطى هذا الرمز إليك في الوقت المناسب.

ودمدمت فرو ويللباش: وإذا رفضت التعاون مع مشروعكم؟.

وعندها سألها الهر رولر وهو يهز كتفيه ويعض على شفتيه:

ـ وهل تريدين أن يقع لك أية مصيبة، لك أو لفندقك؟...

وبذلك أصبحت صاحبة الفندق «هامس» العجوز إحدى أحجار اللعبة الوحشية المتسعة الأبعاد.

ومر كل شيء على ما يرام خلال فترة من الوقت، بعد أن تم وضع الأجهزة اللاقطة في مواضع سرية، واستمر نزول رجال السلك السياسي والشخصيات الهامة في فندق باد غودسبرغ المريح، كما استمر بذلك التقاط الأحاديث السرية للغاية التي تدور بين النزلاء الذين يعتقدون أنهم يتمتعون ظاهرياً بجو من الأمن وهم بعيدون عن الآذان المشبوهة. وكانت فرو ويللباش تذهب بانتظام في كل أسبوع وهي تحمل سلتها إلى مكان الموعد المضروب لتقوم بتسليم علب المحفوظات إلى أحد رجال ويللوبير، وتتلقى بالمقابل مبلغاً جيداً من الماركات الألمانية. وتصل الأشرطة إلى مقرها حيث يجلس أرنست ويللوبير ليصغي بانتباه إلى أشرطة تسجيل فرو ويللباش وهو جالس في مكتبه المتسع الأرجاء الواقع في أحد الأبنية التي تقوم عناصر من الشرطة السرية على حراستها حراسة دقيقة في نورمانستراس في برلين الشرقية، وكان كلما أدار شريطاً جديداً كلما زاد التماع عينيه رضى وغبطة.

ولنعد بعد ذلك إلى غيهلن. فبعد أن نجح مخططه الصغير نراه

وهو يتساءل كم هو رهيب ذلك الأمر لو عرف نزلاء فندق «هامس» بأن أية كلمة يقولونها وأن أية محادثة سرية يتبادلون النقاش فيها ستنتقل بصورة دقيقة إلى رئيس جاسوسية ألمانيا الشرقية، وبوضوح تام كما لو كان معهم في كل حديث... ثم ترى من كان يظن بهذه العجوز فرو ويللباش بأن تكون واحدة من جواسيس هذه المنظمة؟.. لقد تغير فعلاً ميزان القيم في جو هذه المبارزة المسعورة لأعمال الجاسوسية الحديثة. ففي هذه الأيام تصبح سيدة من طراز فرو ويللباش، أكثر أمناً لمزاولة أعمال الجاسوسية، ذلك أنها لا تثير تلك الشكوك التي تثيرها فتاة جميلة وفضولية عندما تدخل في حديث ما مع أحد الرجال أثناء حفلة كوكتيل أو في مشرب لأحد الملاهي.

في هذه الأثناء لم تكن فرو ويللباش بعيدة بصورة نهائية عن مراقبة الأنظار، ذلك أن أحد المخبرين اليقظين الذي كان يرغب في زيادة رصيده في البنك، قرر أن يتدخل في الأمر، فقام بزيارة إلى الهر غيهلن مخبراً إياه أنه على ثقة من أن السيدة العجوز تقوم بنقل المعلومات التي تتمكن من الحصول عليها، وهي على مقربة من كبار الشخصيات المختلفة من نزلاء فندقها، إلى المنطقة الشرقية.

وسأله الهر غيهلن وهو مقطب جبينه الأجعد بينما كان فمه الدقيق متصلباً وظهره محنياً بهيئة غريبة: وكيف ذلك؟...

وعندئذ أجابه المخبر وهو يهز رأسه: إنني لا أستطيع أن أقول لك كيف يتم ذلك لأنني أجهله. إن كل ما أعرفه هو أن فرو ويللباش تقوم بنقل تقارير منتظمة إلى الجهة الأخرى، وأنها لا تقوم بذلك مجاناً يا هر غيهلن.

ودفع رينهارد غيهلن بكرسيه وبدأ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً إلى

أن قال: سنكتشف ذلك. . . سننتهي إلى معرفة تلك اللعبة التي تتسلى بها هذه العجوز.

شكراً.

واستمر غيهلن يذرع غرفته جيئة وذهاباً بعد أن خرج ذلك الزائر، واضعاً يديه في جيبه، حانياً رأسه الأشقر إلى الأمام، مستغرقاً في تأمل عميق. وكان بإمكان من يراه، وهو على هذه الصورة دون أن يعرفه، أن يتخيل أن هذا الرجل الأنيق، الذي تشبه أذناه أذنَي كلارك غيبل أستاذاً في الجامعة، أو مزارعاً ألمانياً، مستغرقاً في إيجاد حل لمشكلة مستعصية.

ولكنه لن يتخيل أن هذا الرأس قد وضع ثمناً له مبلغ مليون مارك قام بوضعها قرينه في ألمانيا الشرقية.

كان غيهلن أثناء الحرب العالمية الثانية مديراً وموجهاً للمنظمات السرية النازية التي تعمل في روسيا وأوروبا الشرقية. وفي عام 1945، كان قد أصبح برتبة فريق وبعد أن اندحرت جيوش هتلر، فر غيهلن إلى الغرب حاملاً معه إضباراته السرية ووثائقه التي تمكن من إخفائها في جبال الألب البافارية. ثم سقطت ألمانيا بعدئذ بفترة وجيزة وألقي القبض عليه ثم أدركوا أهمية هذا السجين ذو الرتبة الرفيعة والخبرة العالية التي كانت تتجاوز في حدودها أية خبرة أخرى، ولاسيما في الاستجواب والاستجواب المعاكس، فقاموا بنقله على متن إحدى الطائرات إلى واشنطن، لإجراء محادثات سرية مع خبراء منظمات الاستخبارات الأميركية، ليعود بعدها إلى ألمانيا مزوداً بأمر لتشكيل وتنظيم الشبكات الجاسوسية التي تشرف عليها أميركا.

وأصبحت منظمة غيهلن سلاحاً فعالاً لا يقدر بثمن في ميدان

الحرب الباردة الدائرة رحاها بين الشرق والغرب، وكانت كلما ازدادت أهمية هذه المنظمات الخاصة كلما ازداد دعم هذا الجهاز بالعناصر القوية، من قدامى النازيين، والمنظمات الخاصة ومنظمات هملر، وبعد أن تمّ استقلال ألمانيا الغربية في كانون الأول (ديسمبر) عام 1956، قام المستشار اديناور بتبني رينهارد غيهلن، ومنظماته بصورة رسمية، وقام وزير المالية في بون بتزويده بالمال بحيث أصبح اليوم لهذه الشبكة الجاسوسية القوية أعضاء وعملاء في كافة أنحاء العالم.

لقد كان غيهلن يعرف الكثير عن أساليب الجاسوسية لدى الشيوعيين، سواء كان في أساليب عمل شبكات التجسس أو في الأدوات المستخدمة، إذ أن كلا من الشبكات المتنافسة تستخدم نفس المعدات: من أجهزة راديو لاسلكي، أو الشيفرة السرية، أو الحبر السري، أو آلات التصوير الصغيرة، وكذلك كافة المعدات التالية لذلك. كما أن كلاً منهم يحاول التسرب إلى قلب شبكات الآخر مما كان يتطلب الكثير من الانتباه للجواسيس المزدوجين المقنعين، وبين هاتين الشبكتين المتنافستين في الحرب الرهيبة كان يتدفق سيل من المعلومات ثمنه حياة الكثيرين.

وجلس غيهلن من جديد على مقعده متكئاً برأسه على ساعديه ومفكراً في موضوع فرو ويللباش وعما تزاوله من نشاط فعال. وكان يقدر تماماً أهمية تلك الطبقة من نزلاء هذا الفندق ومكانتها، فتساءل ترى كيف تتمكن هذه السيدة من سرقة المعلومات من تلك الشخصيات المرموقة؟...

وإذن فليس هناك إلا حل واحد لإيجاد حل لهذا اللغز الغامض،

وهو وضع ذلك الفندق وتلك السيدة تحت مراقبة دقيقة جداً، ويقوم على هذه المراقبة خبراء مختصون. وكان غيهلن يستطيع إيجاد عدد من هؤلاء الرجال ذوي الخبرة والذكاء ممن يجيدون التصرف في مثل هذه المواقف.

وفي صباح اليوم التالي استدعى غيهلن إلى مكتبه الواقع في بولاش في إحدى ضواحي ميونيخ أحد خبرائه ممن يثق به ثقة كاملة، وكان شاباً دخل إلى منظمات الجاسوسية حباً في السيطرة. وقضى معه زهاء ساعة من الزمن بقياها وحدهما في ذلك المكتب. ولقد نتج عن الأحاديث التي دارت بينهما أن تقدم بعد ظهر أحد الأيام شاب يتراوح عمره بين الثلاثين والخامسة والثلاثين عاماً إلى فندق «هامس» في باد غودسبرغ طالباً تأجيره غرفة من غرف الفندق، وقص على فرو ويللباش بأنه الوكيل الجديد لمبيعات المنتجات الصيدلية التي تنتجها هامبورغ في هذا القطاع. ولكي يؤكد لها ذلك أعطاها الأوراق الثبوتية برهاناً على صحة أقواله. ومما قاله لها وهو يبتسم ابتسامة عذبة للسيدة العجوز:

ـ بعد أن عرفتك على وضعي، فإنني فضلت أن أتخذ من فندقكم المحترم عنواناً لإقامتي هنا وذلك خير لي من النزول في أحد النزل أو في فندق من فنادق الدرجة الثانية، وأريد أن تعتبريني مقيماً دائماً قدر المستطاع.

ولم يكن لدى فرو ويللباش أي سبب يدعوها للشك في أمر هذا القادم الجديد. فلقد كان أنيق المظهر، من أسرة عريقة على ما يبدو، كما أنه وعد باحتجاز الغرفة بشكل دائم وذلك بالتعرفة العادية. ولقد شجع ذلك صاحبة الفندق لكي تقدم له غرفة مريحة في آخر طابق وتحت السقيفة مباشرة.

وقام عميل غيهلن خلال أسبوع كامل بدراساته بشكل هادىء ولكنه لم يكتشف شيئاً، ذلك أن عدداً قليلاً من الأيام بقي له لكي يلتقي بموعد هام مع صاحبة الفندق... وأثناء ذلك كان قد ابتدأ بتقديم بعض الهدايا الصغيرة التي كانت عموماً إما روائح أو صابون معطر، مدعياً أن هذه الهدايا عبارة عن نماذج أنتجها المصنع الذي هو وكيل له، وأنها تقدم لتوزع كهدايا دعائية.

ووجدت فرو ويللباش نفسها تعامل برقة كبيرة هذا الوكيل العام، ولكن ذلك لم يمنعها من البقاء على حذر منه وعدم الثقة به، ذلك أنها لم تكن لتتكلم إلى أي إنسان عن نشاطها السري.

ولقد علم غيهلن أنه من المحتمل العثور على لاقطات للصوت قد تم إخفاؤها في الفندق، ذلك الأسلوب الذي كان هو نفسه قد طبقه في عدد من الأماكن الأخرى.

وعندئذ قام هذا العميل بإجراء تفتيش دقيق في غرفته، ولكن جهوده لم تؤت ثمارها إذ لم يتمكن من العثور على شيء. وكانت كل الظواهر حتى الآن تشير إلى نفي افتراض أن يكون هذا الفندق طعماً يستخدم ضمن شبكات تجسس ويللوبير.

وخلال الأسبوع الأول، وصلت شخصيتان من الشخصيات الحليفة المجاورة للمساهمة في محاضرات عسكرية في بون ونزلا في الفندق، وكانا يقضيان معظم الوقت في نقاش وتصفح للمذكرات التي تم أخذها أثناء جلسات المحاضرات. وفي الليلة الثالثة والأخيرة لإقامتهما، استيقظ عميل غيهلن فجأة على وقع خطوات في السقيفة الواقعة فوق غرفته مباشرة. وعند ذلك ألقى نظرة إلى ميناء ساعته فشاهد أن العقارب تشير إلى منتصف الليل. وعندئذ تساءل عن ذلك

العمل الاضطراري الذي يتم في السقيفة في مثل هذا الوقت من الليل، وبدون أن ينير الضوء في غرفته عمل على شق باب غرفته بمقدار ثلاثة إلى أربعة سنتيمترات، ومكث ينتظر. ولم يطل انتظاره إلا فترة قصيرة عندما شاهد فرو ويللباش تهبط السلم على رؤوس أصابعها، ولكن النور الباهت الذي كان ينير الممرات لم يسمح للمراقب بأن يميز ما كانت تحمله تلك السيدة بين يديها وهي تضمها إلى صدرها، فانتظرها حتى وصلت إلى البهو وصعد بهدوء درجات السلم الموصل إلى السقيفة محاولاً فتح بابها، ولكنه شاهد أن الباب أوصد بالمفتاح. عند ذلك استمر في تفتيشه الليلي دون أن يثير أية ضجة فهبط درجات السلم إلى أن وصل الصالة، وكان الضوء ساطعاً في غرفة الاستقبال الصغيرة، كما كان هو بدوره قد أعد إجابة مباشرة للرد على سؤال صاحبة الفندق فيما إذا لاحظته. ولكن الحظ استمر في جانبه فلم يكتشف أمره، كما أنه استخدم أحد القواطع الذي كان يحميه كما يؤمن له في ذات الوقت مركزاً ممتازاً للمراقبة يتمكن منه أن يرى من خلف زجاج باب المكتب كل ما يدور في الداخل وشاهد فرو ويللباش وهي منهمكة في فتح إحدى علب المحفوظات كونسروة الموضوعة على طاولة صغيرة وكان يوجد إلى جانب العلبة حجمين مستديرين عرفهما المراقب دون تردد بأنهما شريطين من أشرطة التسجيل.

فتحت فرو ويللباش غطاء العلبة، وأفرغت محتواها في إناء، ونظفت داخل العلبة ثم أدخلت أحد الأشرطة إلى جوف العلبة، وأعادت الغطاء إلى مكانه بعد أن أحكمت إغلاق الغطاء بواسطة شريط لاصق. وأعادت العملية مرة ثانية مع العلبة الثانية. ووضعت العلبتين بعد ذلك في دولابها الذي أغلقته بالمفتاح ثم أخذت الإناء

الذي أفرغت فيه محتوى العلبتين واختفت خلف أحد الأبواب المطلة على أحد الدهاليز والموصل إلى المطبخ.

لقد شاهد عميل غيهلن ما يكفي لكي يعرف كيف يستخدم فندق «هامس» كمركز للإصغاء والتنصت. لاقطات للصوت متصلة بجهاز للتسجيل قد تم وضعها وإخفاؤها في تلك الغرفة التي كان يقيم فيها كل من الشخصين الهامين لفترة من الوقت، والتي ينزل بها شخصيات هامة أخرى من وقت إلى وقت آخر. وكان على ما يشبه اليقين بأن أجهزة التسجيل قد وضعت في السقيفة. وإذن فالسر يكمن خلف ذلك الباب الذي أوصد وارتج بالمفتاح.

أما دور فرو ويللباش فيقتصر على إيصال هذه الأشرطة وتسليمها إلى أحد العملاء الشيوعيين، تلك الأشرطة التي تحمل كل الأحاديث المتبادلة بين النزلاء الذين يحتلون غرفة الطابق الأول. وليس هذا العمل بالعمل المعقد، أما علب المحفوظات فليست إلا تمويهاً لتأمين إيصال الأشرطة بصورة سليمة وأمينة إلى مكانها المطلوب.

ولم يبق أمام عميل غيهلن إلا أن يدخل إلى تلك الغرفة لاكتشاف اللاقطات التي يجب أن تكون مختفية في مكان ما. ولا شك بأن هذا العمل يتطلب الدقة ولكن مهما كلف بتنفيذ ذلك الأمر فيجب القيام بسرعة، ذلك أن رئيسه كان دقيقاً ويتطلب عدم اللجوء إلى أي عمل إلا بعد إيجاد البرهان والمبررات لهذا العمل.

ولقد سنحت الفرصة للحصول على هذا البرهان في اليوم التالي مباشرة، ذلك أن هذا العميل قد تظاهر بأنه قد أصيب بنوبة كبد حادة، وكان هذا الادعاء سبباً مبرراً لبقائه في الفندق، وبعد تناول النزلاء طعام الإفطار بقليل قام نزيلاً الغرفة بحزم أمتعتهما وتسديد حسابهما

مشفوعاً بكلمات الشكر لصاحبة الفندق لما لقياه من الراحة والخدمة أثناء إقامتهما في فندقها. وقال عميل غيهلن لصاحبة الفندق وقد تصادف وجوده على مقربة من مكتب الاستقبال في لحظة مغادرة الشخصيتين المرموقتين للفندق.

- ترى هل يقصدك الكثير من أمثال هؤلاء النزلاء؟...

وأجابته فرو ويللباش: عدد لا بأس به. وهناك اثنان من الشخصيات الهامة سيصلان بعد غد. إن فندقي كما تعلم يتمتع بسمعة جيدة.

ووجه العميل حديثه بحذر إلى مواضيع شخصية أخرى، فعلم بأن فرو ويللباش ترغب ظهر ذلك اليوم بزيارة صديقة مريضة تقيم في مدينة مجاورة. وعرضت عليه أن تحضر له ما قد يلزمه من الأدوية بعد إصابته بأزمة الكبد. وعندئذ أجابها: شكراً، لا تزعجي نفسك من أجلي. فلدي من الأدوية ما يناسبني.

بعد تناول طعام الغذاء بفترة قصيرة شاهد العميل صاحبة الفندق وهي تخرج لأداء مهمتها الخيرية. وكما صورت له شكوكه، فقد كانت تحمل في يدها سلة علب الطعام. كما أن الصديقة المريضة لم تكن إلا أحد عملاء ويللوبير الذي سيستلم منها أشرطة التسجيل للأحاديث التي دارت في الليلة الماضية.

ومر أسبوع آخر قبل أن تقع فرو ويللباش صاحبة فندق «هامس» بالفخ الذي كان منصوباً لها. فمن البديهي أنه يجب الصبر والانتظار حتى الرحلة التالية، هذا ما قاله غيهلن بعد أن استمع إلى التقرير الذي قدمه له عميله، واختتم حديثه بقوله: علينا بإلقاء القبض عليها وهي متلبسة بالجريمة.

كانت فرو ويللباش وفية لمواعيدها الأسبوعية، عندما غادرت بعد خمسة أيام فندقها للقيام بزيارة جديدة لصديقتها المريضة. ولكنها في هذه المرة لن تتمكن من الوصول إلى هدفها، فلقد كان يقوم على مراقبتها في محطة القطار عملاق طويل ذو سمات رياضية يرتدي قميصاً رياضياً، كما كان على ما يبدو مرتبكاً لحدوث خلل طارىء على عربته عندما تقدم منها قائلاً لها:

ـ فرو ويللباش؟.. لقد بعثوا بي كي أخبرك... لقد تم تغيير المخطط، وعليك بمرافقتي. ونظرت إليه المرأة العجوز بعين الشك.

ـ ماذا تريد أن تقول؟... أين يجب أن أذهب؟... من أنت؟... إنني لم أرك قبلاً. ولا أعرفك؟... وفتح ذلك الشاب باب عربته قائلاً لها:

ـ لا تكثري من الأسئلة. إنني قادم من طرف الهير ويللوبير واعملي ما أقوله لك. يجب عليك تنفيذ الأوامر.

وترددت فرو ويللباش خلال جزء من الثانية، ولكن جملة يجب عليك تنفيذ الأوامر أذهلتها وأربكتها، فصعدت أخيراً إلى العربة.

وبذلك انتهى دورها في احتراف الجاسوسية إذ اقتيدت إلى أحد المنازل في باد غودسبرغ، حيث عثر على علب المحفوظات في سلتها. وفتحت تلك العلب دون احتفال فاستخرج منها ثلاثة من الأشرطة. وانتهى بها الأمر لتقديم اعترافاتها الكاملة إلى ذلك الرجل ذو الوجه الصارم وهو أحد معاوني رينهارد غيهلن الرئيسيين والذي أسند إليه أمر استجوابها، وصدر الأمر باعتقالها بتهمة السماح للعملاء السريين لألمانيا الشرقية بالتجسس على الديبلوماسيين الذين كانوا ينزلون في فندقها. وفي ذات الوقت كانت زمرة من المخبرين المرتدين

للبزات المدنية يعملون في تفتيش فندق «هامس»، من السقف حتى البهو. وتم العثور على لاقطات الصوت التي تم وضعها بعناية وإخفاؤها في كل الغرف الرئيسية. كما أنهم لم يبذلوا جهداً كبيراً في سبيل العثور على أجهزة التسجيل الموضوعة في السقيفة التي كان يمكن إيصال اللاقطات بها بسهولة.

وانعقدت المحكمة للنظر في قضية فرو شارلوت ويللباش في شهر تشرين الأول (أكتوبر) عام 1956، لإقامتها علاقات غير شرعية مع منظمات الاستخبارات في ألمانيا الشرقية.

وكانت تجلس بهدوء في قفص الاتهام. فرفعت رأسها لتنظر إلى النائب العام عندما وجه إليها الحديث قائلاً:

ـ إنك تعاونت بمحض إرادتك مع المخططات، كما أعطيت موافقتك لوضع هذه الأجهزة في فندقك. وأنت تعرفين تماماً بأن الهدف من وضعها هو الحصول على الأسرار الهامة للدولة.

وأصدرت المحكمة حكمها عليها بالسجن لمدة ستة عشر شهراً، فأغمي عليها عند سماع الحكم. وكان هذا الاعتقال وصدور الحكم نصراً حققه غيهلن الشخص الذي يعرف أكثر من غيره بأن الجواسيس والعملاء، الشبان منهم والكهول، جميعهم كالأعشاب الضارة التي تنبت جذورها في كل مكان وهي تحل محل غيرها من الأعشاب المختفية.

فرولين ايرمغارد شميدت(*)
(Froline E. Chmidt)
(1908 -)

هي إحدى أشهر الجواسيس الألمان الشرقيين والسوفيات في برلين ضد الأميركيين وغيرهم من المخابرات الغربية العدوّة. وقد جنّدها في الجاسوسية أرنست ديللوبير (أو أرنست فولفيير)...

على هذا الأساس، استغلت وضعها كشابة رشيقة القوام للقيام بأصعب المهمات وأدقّها. لذلك عندما غادرت فرولين محطة «المترو» في «برلين ليشتنبرغ» في صباح أحد الأيام الباردة،وسارت في طريقها سيراً على الأقدام حتى وصلت إلى «22 نورمان ستراس» وعلى الرغم من مصادفتها لعدد من سيارات الأجرة فإنها حاولت في سيرها تجنب نظرات السائقين الفضوليين. ثم ألقت بنظرة سريعة من فوق كتفيها قبل أن تفتح باب المبنى الكبير ذو الجدران المبنية من الفخار لتنزلق بنشاط إلى قلب البهو حيث تصدى لها حارسان مسلحان ليسألانها عمن ترغب رؤيته، وأجابتهما بلهجة متعالية لكي تتجنب رداً مباشراً

(*) **المرجع**: كيرت سنجر «أعلام الجاسوسية العالمية». ترجمة بسام العسلي. دار اليقظة العربية. بيروت 1965. ص141 ـ 177.
وصلاح نصر «الحرب الخفية...». ص187 ـ 188.

«مباحث». ونظر الحارسان بانتباه إلى الفتاة السمراء الجميلة ثم توليا حراستها ومرافقتها إلى الطابق الثاني من المبنى المحروم من المصعد والذي كانت قضبان الحديد تقوم على حراسة نوافذه.

وفي الطابق الثاني، كان أحد الأبواب يحمل الرقم 209 حيث يقوم على حراسته مدير للمكتب ذو مظاهر صارمة، وتقدمت الفتاة خطوة من الرجل الجالس خلف مكتبه الواقع على يمين الباب وقالت له:

- إنني أرغب رؤية الرفيق «أرنست».

وتأملها مدير المكتب الأشقر ذو العينين العسليتين لفترة قصيرة، ثم نظر إلى مفكرته اليومية التي تتضمن مواعيد الزيارات، ودمدم قائلاً:

- تفضلي اجلسي في انتظار المقابلة، إن الرفيق «أرنست» مشغول حالياً ولا يستطيع مقابلتك الآن.

وشعرت «ايرمغارد شميدت» بالضيق، فلقد كانت تعرف تماماً بأن هناك الكثير من المسؤوليات التي تقع على عاتق «**أرنست ديللوبير**» كشخصية مرموقة، ولكن سهرة المساء أثبتت لها أنه باستطاعته عندما يريد ذلك أن يخصص من وقته عدداً من الساعات، وفكرت به طويلاً ثم تذكرت بأنه في الواقع لم يترك ثانية واحدة لتضيع سدى خلال سهرة الأمس الطويلة التي قضياها سوياً في شقته الجديدة التي يقيم بها في «ليهنينز».

وارتسمت علامات الضيق على وجه «ايرمغارد» وهي تجد نفسها مضطرة للجلوس، وبعد أن جلست على أحد المقاعد، صالبت ذراعيها لتضع أصابعها فوق مرفقيها بحيث تبدو الأظافر الجميلة التي

نالت قسطاً من عنايتها، وعاد بها الخيال إلى الليلة السابقة.

فبعد أن قبلت القيام بالمهمة الجديدة، عادت إلى منزلها واتفقت مع «أرنست» على أن تزوره في مكتبه 209 في تمام الساعة العاشرة من صباح هذا اليوم. وها قد مضى وقت على هذا الموعد وهي بالانتظار، وابتسمت في سرها، على الرغم من ضيقها، عندما ذكرت كلمات الغزل التي قالها لها بالأمس وهو يداعب يديها:

ـ إن وجهك يشبه في شكله شكل القلب.

وهذه الخطوط الدقيقة تشبه الخطوط التي كانت تزين وجه «مارلين ديتريش» في بداية حياتها الفنية. إنك تمتلكين فتنة طاغية، ولا أعتقد أن هناك من يستطيع القيام بدورك مع الأميركيين.

واهتزت «ايرمغارد» فوق كرسيها ورددت في سرها: إذا كان الرفيق «ارنست» يتصور أنه بإيحائه وقوة تأثيره وكلمات غزله قد يلعب بي فهو مخطىء كثيراً في تصوره. وتذكرت أنها إنما تقوم بدورها تنفيذاً لأوامر الحزب، وإذا ما صدرت إليها الأوامر فلا مجال للاختيار، ولكن مهمتها الجديدة على ما يبدو ستكون ممتعة فالحياة في برلين الغربية وتوفر الأشياء الكمالية الفاخرة كجوارب النايلون والألبسة الأنيقة والعطور ولفافات التبغ الأميركية التي هي في متناول كل يد ستجعل التجربة الجديدة مدعاة لحماسة أية فتاة قادمة من المنطقة الشرقية، وأن الفضل في إسناد هذه المهمة وغيرها من المهمات المختصرة والتي نفذتها في أوساط الحزب يعود لتعليمات وتوجيهات «ويللوبير» وقد أتاحت لها هذه المهمات فرص الالتقاء مع عدد من الشخصيات الهامة.

كلا يا رفيق «أرنست» إنني لست من البساطة كما تتصورني،

وإنني أجد في عملي تسلية أكثر مما تتصور. هذا ما جال في مخيلة «ايرمغارد».

وشعرت عند ذلك بالكثير من الراحة، فبعد أن جالت في مخيلتها كل هذه الومضات، وعادت إلى نفسها وتجاربها الماضية أدركت أنها تعرف منذ زمن بعيد يعود في قدمه إلى أكثر من سنوات، بأنه من المستحيل مناقشة القادة الشيوعيين، وأن هؤلاء ممن يمسكون بأيديهم مفاتيح مقاليد الأمور، يعتقدون أن بإمكانهم تنفيذ المستحيل، ويتصورون بأنهم عندما يحددون هدفهم، ولاسيما إذا كان هذا الهدف يتعلق بامرأة، فلا يمكن أن تكون نتائج أعمالهم إلا الكمال. ووجدت «ايرمغارد» أنه من الأسهل عليها أن تترك الحوادث لتحركها حسبما شاءت، وما عليها إلا أن تقوم بدورها وتهتم بمصلحتها ومصلحتها فقط وهي ترقب المستقبل بعين حذرة.

وأخيراً انفتح الباب القديم المصنوع من الشبك، وأشار «أرنست» إلى «ايرمغارد» بالدخول، ولم يعد من شك في أن هذا الرجل الضخم الذي يبلغ من العمر خمسين عاماً، يعرف «ايرمغارد» معرفة جيدة تفوق معرفته للآخريات من الفتيات اللواتي يعملن تحت أوامره في شبكات التجسس التي يوجهها. كما كانت هيأته تشبه هيئة رجل الأعمال الجدي. وقد غرق في مقعده دون أن ينتظر جلوس زائرته في مقعدها ثم ابتدأ يتصفح الإضبارات المتراكمة فوق مكتبه بسرعة وأخيراً نظر إلى زائرته من خلال الشقين الضيقين اللذين يخفيان عينيه الملتمعتين.

كان «أرنست ويللوبير» رئيساً لمنظمات الجاسوسية في ألمانيا الشرقية، ولقد وصل إلى هذا المركز بعد أن قطع طريقاً طويلاً ابتدأه

كثائر متطرف عندما لم يكن له من العمر أكثر من عشرين عاماً، وقد قام برفع أول علم أحمر فوق الأسطول الإمبراطوري لألمانيا القيصرية، ثم قام بعد ذلك بتنظيم الثورة بواسطة حزب «اسبارتاكوس» في كل من «هامبورغ» و «بريم» ليصبح بعد ذلك رئيساً للمقاومة الشيوعية في زمن هتلر وذلك بدْءاً من الحرب الأهلية الإسبانية حتى عام 1945، وتمكن خلال هذه الفترة من إغراق إحدى وعشرين باخرة بالإضافة لنسف وتدمير عدد من القطارات التي كانت تقوم بنقل الوحدات المقاتلة والأعتدة الحربية، كل ذلك بفضل شبكاته التي تضم المئات من الأشخاص المقاتلين.

وكانت هذه الشبكات بحلقات متماسكة تصل إلى «ويللوبير» ولم يكن «ويللوبير» ليستريح من وضع إكليل من الغار على رأسه حتى يبدأ بالإعداد لقطف ثمار نصر جديد. وكان يهدف في كل أعماله لخلق مؤامرات جديدة ومشاريع وأفكار تهدف في مجموعها إلى زيادة المد الثوري العالمي.

ولم تكن «ايرمغارد شميدت» إلا واحدة من الجاسوسات العديدات للرفيق «أرنست» ولكن على ما يبدو فإنها هي التي كانت تفضلهن جميعاً لأداء المهمة المطلوبة، فلم يكن ليطربها أو يداعبها بكلمات الغزل عندما قال لها خلال سهرة الأمس بأنها تجمع بين الجمال والخيال المبدع، بين مظاهر البراءة والتفكير السريع الذي تزوده ذاكرة قوية.

واستقدم «ويللوبير» ثلاثة من معاونيه الرئيسيين «**ايريك ميلك**» ساعده الأيمن، و «**هيرمان دويتز**» رئيس الفرع الخاص بالمهمات السرية للغاية، و «**هيغو بادر**» رئيس قسم التصنيف رقم ـ 1 ـ وبدأوا

بدراسة تنظيم أعمال مكافحة الجاسوسية الأميركية المقيمة في برلين الغربية.

انقضت ساعة ونصف على هؤلاء الخمسة وهم يناقشون بالتفصيل خيوط المهمة التي تنتظر «ايرمغارد» إلى أن غادرت هذه مكتب «ويللوبير» بحيث لم يكن في حوزتها ما يمكن أن يدينها، لا وثائق ولا أية وريقة، فلقد كان كل شيء قد رسخ في ذاكرتها بشكل كامل كما أصبح الهدف واضحاً أمامها تمام الوضوح.

لقد كانت الأسباب الدافعة لتنظيم عملية «ايرمغارد» ذات طابع شخصي بالنسبة «لويللوبير» هدفها الانتقام من المنظمات السرية الأميركية بعد أن علم بأن هذه المنظمات قد شرعت بالاتصال مع زوجته السابقة «غاندران ويك» التي كانت تقيم في «أوسلو» على أمل كشف النقاب عن أعماله الماضية والحاضرة وبالإضافة إلى ما يمكن الحصول عليه من المعلومات عن شبكات تجسسه. ولقد أزعجته المناورة كثيراً، فبدا متعجلاً للأخذ بالثأر ولقد خطرت له تلك الفكرة الجهنمية وذلك بالتسلل إلى قلب مكاتب منظمات الاستعلامات الأميركية والتي كانت على ما بدا له في وضعية جيدة في مقرها في القطاع الغربي من برلين على بعد عدد قليل من الكيلومترات فقط من «تامبلهوف» حيث كانوا يظنون أنهم في مأمن أكيد.

بعد ذلك بيومين فقط وكان ذلك في أحد أيام الجمعة من شهر آذار (مارس) عام 1953، دخلت «ايرمغارد» إلى القيادة العامة الأميركية في برلين، بينما كانت الساعة الكبيرة والموضوعة عالياً جداً من فوق الباب الثاني للبهو تشير إلى الحادية عشر، ولعل مثل هذا الوقت كان يعتبر متأخراً للبدء في أعمال هامة، ولكن «ايرمغارد» أيضاً

كانت بحاجة لما يكفيها من الوقت لتعتني بزينتها، وفي الواقع فإنها استفادت تماماً من الساعتين اللتين قضتهما قبل قدومها إلى القيادة، في العناية بنفسها؛ ولم يضع جهدها سدى، ذلك أنها الآن ستضطر أي مشاهد لها من أن يتوقف ليتأملها مرتين. كان فستانها الأنيق متلائماً مع قبعتها الصغيرة التي تحمل ذات اللون بينما كانت خصلات من شعرها تضع بقية الإطار لوجهها الجميل، كما كانت تحمل في يدها حقيبة من الجلد البني بالإضافة لقطعة من الفرو تنسدل بإهمال من فوق ذراعها.

ولقد جلب وقع رنين عقبي حذاء «ايرمغارد» العاليين انتباه الجندي «جون ديلبرت» الذي كان من عادته أن يسمع وقع أقدام العسكريين في مجيئهم وذهابهم المستمر، بالإضافة لبعض «السكرتيرات» ولكن لا شك في أن هذه الفتاة التي هي جميلة جداً تعتبر بحق طرازاً آخراً من المجتمع تجدر مشاهدته، وقال في سره «إنه من الأفضل لي بألا ألمس هذه الدجاجة. إنها بدون شك مخصصة للضباط» ورفع رأسه وسألها بأدب:

ـ ماذا أستطيع أن أفعل من أجلك يا سيدتي؟...

ونظرت إليه «ايرمغارد» من خلال عينيها الزرقاوين وهي تمضغ لسانها قليلاً لتجيبه بلهجة ألمانية سليمة بدت وكأنها لحناً موسيقياً يقع في أذني الجندي «ديلبرت»:

ـ إنني لا أعرف تماماً.. إنني أريد فقط رؤية أحدهم... لأدلي إليه بحديث هام...

ودهش هذا الجندي المكلف بأعمال الاستقبال. فلقد تعود بأن يرى الأشخاص الذين يدخلون إلى مكاتب المنظمات السرية الأميركية

وقد حصلوا على موعد سابق مع من يرغبون زيارتهم، ولم يشاهد أحد أتى فقط لمجرد رؤية (أحدهم...) فسألها:

ـ وما هو موضوع حديثك الذي ترغبين التحدث به؟...

ودمدمت (ايرمغارد) وهي تخفض عينيها باستحياء:

إنني لا أستطيع قوله.. إنه يتعلق بمنظمات الأمن...

ولم يضع الجندي (ديلبرت) وقته في اتخاذ القرار الملائم.. فقد يكون لدى هذه السيدة من المعلومات الهامة فعلاً ما يتوجب نقله إلى القيادة...

وإذا لم يكن الأمر كذلك، فلا شك بأن الضباط سيتمتعون باستجواب عذب يخرج بهم عن أعمالهم الرتيبة.

ـ سوف نرى من سيتمكن من استقبالك، تفضلي اجلسي يا سيدة؟...

ـ (شميدت. ايرمغارد شميدت).

وعلق (ديلبرت) الهاتف بعد أن كلف جندياً آخر للقيام بأعمال المقسم، واختفى خلف الباب المزدوج لكي يعود بعد دقائق قليلة فيقول لها وإمارات الرضى عن نفسه ترتسم على وجهه:

ـ إن الملازم (فريسباي) سيكون في استقبالك بمجرد انتهائه من عمله.

وشكرته (ايرمغارد) بإيماءة من رأسها.

ومرت عشرون دقيقة قبل أن تسمع ضربات حذاء الملازم (فريسباي) وهو قادم لرؤيتها فينحني أمامها انحناءة خفيفة، ويشير إليها

بيده إلى الباب لتدخل منه، دون أن يتكلم معها أحد ما بأية كلمة. ولكن الملازم الذي أعجبه منظر هذه الزائرة التفت إلى الجندي (ديلبرت) وغمزه بعينه غمزة لها معناها... ثم وضع الملازم (فريسباي) يده في يد (فردلين شميدت) واقتادها إلى حجرة فيها القليل من الأثاث ـ طاولة كبيرة، وعدد من المقاعد، وصورة للرئيس (ايزنهاور) قد علقت على أحد الجدران الممتلئة بالبقع والشقوق ـ وقال بعد أن ساعدها لتجلس:

ـ والآن.. ترى ماذا نستطيع أن نفعل من أجلك؟.. لقد قال لي (ديلبرت) بأن هناك حديثاً تودين الإدلاء به؟...

ولعبت (ايرمغارد) لعبتها فمثلت دورها كممثلة محترفة وهي تؤدي دورها. ومع التظاهر بالقليل من الخوف... لتقول له: معذرة يا ملازم فريسباي، فلم يخطر في مخيلتي إطلاقاً بأنك غير كفء.. ولكن أخيراً.. إنني لا أرغب بإعادة حديثي ستة وثلاثين مرة. كما أنها في الواقع قصة معقدة، وبما أنها أيضاً ذات موضوع سري للغاية، فإنني أتساءل إذا لم يكن من الأفضل وكسباً للوقت أن تطلب أحد رؤسائك للحضور أيضاً وأنه باستطاعتي أن أؤكد لك بأنه موضوع هام.

وعض (فريسباي) على شفتيه، وفكر لحظة قصيرة، ثم غادر المكتب بسرعة، وعندها أخرجت (ايرمغارد) علبة البودرة من حقيبتها، ونظرت إلى وجهها بالمرآة، فأصلحت خصلة متمردة من خصلات شعرها ودفعت بزفرة عميقة، ولم يطل انتظارها، فقد عاد الملازم (فريسباي) فوراً وبصحبته كل من (الكابتن ادوارد رورك) والميجور (ويليام ب سكاريورد).

وحاولت (ايرمغارد) فوراً تكوين فكرة عن هذين القادمين الجديدين، لقد كان (الكابتن رورك) من طراز أولئك الرجال الذين تعرفت إليهم، وخاصة بين رجال (ويللوبير) كان يبدو حازماً ذكياً، وتوقعت أنه من ذلك النوع الذي يعرف كيف يتعامل مع الرجال والنساء، وكانت (ايرمغارد) على حق في تحليلها للرجل الذي اكتسب الكثير من الخبرات في ميادين القتال، وفي المحاكم العسكرية وفي زنزانات السجون وساحات الإعدام، وبدت نظراته وكأنها تتفحص وتحلل هذه الزائرة من قبل أن تبدأ حديثها، واستنتجت (ايرمغارد) بأنها يجب أن تجانب الحذر في حديثها مع هذا الضابط.

أما (الميجور سكاريورد) فقد كان من طراز آخر، فعندما مد يده ليصافح يد (ايرمغارد) ويقدم إليها اسمه كانت لهجته الأميركية تشير بوضوح إلى أنه من مواليد (جورجيا) وكان حديثه عن هذا اليوم الجميل من أيام آذار (مارس) وعن الأزهار التي تتفتح في الحقول، وعن جمال الطبيعة في برلين كل ذلك بأسلوب جميل ورصين. وضعته (ايرمغارد) بعد هذه اللمحة الخاطفة في عداد أولئك الرجال المرحين الذين يجدون السعادة في تأمين الحماية للمرأة والدفاع عنها، إن هذه التفاصيل الدقيقة تبدو بأنها هامة وعليها أن تتذكرها تماماً.

واعتذرت (ايرمغارد) عن لغتها الإنكليزية غير الجيدة، وتساءلت فيما إذا كان هؤلاء السادة يعرفون تماماً اللغة الألمانية لكي لا تتوقف عند بعض الكلمات التي تحتاج إلى شرح وإيضاح. فأكدوا لها بأنها تستطيع أن تبدأ قصتها.

وصالبت (فرولين شميدت) قدميها بعد أن وضعت حقيبتها وقفازيها فوق الطاولة مشيرة بذلك إلى استعدادها للبدء في حديثها،

وتكلمت بصوت منخفض يحمل في نبراته الغرابة والحزن.

ـ لقد ترددت قبل اتخاذي قراري في القدوم إليكم، ففي الأحوال الطبيعية، يحاول أبناء الشعب الألماني عدم اللجوء للسلطات الأميركية، وذلك لأن لنا حكومتنا الخاصة ورجال شرطتنا، كما أنني شخصياً من المعجبين والمناصرين (للمستشار اديناور) ولي كل الثقة به، ولكن كرهي للروس لعدد من الأسباب، وشعوري بأنكم أنتم الأميركيون ستهتمون بما سأقوله وربما باستطاعتكم حسب إمكاناتكم من التصرف بسرعة أكبر هو ما دعاني لزيارتكم، وبالإضافة لذلك فإن المعاملة اللاإنسانية التي نزلت بعائلتي وأصدقائي على أيدي (الروس) كانت رهيبة تماماً مما يدفعني للقيام بأي عمل يسبب لهم العقاب اللازم. وعند ذلك ازدادت حدة نبرات صوت (ايرمغارد).

فقدم لها (الميجور سكاريورد) سيجارة وأشعلها لها وصمتت فترة قصيرة تمكنت خلالها من العودة إلى هدوئها. وكانت هيئتها وكأنها على وشك البكاء عندما كانت تتنقل بنظرها بالتتابع على الرجال الثلاثة محاولة أن تقرأ على وجوههم الانفعالات وردود الفعل التي نتجت عن هذه المقدمة، واستنتجت بأن الاهتمام يستحوذ على نفوسهم جميعاً، وأنهم ينساقون مع حديثها، إلى أن قالت لهم بصوت هامس تقريباً:

ـ يا سادة، كان لي من العمر تسعة عشر عاماً عندما دخلت إلى جامعة (هال) في المنطقة الشرقية، وهنا ابتدأت علاقتي مع رجل، ولا تنسوا بأنني كفتاة ريفية بسيطة، قضيت طوال حياتي بعيداً عن الرجال، ولذا فقد كانت هذه العلاقة بالنسبة لي علاقة حب حقيقي.

لقد كان شيئاً مرعباً، وكان الوقت متأخراً عندما استفقت من

ذهول الماضي فأجد بأنه لم يكن ليبادلني حباً بحب.

ـ وسألها: وهل بإمكاننا أن نعرف من هو ذلك الرجل؟...

وكانت (ايرمغارد) أثناء ذلك تلف منديلها حول أصبعها فأجابت:

ـ إنه **(فرانز لاب)** أستاذي في التاريخ، والذي لم تكن تصرفاته لتتلاءم مع مكانته، ولا مع مظهره. لقد كان مليئاً بالحيوية، وعواطف الحب للموسيقى، والأدب والحياة ـ وبسببه ـ انفتحت لي نافذة جديدة على الحياة، قبل أن أعرف بأنه شيوعي وأعتقد أنني لو عرفت ذلك قبلاً لعدت إلى رشدي في الوقت الملائم، أو على الأقل لما قبلت الذهاب وحيدة لزيارته في منزله، وبإمكانكم تخمين ما حدث بعد ذلك، وأعتقد أنه أسلوب قديم.. عشاء خاص لاثنين على أنغام الموسيقى الدافئة وزجاجات من الخمر مع الكونياك ثم تلا ذلك العشاء، وبما أنني لم أكن قد تعودت على تناول الشراب، فلقد بدأ الرأس بالدوران وأعتقد بأنني تصرفت بعض التصرفات الحمقاء وأظن أنني غبت عن الوعي بعد ذلك، ولكن هناك شيئاً أكيداً وعيته تماماً ذلك أنني عندما استفقت في صباح اليوم التالي وجدت نفسي في فراش الأستاذ...

وكنت عارية تماماً. ولقد عاملني عندئذ (فرانز) بأسلوب مهذب، عندما استقبل مظهري بالضحك وقام يحضر القهوة لكلينا، ليشرح لي بعد ذلك في محاضرة طويلة بأننا مواطنين اثنين فوق أرض هذا العالم المتحضر، ويجب أن لا نتقيد بتلك التقاليد الخاطئة، والزواج القديم والمفاهيم البالية، وبما أنني كنت أحبه وأعجب به، فلقد بدا لي بأن كل ما قاله لي في ذلك الوقت منطقياً ومعقولاً.

واستمرت علاقتي معه لفترة من الوقت أصبحت خلالها الروابط التي تجمعنا تزداد تماسكاً أكثر فأكثر، كما أصبحت جذور العاطفة التي أحملها له أكثر رسوخاً، وقد قمنا معاً بعدد من الرحلات كنا ننام خلالها في البيوت الريفية أو في بيوت منظمات الشباب. أو حتى في العراء... ولم أكن إلا غبية صغيرة لأنني كنت أتصور بأن هذه العلاقة ستنتهي أخيراً بالزواج. وكنت أرغبه بشكل قوي جداً.

كان خلال هذه الجولات يحدثني عن الشيوعية، ولقد أدخلت أحاديثه الرعب إلى نفسي في أول الأمر، فلقد كنت أنتسب إلى عائلة متوسطة، من صغار الصناعيين والذين يسمونهم بالطبقة البورجوازية. كما أن أبي كان قسيساً كرس حياته للدين الذي يعتبره (فرانز) بأنه سدٌّ يقيمه المتزمتون في وجه المجموعات الجاهلة، وابتدأت بعد ذلك أتخلى عن معتقداتي القديمة شيئاً فشيئاً لتحل مكانها أفكاره التي بدت لي بأنها مثالية بلغت حد الكمال.

لقد عرفت أهوال الحرب وشقاءه، فإذا كان بإمكان الثورة العالمية أن تمحو كل هذه المآسي فإن ذلك يستحق أن يبذل الإنسان كل جهوده ليتعاون معهم.

ولكن ما إن مضى ستة أشهر حتى تبدل كل شيء عندما اكتشفت بأن ذلك الرجل الذي وهبته قلبي، لم يكن تلك الشخصية الفذة التي تصورتها، ولقد كانت صدمة قاسية تلقيتها في ذلك اليوم الذي طلب فيه مني فجأة بأن أنام مع شخص يسمى **(دورنر فردنكوف)**. وعندها استند الضباط الأميركيون إلى مقاعدهم بصورة لاشعورية، لأن كلاً منهم كان قد سمع بقصته وما حدث له. واستمرت في حديثها.

لقد قال لي (فرانز) بأنه على اعتباره عضواً في المنظمات السرية

السوفياتية فإنه بحاجة إلى مساعدتي في نضاله ضد (دورنر) الذي كان يتردد في تلك الفترة على الجامعة التي أنتسب إليها لتلقي بعض الدراسات، وكنت قابلته قبلاً بها ولكن فكرة إقامة علاقة معه وبناء على طلب من عشيقي بدت لي شيئاً رهيباً، اضطرب لها كياني كله، ولكنني، أخيراً... اضطررت لتنفيذ ما طلب مني (فرانز)...

وسألها (الكابتن رورك) الذي بدا مشوشاً:

- ولكن، يا للشيطان، لماذا فعلت ذلك؟...

وأجابته (ايرمغارد) وعيناها تحتجبان خلف طبقة من الدموع:

- إن هذا ما أتساءل عنه أيضاً، ولكن في تلك الفترة كان هناك الكثير من الأسباب لذلك، فالواقع الأكيد بأنني كنت في تلك الفترة أسيرة لرغبات (فرانز) الجنسية، كما أنه كان يعرف بأنه لا معين لي ولا مدافع عني فهددني بوضعي تحت قبضة المنظمات السرية، باعتباري من العناصر المعادية للدولة وأكد لي بأن مصيري بعد ذلك سيتقرر نهائياً وبسرعة.

وبالإضافة لذلك، فلقد كانت هناك والدتي الأرملة عن زوجها الذي توفي أثناء الحرب، وقد قررنا أنا ووالدتي السفر إلى ألمانيا الغربية للعيش في (هيدلبرغ) أو (كولونيا) مع أقاربنا في (الريناني)، وقد وعد (فرانز) بمساعدة والدتي للحصول على تأشيرة خروج من ألمانيا الشرقية، ووعدني بمساعدتي للحاق بها فور انتهاء مهمتي مع (دورنر). إنه لم يترك لي حرية الاختيار إطلاقاً.

ووافقها الرجال الثلاثة على أقوالها، فلقد كانت هذه القصة بالنسبة لهم قصة قديمة لا يعرفون عنها إلا الشيء القليل. واستمرت (ايرمغارد) في سرد قصتها:

وكان لا بد من حدوث ما هو أكثر رهبة فلقد أصبحت صديقة (لدورنر) وكنت كلما ازددت معرفة له كلما وجدته أكثر دماثة ورقّة، إنه لم يكن (جاسوساً) كما أوحى إلي (فرانز)، إنه مواطن طيب ومخلص في رغبته لتوحيد ألمانيا كي يحكمها مواطنوها وحدهم دون تدخل السلطات الروسية المحتلة.

كان دورنر رجلاً شريفاً نظيفاً، وهي الصفات الطيبة التي كدت أنساها مع وجودي وخلال علاقتي بفرانز.

ومن الصعب الاعتراف بالحقيقة، ولكنني أعترف أنني تجسست على دورنر وحصلت منه على أسماء ما لا يقل عن ثماني وحدات من الوحدات المقاومة، وقمت بتسليمها إلى لاب الذي قام بدوره بنقلها إلى روسيا.

وفتشت ايرمغارد في حقيبتها فأخرجت لفافة تبغ وأشعلتها وتابعت حديثها:

ـ بالإمكان القول إنهم قادوني للعمل بطريقة غير شريفة، وأعرف أنني قمت ببعض الأعمال السيئة، ولكنني بالمقابل كنت راغبة في التكفير عن خداعي لهم. لذا انضممت إلى زمرة دورنر وشاركت بالنضال السري ضد الروس. ولا شك أن في إضبارتكم بعضاً من التقارير التي قمت بوضعها في هذه الفترة وبإمكانكم التأكد منها دون عناء.

وأطبق الصمت على الغرفة المقفرة، وكان كل من الرجال الثلاثة خلال ذلك يفكر بما يفكر به الآخرَين وهو يستعيد استعراض الحوادث الماضية عندما قام الروس باعتقال جماعة فرونكوف وتم قتل عدد كبير من أفراد المقاومة السرية علناً ودون أي خجل.

ولم يعتبر هذا الحادث بالنسبة للحلفاء فشلاً فحسب، بل إن

تحطيم هذه الشبكة الرئيسية من شبكات الجاسوسية يعتبر خسارة هامة لا تعوّض، وكانت لديهم منذ زمن طويلة رغبة جامحة لوضع أيديهم على ذلك الشخص وأولئك الأفراد الذين قاموا بالوشاية بفرانكوف وبرجاله الشجعان إلى ويللوبير وميلكه رئيس الجاسوسية في ألمانيا الشرقية.

وها هم الآن يعرفونه - إنه هذه الفتاة السمراء الأنيقة ذات المظهر البريء - ولكي يحاولوا تمويه أفكارهم طرح الميجور سكاريورد سؤاله:

- وهل احترم لاب وعده لك؟...

وأجابته ايرمغارد وهي تعض على شفتيها:

- جزئياً فقط. ولا شك بأنكم لا تتوقعون منه أن يكون من طراز أولئك الرجال الذين يحافظون على عهودهم. أليس كذلك؟... فلقد أعطاني مقداراً من النقود وزودني بالأوراق اللازمة التي تمكنت والدتي بواسطتها من مغادرة المنطقة الشرقية. ولا شك بأن السماح لوالدتي، تلك المرأة البائسة، بالسفر يعتبر التفاتة كريمة منه.

- ومتى حدث ذلك؟...

وبدا التردد على ايرمغارد، فلقد مر كل شيء حتى الآن على ما يرام - وهي لا تريد أن تكون اعترافاتها كاملة تماماً - كي لا تثير الشك في أن هذه الشهادة محضرة مسبقاً للاعتراف والتصريح بها. وبالإضافة إلى ذلك، عليها أن تظهر عدم الدقة تماماً فيما يتعلق بالحوادث الزمنية لأن هناك الأشهر الثلاثة الأخيرة التي قضتها في مدرسة الجاسوسية في موسكو والتي لن تتمكن من التحدث عنها. وإذن فما عليها إلا أن تجعل الغموض يحيط بالتاريخ الزمني في كل مرة تتعرض له.

إنني لا أذكر اليوم بالضبط، وأعتقد أن ذلك كان في شهر تشرين الأول (أكتوبر)... لأن... كلا... ربما في تشرين الثاني (نوفمبر)، ولكنني متأكدة من أن ذلك حدث في عام 1952، وبذلك اختتمت الإجابة بلهجة التأكيد.

وعند ذلك قال لها الكابتن رورك:

ـ أعتقد أن الوقت أصبح ملائماً لتسجيل هذا الحديث، فهل تسمحين لنا باستقدام إحدى أمينات السر؟...

وصرخت ايرمغارد:

ـ يا إلهي! هل تريد مني أن أعود فأبدأ حديثي من جديد؟...

وأجابها الكابتن:

ـ لا أعتقد أن ذلك ضرورياً، ولكن هناك بعض الأسئلة نرغب في طرحها عليك.

ورفع الكابتن سماعة الهاتف الداخلي وطلب إحضار آلة ستيفر ـ داكتيلو مباشرة، وبعد قليل دخلت امرأة حرمتها الطبيعة من كل معاني الجاذبية إلى المكتب وفتحت دفتر التسجيل. وعلى الرغم من الدهشة التي انتابتها وهي ترى الضباط ملتفين حول هذه الغريبة الجميلة والأنيقة جداً، فإن تعابير وجهها لم تفصح بشيء عن دهشتها، إذ كانت من هدوء الأعصاب ومن جمود الشخصية ما جعلها شبيهة بتلك الآلة الكاتبة التي قامت أخيراً بتسجيل الملاحظات والمذكرات المخصصة للتصنيف في الأضابير. وقد راقبتها ايرمغارد بأعين تلتمع بالخبث فلاحظت كافة دقائق ثوبها القاتم وحذاءها المسطح والمحروم من العقبين العاليين.

وقد تحققت تلك الظنون التي ساورتها في البداية عندما قامت

بدراسة نفسية الضباط من خلال تصرفاتهم الأولى، إذ قام الكابتن روورك بتوجيه الاستجواب بأسئلة متلاحقة ودقيقة، ولكن هذا السرد من الأسئلة كان متقطعاً بواسطة تدخل أحد الرجلين أو الآخر. وبدأ الاستجواب بالسؤال الذي طرحه الكابتن:

ـ متى دخلت إلى برلين الغربية؟...

ـ منذ عدد من الأيام، وأعتقد أن ذلك في السابع عشر من آذار (مارس).

ـ وكيف تركت هالل؟...

ـ في دور... حوالي نهاية شباط (فبراير)...

ـ وهل كان يعرف فرانز ـ لاب بسفرك، وهل أعطاك موافقته؟...

ـ نعم، ولكنني أعتقد بأنه كان منهمكاً جداً ولم يكن لديه من الوقت كي يقلق من أجلي. لقد قلت له بأنني ذاهبة لحضور مؤتمر الطلبة في لايبزغ وبرلين فقام بدفع نفقات السفر وأوصاني الانتباه والحذر، ثم رفع تقرير إليه في آخر الأمر، وطلب مني بأن أستغل وجودي في برلين الشرقية لأجد عملاً في إحدى دور النشر، وذلك لكي أتمكن من مراقبة الكتاب الألمان الذين يصلون إلى برلين قادمين من نيويورك، وخاصة أولئك الرجال من طراز ستيفان هايم وألفريد كانتوروديز وآخرون أيضاً.

ـ وكيف تمكنت من الدخول إلى برلين الغربية؟...

ـ في الليل. وليس ذلك أمراً صعباً إذا كنت تعرف برلين.

ـ ومتى دخلت إلى جامعة هالل؟...

ـ في عام ألف وتسعمائة وتسعة وأربعين. هذا كل ما سأقوله لك يا كابتن، ولكن لا تسألني كم يبلغ عمري. قالت ايرمغارد ذلك وهي توجه إلى مستجوبها غمزة عين خجلة.

ـ وهل حصلت على إجازة من الجامعة؟...

ـ كلا... فقد تركت الجامعة بعد ثلاثة أعوام..

ـ ولماذا؟...

ـ لأنني قررت الهرب إلى الغرب لإنهاء دراساتي في جامعة هيدلبرغ.

ـ ولماذا كنت ترغبين الفرار إلى الغرب؟...

ـ أعتقد بأنني شرحت ذلك بما فيه الكفاية. وكما قلت لك ذلك قبلاً ـ فإنني تقدمت إليكم هنا محاولة بذلك التكفير عما كنت مجبرة على عمله. فلقد تم اعتقال كافة أولئك الذين قمت بوشايتهم من زمرة دورنر في ليلة واحدة، ولقد كنت طعماً للفخ. وتألمت عندما شاهدت رجال المباحث يقتادونهم جميعاً إلى معسكرات الاعتقال، كما أن دورنر الآن في السجن، وأريد مساعدته لأتخلص من تأنيب الضمير أولاً، ولكي أثبت له صداقتي ثانياً كما أنني أرغب أخيراً بتكريس حياتي للنضال ضد الشيوعية.

ـ ومتى تم اعتقال فرونكوف وجماعته؟...

وأدركت ايرمغارد بأن الأفخاخ الرئيسية لهذا الاستجواب تكمن وراء أرقام التواريخ، كما أنها تعرف بأن ضباط الاستخبارات الأميركية لا يعرفون إلا القليل عن تاريخ ومكان الاعتقالات.. لقد حدث ذلك خلال الأسبوع الأخير من شهر كانون الثاني (يناير) أو في الأسبوع الأول من شهر شباط (فبراير).

ولماذا انتظرت حتى شهر آذار (مارس) لتقومي بتنفيذ عملية الفرار؟. . .

وفكرت ايرمغارد ورددت في سرها، ها هم ابتدأوا في البحث عن تلك الأشهر الخطرة التي لا أستطيع تقديم كشف الحساب عنها.

ـ لأن لاب ورفاقه السوفياتيين كانوا يقومون بمراقبتي. وأعتقد بأن الشكوك كانت قد بدأت تساور فرانز حول حبي لدورنر. ونتيجة لذلك فإنه لم يتمكن من الوثوق بي تماماً.

ـ وهل تعرفين أسماء العملاء الآخرين من رجال السوفيات؟. . .

ـ أسماءهم الأولى فقط ـ الرفيق ايفان، الرفيق هانز، الرفيق روث، ولكنني أعرف أسماء المدرسين للجيش الأحمر في الجامعة.

ـ ومتى ابتدأت علاقتك بفرونكوف؟. .

ـ في نهاية سنتي الثانية في الجامعة واستمرت خلال السنة الثالثة.

وهنا قاطع الميجور سكاريورد الجلسة ـ بعد أن نظر إلى ساعته ـ معلناً بأنه قد انقضى وقت غير قليل على موعد تناول طعام الغداء. وكان التعب ولا شك قد نال من الآنسة التي أصبحت بحاجة لاستراحة قصيرة، واقترب من الهاتف طالباً إحضار ما يكفيهم من الطعام، بينما قامت أمينة السر فأغلقت دفتر مذكراتها وغادرت الغرفة بينما كان وجهها ـ كما كان دائماً ـ خالياً من أي تعبير.

وأحضرت الساندويتشات التي كانت محشوة بالجبن، بالإضافة لكميات القهوة التي كانت تعمل على التخفيف من الجو المتوتر، واستنفرت ايرمغارد مواطن جمالها فشرعت بالثرثرة المرحة مقارنة بين جمال ومحتويات المخازن في برلين الغربية، وما يماثلها في برلين

الشرقية، وكانت بذلك تقوم بوضع تقرير شفهي لجولتها الأولى على المخازن بعد وصولها مباشرة، معبرة بذلك عن بهجتها بالعودة إلى بلدها المتحضر.

وفجأة توقفت، وطلبت إحضار ورقة وقلم وقالت وهي تكتب مجموعة من المعلومات التي كان قد لقنها إياها ويللوبير وحفظتها هي بدورها عن ظهر قلب، وقالت بعد أن كتبت أسماء بعض الأشخاص العاملين في دور النشر:

ـ هؤلاء هم الذين عملت معهم قبل أن آتي إلى هنا، وكان عملي يتلخص بترجمة بعض الكتب الفنية والعلمية من اللغات الفرنسية والإنكليزية إلى اللغة الروسية، ولحسن الحظ فإنني أعرف هذه اللغات وأفترض أنه ساءكم، يا سادة، عدم اتقاني للغة الإنكليزية، وهذا بديهي. ولكنني آمل أن أتمكن من تحسينها.

وتفحص الكابتن أوروك القائمة، فوجد أنه يعرف أكثر هذه الأسماء. وراقبته ايرمغارد بانتباه، محاولة معرفة ما يجول في رأسه من أفكار. فلقد كان القلق ينتابها كلما فكرت بتلك الأشهر الثلاثة التي قضتها في اتباع دورة للجاسوسية والتي كانت ذات فائدة كبيرة ومستمرة ولا يمكن تقديرها، تعلمت خلالها ـ مما تعلمته ـ كيف تستخدم آلة تصوير توضع في خاتمها، أو في قلم حمرة شفاه، أو في قفل حقيبة يدها، وبذلك تتمكن من التقاط صور صغيرة جداً وهي تحاول بحركة بريئة في مظهرها أن تضع إشارة على أحد الكتب التي تحملها. كما تعلمت استخدام اللفافات المتفجرة المماثلة للفافات التبغ التي تحدث انفجاراً قوياً، وكذلك استخدام الرموز وحل الرسائل الرمزية، وطريقة الخداع في الشيفرة والرموز. وبالإضافة لكل ذلك

فلقد درست كافة التفاصيل المتنوعة عن الجيش والقوات الجوية الأميركية ومراكز القيادة الأميركية وأساليب الأميركيين لتحقيق الأمن. وكل ذلك بهدف إعدادها لمثل هذه البرهة التي عمدها ويللوبير رسمياً بتسميتها عملية ستيفانيا.

وبينما كانت تتجرع قهوتها وهي تراقب وجه الكابتن، تمكنت من تكوين فكرة جيدة عن التعليمات التي قدمتها، وأدركت أن كل الأمور تسير على ما يرام. وكادت تنفجر ضاحكة عندما فكرت بالسهولة التي استسلم بها هؤلاء الرجال الثلاثة أمام ما يسمونه بضعف المرأة، وتذكرت تلك الأفلام الأميركية التي تعلمت منها بعض المواقف والحركات.

في هذه الأثناء، كان الرجال الثلاثة أيضاً يفكرون في تكوين فكرة عن هذه الألمانية الشابة. كانت تربيتها عالية، وثقافتها جيدة، مما يدل على أنها على ما يبدو من عائلة عريقة، كما يبدو بأنها على الأقل وللوهلة الأولى مخلصة وبريئة. واعتبرها سكاريورد ضحية بريئة من ضحايا الحرب، بينما كان الكابتن على عكس زميله في حكمه عليها فاعتبرها غبية لانزلاقها بهذا التيار، ولكن على كل حال ناجحة ولا يمكن عمل شيء تجاهها.

وابتدأت ايرمغارد، بناء على طلبها وحسب مناورة نفسية حكيمة، بطرح الأسئلة: كيف هي الحياة في الولايات المتحدة الأميركية؟... من أي بلد هؤلاء السادة الثلاثة؟... ما هي أوضاع ثلاثتهم؟... وصداقاتهم؟... مهنتهم التي كانوا يزاولونها قبل الحرب؟...

وأطلقت تنهيدة عميقة عندما شرع سكاريورد يتحدث عن جمال

الجنوب، بينما ارتسمت عليها علامات الذعر عندما كان فريسباي يقص عليها أساليب الحياة في مدينة نيويورك. أما الكابتن فهو الوحيد الذي رفض كشف النقاب عن ماضيه.

وعلى كل فلقد كانت مشاعرها وهواجسها تؤكد لها أنها نجحت في كل شيء حتى الآن، وإذن فلقد كسبت الجولة الأولى.

وعادت أمينة السر في حوالي الساعة الثالثة عشرة والنصف بالضبط، وعادت ايرمغارد إلى تتمة قصتها.

ـ كنت أقطن أثناء إقامتي في برلين الشرقية في مسكن مفروش، وكان الراتب الذي أتقاضاه من دار النشر الشيوعية التي كنت أعمل فيها مبلغاً جيداً، وقد حاولت إرسال علب من الأطعمة وغيرها إلى دورنر ولكنهم أعادوها لي. وكنت أتساءل دائماً كيف أقدمت على خداعه، وأتذكر فرانز وكل ما حدث لي بسببه وكيف كانت الأعمال السيئة تتلاحق، فكان كل منها يتبع العمل الآخر ليحيط به، وانهمكت في عملي لأتناسى ذلك وأتنزه من وقت إلى وقت في الشوارع وحيدة فأجد بعض العزاء بالانكباب على قراءة الكتب. وكان أغلب هذه الكتب من تلك التي كنت قرأتها عندما كنت صغيرة، إلى أن قدم الوقت الذي شعرت فيه بأنه يجب أن أقوم بعمل ما، فحاولت أن أعرف شيئاً عن مكان اعتقال دورنر وكتبت بذلك إلى لاب فأجابني بأنه لا يعرف أي شيء عنه. لقد قيل لي بأنه في سجن هوهنشونهوزن. ولكن كان من الصعب الحصول على معلومات أكيدة، ولذا أدركت بأن أملي الوحيد لمساعدته هو البحث عن عون خارجي.

ولهذا السبب قدمت إلى هنا لرؤيتكم، فإذا كان هناك من يستطيع مساعدة دورنر فلا شك بأنه أنتم. إن القصة التي رويتها لكم

ليست بالقصة الكاملة الجميلة وأعتقد بأنكم تفكرون بأنني أستحق أن أجبر على العودة إلى برلين الشرقية، ثم العمل على فضح أمري واعتباري خائنة. وأنا أعتقد أنه لو أصابني كل ذلك لكان تحقيقاً للعدالة، ولكنني في سبيل مصلحة دورنر فإنني أتوسل إليكم إعطائي الفرصة للعمل من أجلكم. وأنني على يقين بأنني سأتمكن من تقديم العون الأكيد من أجل قضية الحرية.

وظهر الضيق على الرجال الثلاثة، بينما تأكدت ايرمغارد بأنها بالغت قليلاً في أداء دورها. نهض الكابتن أوروك عن مقعده واقترب من النافذة العالية والضيقة وبقي ساكناً بينما كانت يداه متشابكتان من خلف ظهره. وأخيراً استدار بجسمه نصف دورة وهو ثابت مكانه، لقد كان كالبشع الذي لا رأس له تحت تأثير وهج الضياء المتساقط من الخارج. قال بلهجة كنائسية:

ـ يا آنسة، نشكر لك قدومك إلينا. وإننا نقدر قيمة العرض الذي تطوعت به للتعاون معنا. ولكن هناك أيضاً شيئاً نرغبه نحن الأميركيون هو الإجابة المباشرة والعرض المحدد والواضح.

ترى ـ يا آنسة شميدت ـ ما عندك وما هو الذي ترغبين أن تقوليه لنا بالضبط؟...

وبما أن ايرمغارد كانت تنتظر طرح هذا السؤال منذ وقت مبكر جداً، كما كانت قد كررت الجواب الذي يجب أن تقوله، لذا بذلت جهدها كي لا تكون إجابتها سريعة جداً. فقالت بعد برهة مناسبة من الصمت:

ـ أستطيع إعطاءكم أسماء كافة الأساتذة السوفيات، والضباط العسكريين في جامعة هالل وكذلك أغلب الضباط الروس في هالل

وبرلين، كما أستطيع أن أميز وأعين لكم العناصر الخطرة في أوساط الطلاب الموجودين في برلين.

أما فيما يتعلق بالقضايا العسكرية، فبإمكاني تزويدكم بعدد وأوضاع الفرق الروسية في ألمانيا الشرقية، كما بإمكاني أن أوافيكم ببيان عن أعمال الجاسوسية في ألمانيا الشرقية. فهل هذا ما يهمك معرفته يا كابتن؟.. آه! نعم. لقد نسيت تقريباً... كما أستطيع أيضاً أن أقدم لكم الكثير من الأشياء التي تجهلونها عن مواضع النشر لدى الشيوعيين، والأشخاص الذين يعملون بها. كما قد أستطيع تعيين بعض العملاء السريين الذين يعملون هنا في ألمانيا الغربية.

وضرب الكابتن يده على الطاولة بحماسة قائلاً:

ـ هي ذي يا سيدتي الشابة الطريقة التي أحب سماعك تتكلمين بها. نعم، فبإمكاني الاستفادة من هذه المعلومات.

وعرفت ايرمغارد في هذه اللحظة بأنها توصلت إلى عقد اتفاق ولكن دون تحديد الثمن الذي يجب الاتفاق عليه. وبما أن الكابتن كان يريد إمساك كل شيء بيده، فقد أصبحت تشعر تماماً بدورها وتعرف كيف يجب أن تتعامل معه. فنهضت من مكانها واقتربت منه بخطوات حازمة وقالت له بصوت عذب:

ـ كابتن أوروك، إنني حضرت إلى هنا لأقدم لكم المعلومات التي آمل أن تكون ذات فائدة كبيرة لكم، وإنني إذ أعرض نفسي إلى الخطر وأنا أفعل ذلك، فإنني آمل أن تتفهموا هذا الوضع وذلك بأنني إذا ما عملت من أجلكم فيجب أن أحصل على بعض الحماية. إنني لا أرغب بأن تصل نتائج أعمالي إلى الطرف الآخر من الستار الحديدي، لأن في ذلك نهايتي إذا ما عدت إلى هناك.

ولكن الكابتن أوروك الذي يحسب لكل خطوة حساباً أجابها ويداه متشابكتان خلف ظهره:

ـ يا آنسة شميدت، إنك المسؤولة عن كل ما يحدث لك حتى الآن، لأننا لا نستطيع أن نضمن لك حماية كاملة. وأما إذا تمكنت من تزويدنا بالمعلومات التي نحن بحاجة إليها، فستكتشفين بأننا لن نقابلك بالعقوق وسنعمل على تأمين حمايتك ضمن حدود استطاعتنا.

لم يبق زيادة لمستزيد. فغادر الكابتن الغرفة بعد ذلك بقليل، بينما قام فريسباي بتقديم لفافة تبغ إلى ايرمغارد وأشعلها لها، ثم قدم لها قدحاً من القهوة الباردة. وتقبلت بالشكر لفافة التبغ والقهوة، في حين كان سكاربو يتكلم بالهاتف بين الفينة والفينة. ثم وجه حديثه أخيراً إلى ايرمغارد وهو يرفع سماعة الهاتف قائلاً:

ـ إننا بانتظارك صباح غد في الساعة التاسعة، وآمل ألا تكون جلسة اليوم قد أتعبتك. احملي إلينا أكثر ما يمكن من المعلومات المتيسرة، وأنصحك أن تستعرضي دقائق تجاربك الماضية بالتفصيل، ولا تتركي شيئاً منها جانباً حتى لو بدت لك بأنها معلومات لا قيمة لها.

وقضت ايرمغارد الأسبوعين التاليين بكاملهما وهي تقوم بزيارتها اليومية إلى مركز المخابرات الأميركية في برلين الغربية، لتقضي الساعات وهي تملي التصريحات على هذا الشخص أو ذاك. وبما أنها كانت تتمتع بذاكرة أمينة جداً، فقد عملت على تقديم بعض الأسماء التي كان ويللوبير قد زودها بها في كل مرة تقدم فيه معلومات جديدة.

وكان عليها أن تبذل جهداً كبيراً كي لا تخطىء في تسليم عدد كبير من الأسماء دفعة واحدة، وحرصت في الوقت ذاته على ألا

تحمل تقاريرها الطابع الذي كانت تتميز به التقارير الشيوعية، وبذلك كانت مجبرة على أن تضع إطاراً جديداً لكل تقرير بحيث يبدو ذا أسلوب مختلف عن بقية التقارير الأخرى المتعلقة بسرد تاريخي للأحداث التي كان سردها يتطلب وقتاً طويلاً. ونتيجة لكل ذلك أصبح من الصعب على أي إنسان أن يجد مطعناً فيها. وكان كل تقرير من تلك التقارير يتضمن عدداً من الوقائع الدقيقة، التي كان الأميركيون في الواقع يعرفونها جيداً، بالإضافة إلى وجود عدد من الوقائع الهامة التي تتميز بغموضها وعدم دقتها، لاسيما ما كان يتعلق منها بالشخصيات العسكرية والعلمية التي كان الشيوعيون يستخدمونها في برلين الشرقية. كما عملت على تقديم قوائم كاملة تتضمن أسماء الأشخاص المقيمين في ألمانيا الغربية من الشيوعيين، والذين كانوا في الواقع من أنصار تروتسكي أو من الشيوعيين الفاشلين الذين أصبح الحزب بغنى عن خدماتهم.

كل ذلك إضافة للمعلومات المتعلقة بأوضاع وأرقام الوحدات العسكرية السوفياتية المقيمة في المنطقة الشرقية من ألمانيا المحتلة، وعندما عمل المختصون على تحليل ودراسة تلك المعلومات، تبين لهم أن تلك التقارير وما تضمنته صحيحة تماماً، على الرغم من أنها لا تتضمن أي شيء جديد عليهم.

كان ويللوبير في الواقع قد زودها بمزيج رائع من المعلومات، منها الصحيح والخاطىء، الحقيقي والمزيف، المعقول وغير المحتمل تصديقه، ولقد تم تسجيل كل ذلك في التقارير التي حملت الأميركيين على الموافقة على قبولها كمتعاونة معهم، وكان من بين هذه المعلومات، مثلاً، لائحة تتضمن بعض الأميركيين من الذين تم اختطافهم. وكانت الأيدي الروسية خلف حوادث الاختطاف تلك.

لقد كان طبيعياً أن تتمتع ايرمغارد بمحبة الجميع، بل كان من غير الطبيعي ألا تكون كذلك. وكان كل رجل من رجال الاستخبارات ينتظر في الساعة التاسعة صباحاً قدومها، ليستمتع بطلعتها وهي تخطر بخطوات رشيقة، ويستمع إلى نقرات عقبي حذائها وهي تسير في الممرات، تاركة وراءها الروائح الخفيفة المنعشة. إنها لم ترتدِ بعد يومها الأول القبعة، وكذلك لم تعد تضع الفراء، بل كانت تلبس في كل يوم لوناً جديداً من القمصان والتنانير، وبذلك كانت تبدو وكأنها ترتدي في كل يوم ثياباً جديدة. وفي خلال الأسبوع الثاني، أصبحت ايرمغارد بشعرها القصير، وابتسامتها العذبة، جزءاً لا ينفصل عن العمل الرتيب لمكاتب الاستخبارات الأميركية.

في تلك الفترة القصيرة، تمكنت ايرمغارد من إجراء بعض المقابلات مع رئيس الفرع، العقيد بريتشارد. وكان رجلاً يبلغ من العمر ستاً وأربعين عاماً، سلخ منها اثني وعشرين عاماً في الخدمة العسكرية، تبلورت خلالها شخصيته بحيث أصبح عسكرياً مئة بالمئة. وكان مخلصاً لزوجته وولديه وأطفاله الخمسة المقيمين جميعاً في الولايات المتحدة.

وأحبت ايرمغارد تلك الجلسات القصيرة معه، إذ كان رجلاً طويل القامة، جميل التقاطيع، أشيب الفودين، كما أحبت طريقته في الجلوس وهو يهتز فوق مقعده، مستنداً برضفة قدمه إلى حافة مكتبه، وذلك بعد أن يشعل غليونه قبل كل مرة يبدأ فيها بالاستجواب والتحقيق. كما أعجبت بدقة أسلوبه في عمله، ذلك الأسلوب الذي لقنوها إياه أيضاً أثناء إقامتها في موسكو. وكانت تذكر باستمرار بأن عليها دوراً يجب أن تلعبه، وهي تتقرب منه وتدخل السرور إلى نفسه.

واعترفت أمامه كيف تركت نفسها تنزلق ببساطة لتتعاون مع الشيوعيين، ثم تظهر أمامه ندمها عن كل ذلك بصراحة تامة، حتى أنها كانت تذرف بين الحين والحين بعضاً من دموعها، مما كان يدفع ذلك الضابط الأميركي، صاحب الوجه الذي تعبر قسماته عن الطيبة والنبل، ليخرج عن مظهره المكتسب، ويعود فوراً إلى طبيعته الأبوية. وكانت تتكلم بلهجة مثيرة، وهي تظهر حقدها على الشيوعية والشيوعيين، وتتحدث بحزم عن قرارها الحاسم للتكفير عما ارتكبته من الأعمال السيئة.

وكان **العقيد بريتشارد** خلال أحاديثها مؤيداً لأقوالها، ومشاركاً لعواطفها وانفعالاتها. وابتسمت ايرمغارد في سرها عندما أدركت أن رجال المخابرات الأميركية يراقبونها مراقبة دقيقة، وأنهم عملوا على تفتيش شقتها تفتيشاً كاملاً، كما شعرت بأنهم عملوا على وصل هاتفها بأجهزة المراقبة، بالإضافة لمراقبة بريدها. وقالت لنفسها: إذا كان رجال اليانكي يعتقدون في أنفسهم الخبث والدهاء، فستثبت لهم بأنها أكثر منهم دهاء وخبثاً. ولما لم يجد رجال المخابرات عندها ما يثير شكهم، كما أنهم لم يلاحظوا في تصرفاتها ما يثير قلقهم، وافقوا على منحها شهادة حسن سلوك.

قطبت الآنسة شميدت حاجبيها عندما علمت أن كافة تقاريرها قد حازت القبول، وتم تصنيفها، وظهر لها أن الأحداث تتلاحق بسرعة كبيرة قبل أن تتاح لها الفرصة لإكمال مهمتها الحقيقية التي قدمت من أجلها. فقررت أخيراً أن تنتزع المبادهة، وحصلت على موعد لمقابلة العقيد، شرحت له خلالها ما تشعر به من القلق والملل، وصرحت أمامه بأنها لا ترغب إطلاقاً في العودة إلى القطاع الشرقي، وذلك لأنها أولاً قد تتعرض للخطر إذا ما عادت إلى هناك، ثم أنها

ترغب أن تلحق بوالدتها في هيدلبرغ في أقرب فرصة ممكنة، ولكنها بحاجة للنقود. ونتيجة لذلك فإن إيجاد أي عمل لها سوف يؤمن لها احتياجاتها. وتساءلت: هل من الصعب إيجاد عمل رتيب يلائمها؟... أي عمل لا علاقة له مباشرة بقضايا الأمن... ولقد أبدى بريتشارد استعداده لمعاونتها ودعمها، على اعتبار أنه المسؤول عن المخابرات والمنظمات السرية، فعمل على تعيينها أمينة للسر في مكتبه.

كانت ايرمغارد سعيدة بعملها الجديد، فانكبت على أعمال المكتب الرتيبة بجد وذكاء وسلكت طريقها بدأب وإصرار لا يماثله إلا تصميم السوس في نخر الخشب الصلد، بحيث لم ينقض على وجودها في المكتب سوى أسابيع قليلة إلا وأصبح وجودها أمراً لا بد منه لحسن انتظام العمل. وكان بريتشارد يلقبها بساعدي الأيمن؛ ذلك أنها كانت تضع التقارير فوق مكتبه قبل أن يطلب منها ذلك، كما انقلب أسلوب التصنيف الذي كان بمثابة اللغز المستعصي على الحل، بأعجوبة، إلى تنظيم دقيق، يمكن بواسطته إيجاد المعلومات المطلوبة في فترة قصيرة من الوقت.

ولكي يكون الوصف أكثر دقة، فإن ايرمغارد لم تكن في الواقع، أثناء تلك الفترة، ساعده الأيمن إلا في ساعات العمل الرسمية، بحيث أنها لم تقابل مطلقاً بريتشارد بعد أن تغلق المكاتب أبوابها. وكان لديها من المواعيد مع كل رجال المنظمة تقريباً، بما فيهم الجندي ديلبرت الذي كان جالساً على أحد المقاعد في شقتها ينظر إليها بدهشة محملق العينين ـ عندما ظهرت أمامه عارية إلا من غلالات من الأبخرة المحيطة بجسدها وهي تغادر حمامها ـ لتقدم إليه كأساً من الشراب. وكانت ايرمغارد تنظم مواعيدها بمنتهى الدقة

والحذر، شأنها في ذلك بكل تصرفاتها، إذ كانت في كل مرة تخرج فيها مع أحد الرجال تدفعه لكي يقسم لها بألا يكشف عن سر علاقاتهما. كما كان من النادر أن تتردد على الأماكن العامة ويدها متشابكة مع يد أحد الضباط، إلا في حفلات الاستقبالات الرسمية، حيث كان يعتبر وجودها أمراً مرغوباً فيه. وكانوا كثيرين أولئك الذين يرغبون بمرافقتها لما كانت تتمتع به من الخيال والجمال، كما كانت مرحة ولكنها لم تكن ثرثارة، أما طابع تصرفاتها فكان يغلب عليه التحفظ والحذر، سواء كان ذلك في المقهى، أو في حفلة كوكتيل، أو في المكتب.. أو حتى في بهو منزلها الجميل الذي كان يدل ترتيبه على ذوق كبير.

لاحظت ايرمغارد بعد انقضاء شهر من الزمن أن هناك تغييراً طرأ على سلوك بريتشارد، فكان يبدو عليه الضيق والضجر، وأدركت سبب كل ذلك بغريزتها الأنثوية وقررت أن تلك اللحظة المناسبة آن أوانها.

بعد ذلك، وذات يوم، بدأت ايرمغارد برواية قصة مزعجة، قامت هي ذاتها بتأليفها وإعدادها. وانتهت من أدائها عندما دفنت وجهها بين يديها وأجهشت بالبكاء بدموع حارة، وآنئذ طفح الكيل بالعقيد بريتشارد أمام أحزان هذه الفتاة البائسة، فتخلى عن مكانه وراء مكتبه، وتقدم ليحتضن الصبية بين ذراعيه. وشرع بمداعبة شعرها، وعندئذ رفعت رأسها لتلتقي منهما الشفاه. وبذلك ابتدأت مرحلة طويلة وجميلة من الصداقة تخلت على أثرها ايرمغارد عن كل الوجبات الصغيرة التي كانت تقدم لها، لتكرس نفسها تماماً للوليمة الكبرى، مقنعة نفسها بأن إفساد كل شيء لا يساوي قضاء ليلة مع ضابط من الضباط الرؤساء، وبذلك نجحت في تنفيذ مؤامرتها.

كانت أمسياتها مع بريتشارد تبتدىء بعشاء خاص في شقة سكنه، وتنتهي بتناول القهوة والكونياك، ولا شيء غير ذلك. . . وكانت تدفع رغباته عنها برفق، وتنزلق خارج قبضته برقة، وكأنها فتاة عذراء من فتيات الدراسة في الجامعة. . ولا تنسى بأن تهمس في أذنه أنه يجب ألا ينسى زوجته. وعندما كان التعب يرتسم على بريتشارد كانت ايرمغارد تنهض فتمسح على جبينه، وتعمل على استثارة كبريائه عندما كانت تدركه ثورة الغضب. ولقد بكت أمامه في أكثر من مرة عندما كانت تذكر بؤس ماضيها، لتترك له بعد ذلك حرية مؤاساتها. وأخيراً. . . وبعد أن أتعبه الانتظار، اعترف لها بحبه، ودمدم في أذنيها بأنه من القسوة أن تتركه ليصبر مدة أطول من ذلك. ولكن ايرمغارد لم تكن قد استعدت بعد لذلك. . . فلقد نجحت خلال الأسابيع السابقة في إيصال المعلومات الهامة إلى العملاء السوفياتيين الذين نقلوا بدورهم تلك المعلومات إلى ويللوبير. كما لا يزال أمامها الكثير من الأضابير التي تحتاج إلى الدراسة والتدقيق. . ولذلك كان لا بد من استمرار لعبة القطة والفأر لمدة أسابيع أخرى، وأدركت ايرمغارد بعدها، وشعرت بإحساسها، بأنها تمكنت من تتويج نفسها بدور المرأة الفاضلة بعد تلك الفترة من الانتظار الطويل، بحيث أصبح شعور العقيد بريتشارد تجاهها شعوراً بالفضيلة والأخلاق المثلى التي لا غبار عليها. واستسلمت له بعد ذلك، لتتفجر بعد ذلك عن امرأة جديدة تختلف تماماً عن السابق.

عرف العقيد بريتشارد، اعتباراً من هذه اللحظة، معنى الأيام السعيدة الحلوة، فلقد كان في ذات الوقت الأب والعشيق والموجه الناصح، والمدافع عن هذه ـ السكرتيرة ـ الصغيرة الذكية والمتمكنة من عملها، كما ابتعد شبح الضجر والملل عن أعمال المكتب الرتيبة

بسبب وجود هذه المرأة الشابة، واختفت المشاكل المعقدة ولم يبق لها وجود طالما أن ايرمغارد كانت هناك تعمل وتساعد في إيجاد الحلول المناسبة.

بدأت العاصمة المدمرة تلوح فوق رؤوس العاشقين مهددة بالانفجار، ذلك أن عملاء المخابرات الأميركية، المقيمين في ألمآنيا الشرقية، والذين كان بعض منهم في قلب شبكات تجسس ويللوبيرْ، بدأوا يشعرون بالضيق نتيجة لوصول معلومات على غاية من الأهمية مصدرها القطاع الغربي، وقد راقبوا تطور الأحداث بانتباه، حتى تأكدوا من أن مصدر المعلومات هو مكتب المخابرات الأميركي ذاته. ولكي يبرهنوا على صحة ذلك، عملوا على دس بعض المعلومات الكاذبة في مكاتب المخابرات الأميركية في تامبلهوف وأخذت هذه المعلومات بدورها أيضاً طريقها إلى أيدي سلطات الشيوعيين.

عند ذلك استنفرت واشنطن؛ وتم اتخاذ إجراءات أمن مشددة في مراكز القيادة، وأصبحت المراقبة الشديدة تشمل كافة العناصر بحيث كانت تخضع للتفتيش الدقيق وعند مغادرتها مبنى القيادة ولتستمر في الملاحقة والمراقبة خارجها.

ونظر المفتش الخاص الذي أرسلته واشنطن مباشرة إلى الأمور نظرة موضوعية كرجل غريب، وقام بدراسة الموقف. وكانت نظراته إلى ايرمغارد تحمل معاني الاتهام، على الرغم من أنها كانت معروفة في أوساط مكاتب المخابرات بالبراءة. وكان مصدر شكه هو عدم رغبته بالتعامل مع فتاة قادمة من ألمانيا الشرقية، ووضع الوثائق والإضبارات السرية للغاية في متناول يدها، وخاصة أن اعترفت بأنه سبق لها وتعاونت مع الشيوعيين فيما مضى. وبما أنه لم يقم أي دليل

ضدها فلم يكن هناك ما يبرر اعتقالها، ولهذا قام المفتش بإعطائها إجازتها على أن تبدأ الإجازة فوراً ودون أي تأخير.

ودخلت ايرمغارد المعزولة المذهولة لتجلس إلى جوار مكتب العقيد لكي تقول به ببساطة، وللمرة الأولى، ودون أن تلعب معه دوراً تمثيلياً.

ـ ها قد استلمت إجازتي الآن: وقال الميجور بيكر بأنني شخصية خطرة من وجهة نظر الأمن. ولقد أدركت بعد ذلك السبب، إنه لا يعرفني كما تعرفونني أنتم.

وألقى بريتشارد قلم الحبر الذي كان يكتب بواسطته بعنف فوق المكتب بحيث تناثر عدد من قطرات الحبر فوق المقوى الأخضر الموضوع تحت يده.

ـ يا للحماقة! ولماذا يقدم على عمل مثل هذه الأشياء؟... إن لي الثقة الكاملة بولائك وإخلاصك...

ثم ابتدأت الصورة تسود في ذهنه والغضب يتزايد في نفسه شيئاً فشيئاً، إلى أن قال:

إنه... إنه عمل موجه ضدي.. إنها مؤامرة، إنه هجوم موجه ضدي... إن هذا يعني بأن تصرفي قد وضع موضع النقاش بواسطة إحدى قاضمات الورق التي لا تعرف عن مجريات الأمور شيئاً. إنني سأعيدك إلى مكانتك فلا تقلقي لذلك، يا صغيرتي. إنني خدمت طويلاً في الجيش، ولقد اكتسبت خلال خدمتي الخبرة التي تمكنني من اجتياز العقبات.

وشعرت ايرمغارد بالنشوة لرد فعله، ولكنها لم تنس إكمال الدور

الذي قامت بإعداده بعناية فائقة. فقالت له:

كلا يا بريتشارد، إنني لا أرغب أن تقدم على أي عمل ما من أجلي، إذ يجب أن تفكر قبل كل شيء بعملك، وسمعتك، وعائلتك التي تنتظرك في بلدك. وإنني لا أريد أن أكون سبباً مبرراً لكي يحدث لك شيء من المتاعب، إنني سأجد عملاً مناسباً في برلين، وأؤكد لك بأن ذلك لن يغير من علاقتنا شيئاً. وعند ذلك نهضت من مكانها واقتربت من دولاب تعليق الملابس وأخذت معطفها ثم غادرت الغرفة وهي تحاول رسم ابتسامة خفيفة جداً فوق شفتيها.

وبقي بريتشارد جالساً في مكانه، محدقاً بقطرات الحبر المتناثرة أمامه، وهو يفكر ويتساءل: ترى هل هناك مبررات حقيقية لهذا الاتهام؟... وهل من الممكن لهذه المرأة أن تخدعه بعد أن عينها سكرتيرة له وحماها ثم اتخذها عشيقة له... ودفع عنه هذه الاحتمالات فرفع الهاتف وطلب قدوم الميجور بيكر لرؤيته.

ودارت المحادثة بشكل هادىء بل أهدأ بكثير مما كان يحضر لها بريتشارد. ذلك أن بيكر كان رجلاً منطقياً وهو يقدم حلاً معقولاً للموقف:

بما أن كافة الأفراد العاملين في المنظمة ليس لهم من حديث إلا عن فرولين ـ شميدت، فإنني أقترح نقلها ببساطة إليّ. ها... مثلاً إلى أحد المكاتب في إحدى قواعد القوات الجوية. وإنني أثق بأنكم ستتفقون معي بأنه من غير الحكمة الاحتفاظ بها هنا بعد أن ثارت هذه الضجّة بسبب الخلل في أجهزة أمن المعلومات.

ووافق بريتشارد على ذلك إذ أنه باستطاعته أن يستمر في التقائه مع ايرمغارد سيما وأنه ضمن لها عملاً مناسباً، ولكنه كان يعرف أيضاً

أنه لن يجد أمينة أخرى لمكتبه لها نفس كفاءة ايرمغارد وقدرتها على التنظيم.

ولكن هذه الأمور لم تكن إلا بداية المأساة، فقد أمسك الميجور بيكر أطراف الموقف بقبضته، فأعاد تنظيم المخابرات بشكل كامل، كما تم نقل كافة الأفراد بعضهم في إثر بعضهم الآخر إلى مراكز جديدة، كما أن بريتشارد عين في مركز آخر في الولايات المتحدة بحيث وضع تحت مراقبة محدودة. أما ايرمغارد فقد أُرسلت إلى إحدى القواعد الجوية في برلين بعد وضعها تحت المراقبة، على الرغم من فقدان المعلومات الهامة التي لم تتمكن ايرمغارد من إرسالها إلى روسيا. ومن المؤكد أنها تستطيع أن تجد بعض الميزات الفنية عن محطات الرادار وعن النماذج الجديدة للطائرات ولكن ذلك ليس بالشيء الهام بالنسبة لعمل الجواسيس.

وشاهد ويللوبير سيل معلوماته يتبخر بحيث لم يبق منه إلا ما يشبه خيط ماء ضعيف وهو يسيل في قعر نهر جاف. واستاء جداً من ذلك وأدرك أن الرفيقة ايرمغارد لم تعد في تنفيذها لمهمتها الحالية ذات نفع كبير للحزب، فأرسل لها بطاقة بريدية تحمل خاتم بريد ويبسبادن ويمثل المنظر الذي تحمله كازينو مشهور وكانت الرسالة مختصرة: آه لو كنت معنا هنا؟...

واستغرب الميجور بيكر عندما راقب النص المختصر على بطاقة البريد، فلقد كان على يقين من أن سيل المعلومات الذي كان يتسرب من القيادة قد توقف منذ عمل على تبديل أفراد الجهاز بمجموعهم تقريباً، ولكن المشكلة التي لا تزال تؤرقه معلقة، فهو يرغب بمعرفة الجاسوس الذي كان على علاقة مع روسيا. ولم يكن إيجاد

الجاسوس هو الهدف من أجل إنقاذ أمن مكاتب استخبارات الولايات المتحدة، ولكنه أصبح الهدف الشخصي لبيكر. ولقد حامت شكوكه حول ايرمغارد ولكنه كان يفتقر للبرهان الذي يتخذه كقاعدة يستند إليها في شكوكه فابتدأ بوضع الفخ للحصول على البرهان. وقد تم له ذلك عندما رآها ذات مساء مصادفة في أحد البارات، وقد ابتدأ ذلك الفخ يضيق أكثر فأكثر ليمسك بتلابيب تلك الفتاة السمراء.

كانت تجلس وحيدة وهي تتناول قدحاً من الكونياك، في زاوية معتمة من زوايا مشرب بار الملاك الأزرق. وكان يبدو عليها الضيق أكثر من أي وقت مضى وهي تنتقل ببصرها على الموائد إلى أن تقع أخيراً على أحد الضباط الملازمين في القوى الجوية. وابتسمت في سرها، وتناولت جرعة، ثم ركزت نظراتها عليه بانتباه كما لو كانت تأمره بأن ينظر إليها. وفعلاً ألقى الملازم نظره في اتجاهها وعند ذلك أدار ظهره إلى رفيقه المدني الذي كان يتظاهر بأنه مشتبك معه في حديث طويل.

وركز كل نظراته على ايرمغارد التي رفعت كأسها لتلتقي نظراتهما وتتشابك من فوق حافة الكأس. ولقد كانت فترة هذه النظرات من بعيد قصيرة جداً إذ انتقل الملازم بعد قليل إلى جوار فرولين شميدت وتناولا معاً كأساً آخر قبل أن يغادرا المشرب، وأذرعهما متشابكة وهما يتضاحكان ويتحادثان وكأن بينهما معرفة قديمة جداً.

استنتج بيكر من هذه الحادثة بأنه ليس من الصعب إطلاقاً إجراء أي تعارف مع الفتاة شميدت، كما كان لديه الشخص الملائم تماماً لهذه المهمة، وبعد هذا الحادث بيومين فقط وقع **ألفريد مينز، وهو**

أحد عملاء المخابرات الأميركية كضحية جديدة في يد ايرمغارد، كان يبدو شاباً صغيراً وهو يتقدم إلى فرولين مستأذناً منها الجلوس إلى جوارها وداعياً إياها لكأس من البيرة. وتكلما بعد ذلك قليلاً عن كل شيء، كما يحدث ذلك دائماً عندما يلتقي شخصان ويتم التعارف بينهما، واعترف لها ألفريد بأنه لا يمتلك إلا القليل من النقود، ولكنه ذكر لها باعتزاز بأنه كان الأوحد من الألمان ممن عمل مع المخابرات الأميركية في تامبلهوف ولكن عمله لم يكن من الأهمية في شيء، ذلك أنه اقتصر في عمله على ترجمة الوثائق الفنية والسياسية وكذلك أية وثائق أخرى كانت تصل من ألمانيا الشرقية. وبدا على ايرمغارد أنها مهتمة جداً بحديثه، وغادرا المشرب بعد ذلك بقليل ليختفيا وهما يتجهان إلى شقة الفتاة الألمانية.

وعاد ألفريد إلى زيارتها من جديد وفي كل مساء من أمسيات الأيام التالية. وقصت له قصتها بعد التحوير، فتكلمت عن الرجال الذين لعبوا دوراً في حياتها وهي تحدد الظلم الذي لحقها بسبب لاب، وعن مصيبة دورنر الفادحة، ولكنها أوحت له بأنها قررت أن تتخلى عن فكرتها في أن تقضي حياتها باكية ذكريات رجل ميت. وذكرت له أن الأميركيين كانوا كرماء جداً معها، وأنهم قوم أقوياء وأذكياء، ولكن النتيجة التي توصلت إليها بأنه لا يمكن إيجاد الثقة والروابط الصحيحة إلا بين الألمان أنفسهم.

وبما أنها كانت بحاجة إلى مواد جديدة لترسلها إلى ويللوبير فلقد قررت ايرمغارد ألا تضيع هذه الفرصة التي سنحت لها، على الرغم من أن اللحظة التي اختارتها لم تكمن باللحظة الملائمة، عندما ذكرت له منذ الليلة الرابعة التي كانا يقضيانها معاً بأنها وقعت في حبه.

وأجابها ألفريد بصوت مختنق قليلاً، وهو يعبّر لها بأنه يحبها أيضاً وبأنه مستعد للتضحية بحياته طوعاً لكي يجعل منها زوجة سعيدة. وعندما اطمأنت من هذه الإجابة طرقت ايرمغارد هدفها مباشرة، فأعلنت بأنه يستحيل عليها أن تتزوج معبودها ألفريد قبل أن تتم تسوية قضية دورنر فرونكوف بصورة نهائية، وأنها ترغب أن تعرف فيما إذا توفي أو لا زال على قيد الحياة. إنها قضية ثقة وضمير يجب وضع حدٍّ قبل أن تتمكن من أن تصبح فعلاً زوجة سعيدة لألفريد وهز ألفريد كتفيه، لأنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً لمساعدتها. ولكن ايرمغارد كانت تعرف الحلّ عندما جذبته إلى المقعد الطويل مرغمة إياه على وضع رأسه فوق صدرها، بينما كانت أصابعها الطويلة تنغمس في شعره الطويل، ولتقول له بلهجة كلها دلال وإغراء:

ـ هناك حل للخروج من هذه الأزمة. لقد تلقيت عرضاً من الشرق، وفيه أن بعض الأشخاص المسؤولين على استعداد لإخلاء سبيل دورنر مع تقديم ما يكفينا من المال، مما يمكّننا من العيش في فرنسا أو سويسرا... أو في أي مكان ترغب فيه وكل ذلك مقابل الحصول على لائحة بأسماء ضباط المخابرات الأميركية الجدد وأسماء عملائهم في ألمانيا الشرقية، وبصورة خاصة الرؤساء منهم، وهذه المعلومات كما ترى يا عزيزي ستصلهم عاجلاً أو آجلاً... إذن فلماذا لا نستفيد من هذه الفرصة السانحة لنعيش سعداء بعدها؟...

وشرعت تداعب أذن ألفريد الذي كان يبدي تردده. فلقد كان دوره الذي سيلعبه في هذه المرة دوراً جديداً، إنه دور الانتظار وتطبيق فن التعلق أي الصبر والانتظار لما سيقوم به الطرف الآخر، فلقد كان يتظاهر بأنه من المستحيل عليه الحصول على مثل هذه المعلومات، وحتى لو كان بإمكانه ذلك فإن هذا العمل يتطلب منه وقتاً طويلاً.

وكان يبدو على ايرمغارد التوتر الذي كان يتزايد رويداً رويداً، وكان يظهر ذلك واضحاً عند النظر إلى عينيها وسماع صوتها الذي كان يبدو حاداً وبشكل غير طبيعي في أغلب الأحيان.

ولكن في أقل من أسبوع تمكن ألفريد من تقديم ورقة شفافة ورقيقة عليها اللوائح الرسمية المطلوبة، وقد كان من البديهي بأن هذه اللوائح كلها مزورة، ولكن ايرمغارد كانت في أوج سعادتها وغبطتها فعرضت على ألفريد أن يتزوجا مباشرة، ولكنه أجابها بأنه يستطيع انتظارها تماماً ريثما تتمكن من تسوية أوضاعها وريثما تصبح النقود المطلوبة في حوزتهما.

وفي الليلة التالية غادرت ايرمغارد شميدت شقتها، وعندئذ كان يتحرك في أثرها وعن قرب رجلين، الميجور بيكر ومعاونه، اللذين كانا في انتظارها على عتبه دار منزل في الطرف الآخر للشارع. وقفزا إلى إحدى العربات التي تبعتها حتى محطة المترو ثم غادرت المترو لتأخذ سيارة أخرى ثم مرة أخرى إلى المترو ثم سيارة أخرى لكي تصل أخيراً إلى القطار المعلق الذي يصل بين القطاع الغربي وبرلين الشرقية، وكان الرجلان اللذان يراقبان ايرمغارد يقرآن إحدى الصحف وهما يتظاهران بالإنشغال في القراءة بينما كانت قبعاتهما تنخفض على وجهيهما. واستمرت الرحلة بدون أي حادث حتى لم يبق إلا موقف واحد قبل أن يدخل القطار في حدود برلين الشرقية، وعندئذ انتظر بيكر ومرافقه حتى غادر الركاب العربة ثم تقدما ليقف كل منهما إلى جانب من السيدة الشابة ليقولا لها بلهجة جافة: إنك موقوفة وعلينا اعتقالك.. وانقلبت على الفور ايرمغارد شميدت هذه الشابة الهرة الصغيرة المرحة إلى لبوءة مفترسة.

فصرخت وهي تقاتل ضاربة بأقدامها ناشبة أظافرها في أيدي الرجلين، ولكنهما تمكنا بالكاد من سحبها خارج القاطرة تماماً في اللحظة التي أغلقت فيها الأبواب التي تعمل بشكل آلي قبل أن يغادر القطار المحطة.

وجد الميجور بيكر في حقيبة يدها علبة السجائر التي تحتوي على ورقة الشفاف الرقيقة المتضمنة اللوائح والأسماء المطلوبة والتي سلمها إياها ألفريد بعد أن تمّ طيها بعناية وبشكل تبدو معه وكأنها جزء من الغلاف.

وبتاريخ العشرين من كانون الأول (ديسمبر) عام 1954، مثلت ايرمغارد شميدت أمام المحكمة العليا للبعثات الأميركية في برلين.

وقد اعترفت بجريمتها، كما اعترفت بأنها قامت بنقل الأسرار العسكرية إلى الروس وإلى منظمات ويللوبير السرية في ألمانيا الشرقية، ولقد برهنت باعترافاتها على كفاءة ممتازة لأنها بذلك جنبت نفسها إحضار عدد كبير من الشهود فيهم عدد من الضباط من أصدقائها وعشاقها، وكانت تبرر تصرفها خلال هذه المحاكمات منذ بدايتها وحتى نهايتها بأنها كانت ضحية لمؤامرة هدفها إنقاذ حياة دورنر فرونكوف بطل المقاومة. ولكنها لكثرة ما رددت هذه القصة توصلت هي نفسها إلى الاقتناع بها.

ولكن هذه المبررات لم تجد من يستمع إليها إلا محامي الدفاع الذي طلب التساهل معها وتطبيق المواد التي تنص على العقوبة بالحبس لمدة ثلاث سنوات فقط، ولكن القاضي امبروز فوللر من شيكاغو لم يبد أي تساهل من جهته فأصدر حكمه بالحبس لمدة خمس سنوات تقضيها في قلعة لاندسبرغ، تلك القلعة التي كانت مقراً لهتلر في يوم من الأيام.

وزمجرت ايرمغارد قبل أن ينتهي القاضي من تلاوة الحكم: كنت أفضل الموت. وبعد ذلك قام الحرس فاقتادها إلى مقرها الجديد المقفر.

أما العقيد بريتشارد ذلك الرجل الكفء، والذي كان ذا ماضٍ عسكري مشرف قبل أن تدخل ايرمغارد إلى حياته، فلقد استفاد من المخففات وصدر الحكم عليه بأنه غير مذنب لأنه تعاون طواعية في تقديم معلومات إلى الروس، ولكنه اتهم بالإهمال وعدم الحذر في اتخاذه من جاسوسة سوفياتية صديقة له، وقد التمس منه أن يقدم استقالته من الجيش ليخلد إلى المعاش.

فلور، البريطانية[*]
(Fleur)
(-)

كانت حسناء جميلة، جذابة وجريئة، وقد استخدمتها المخابرات البريطانية نظراً لجمالها في اصطياد المطلوبين. وكانت تتقن عدة لغات، وتكلف بالمهام الصعبة، وكانت تدعى إلى الحفلات الاجتماعية بترتيب من المخابرات البريطانية، وتصاحب علية القوم لتحصل على أدق الأخبار. إن أحد كبار المسؤولين الفرنسيين وقع في حبها، وعرض عليها الزواج، تاركاً أولاده وبيته، ولكنها صدّته بأدب قائلة إنها لا تريد منه هذه التضحية، وستبقى له صديقة مخلصة (بالطبع للحصول على المزيد من الأسرار التي كان يحدثها بها في ساعات صفائهما..).

كما أن أحد رؤساء الوزارات الإيطالية أيضاً وقع في حبائلها، وأصبح لا يفارقها. وفي عام 1945 علمت المخابرات البريطانية أن أحد كبار الجواسيس الألمان يقيم في سويسرا (تحت اسم الأستاذ اهردات) فأرسلوها إليه لتكتشف حقيقته وتساعد على اعتقاله.

(*) **المرجع**: سعيد الجزائري. «المخابرات والعالم». ص121 ـ 123.

كان يقطن في غرفة خاصة استأجرها في فندق، وكان لا يسمح لأحد بدخول غرفته بحجة خوفه من أن أحداً يعبث في مجموعة الآثار التي جمعها. وإذا أراد الخادم تنظيف الغرفة فليكن ذلك بحضوره. والحقيقة أنه لم يكن في الغرفة آثار قديمة بل كانت هناك أدوات التجسس (جهاز لاسلكي، ولوائح بأسماء عملاء ألمانيا في سويسرا الذين يتصل بهم ويتعاون معهم. هذا بالذات ما رغبت المخابرات البريطانية به).

توجهت فلور بأمر من المخابرات البريطانية إلى مدينة زوريخ في سويسرا، ونزلت في الفندق نفسه (هيرشن) الذي ينزل فيه اهردات. وبدأت تحاول لفت نظره حتى وقع في حبها كما كان مرتباً. وبعد أيام دعاها إلى غرفته لتناول كأسٍ من الويسكي.. وفعلاً لبّت فلور دعوته بسرور زائد، وأخذا يتبادلان الشراب حتى تأكد لها أنه أصبح تحت سيطرتها، طلبت منه أن يذهب إلى غرفتها في الطابق الأول، ويحضر لها ألبوم الصور من خزانتها لتطلعه عليها. وحالاً توجه إلى غرفتها.

وبعد خروجه قفزت إلى أوراقه وحاولت وضعها في حقيبتها. وفي هذه اللحظة دخل سكرتيره الذي كان يشك بتصرفاتها مع أستاذه، ويراقبها من ثقب الباب لدى خروج الأستاذ وقيّدها، حضر الأستاذ ليفاجأ بذلك الأمر، وصحي من سكرته وأقسم على تسليمها للسلطات. ولكنها كانت من الذكاء والتدريب بحيث تمكنت من الإفلات سابقاً من العديد من مثل هذه المآزق؛ فوعدته بإعطائه أسماء الجواسيس البريطانيين في ألمانيا وأماكن وجودهم مقابل أن يطلق سراحها.

ورضي بذلك وأخذ يكتب ما تمليه عليه من أسماء على تقريره

الخاطىء الذي ليست فيه سوى أسماء وهمية لا قيمة لها. وإذا فشلت فلور في مهمة فإنها نجحت في العديد من المهمات.

وكانت تنتقل من برلين إلى ميونيخ، إلى هامبورغ وهي تحمل جواز سفر هولندي، وطلبت منها المخابرات البريطانية الحصول على الشيفرة الألمانية البحرية، وعملت جهدها حتى أوقعت أحد ضباط البحرية الألمان في غرامها. وحصلت منه على الشيفرة التي تتخابر بها المدمرات الألمانية في البحر. وقد ساعدت الشيفرة على معرفة استعداد الألمان في معركة (جوتلند) البحرية المشهورة.

فليفالي ديكينسون(*)
(Flifali Dickenson)
(- 1893)

هي إحدى أشهر جواسيس المخابرات اليابانية، والجاسوسية البارعة في حادثة بيرل هاربور.

وعلى هذا الأساس، أمكن خلال الحرب العالمية الأولى محو تلك الخرافة التي كانت تقضي بعدم استخدام المرأة في أعمال الجاسوسية. فلقد أثبتت التجارب خلال هذه الحرب تفوق العبقرية النسائية في أعمال التجسس، واستمرت هذه التجربة بنجاح خلال الحرب العالمية الثانية على الرغم من ازدياد حذر الرجال واحتياطاتهم الدائمة. ذلك أنه من النادر أن يشاهد أي جنرال يذهب إلى النزهة حاملاً مخططات هجومية في معركة مقبلة، كما يندر أن يترك الضباط وثائقهم السرية في غرف الفنادق التي ينامون فيها. أما بالنسبة للجنود، فإن غريزتهم تدفعهم للشك بصورة آلية بكل امرأة تطرح عليهم كثيراً من الأسئلة.

إن منظمات الاستخبارات اليابانية في هذه الأثناء لم تحسب أي حساب لعدم الثقة التي يتخذها المسؤولون عادة تجاه النساء فقامت

(*) **المرجع**: كيرت سنجر «أعلام الجاسوسية العالمية». مرجع سابق. ص237 ـ 255.

باستخدامهم. وكانت مبررات ذلك أنه مع إمكانية الرجل للنجاح في بعض المهام، فإنه باستطاعة المرأة أن تلمس نجاحاً مماثلاً في هذا الميدان إذا لم تتمكن من إحراز نجاح أكيد. وفي الواقع فإن اليابانيين اعتمدوا كثيراً على السيدات البيض اللواتي أمكن استخدامهن معهم أينما وجدوا. حتى لو كان ذلك في نيويورك نفسها. وكانت إحداهن من أكثر اللواتي استفدن مادياً من المقيمات في أميركا والعاملات لمصلحة اليابان. وقد كانت امرأة جميلة أرملة تبلغ الخمسين من عمرها.

يبتدىء المشهد في خريف عام 1943 حوالي الساعة الواحدة بعد الظهر، عندما كان يمر القطار الذي يصل بين نيويورك وسبرينغفيلد ماراً من اوهيو، تلك القرية التي كان من بين من يقطنها إحدى العائلات العريقة والنبيلة عائلة ويلاس. وكانت السيدة **ماري ويلاس** من السيدات اللواتي لهن اهتمام بالفنون الخالدة أكثر من اهتمامها بالسياسة اليومية. ولذا فليس من المعقول أن تصبح من هواة أعمال الجاسوسية، لمجرد تسلمها رسالة مصدرها الأرجنتين في صباح يوم من الأيام. وقد تفحصت السيدة تلك الرسالة فوجدت على غلافها خاتم بريد بيونس آيرس. وكان غلاف الرسالة من النوع المخصص للبريد الجوي، كما كانت الألوان الثلاثة الأبيض والأزرق والأحمر تزين أطراف المظروف الأربعة. ولم يكن عنوان الرسالة موجهاً إلى السيدة ماري ويلاس بل كان يحمل العنوان التالي:

«السينيور اينيه دو مولنيالي».

«2563 شارع او. هيجين بيونس آيرس. الأرجنتين».

يا للشيطان! وكيف أمكن وضع هذه الرسالة في علبة السيدة

ماري وهي موجهة لذلك المجهول المقيم في الأرجنتين؟... وبعد فترة قصيرة من الحيرة والتفكير في هذه المشكلة، قلبت السيدة ماري الغلاف ببطء وعندئذ قرأت عنوان الرسالة الذي كتب على ظهر المظروف:

«ماري ويلاس ـ 1808 او هاي ستريت».

«سبرينغفيلد ـ اوهيو».

وكان عنوان المرسل والمرسل إليه مكتوباً بواسطة الآلة الكاتبة بالإضافة لخاتمي البريد في بيونس آيرس ومركز البريد الرئيسي في نيويورك. وكان تاريخ الخاتم يعود لشهر مضى.

كان الأمر يبدو غريباً حقاً. ذلك أن السيدة ماري ويلاس لم تكن قد مضت إطلاقاً على مثل هذه الرسالة، كما لم يكن لها أية صلة للقربى أو أي صديق باسم مولنيالي ممن يقيمون في الأرجنتين. وأكثر من ذلك فإنها تثق تماماً أنها لا تعرف أي إنسان من الميقيمين في أميركا اللاتينية. وعندئذ فتحت الظرف وتصفحت تلك الرسالة الغريبة، فبدا لها أن النص المكتوب لا يقل غرابة عن غرابة الغلاف، ذلك أن الرسالة كانت تحمل توقيعها.

كما أن الورق المستخدم في الكتابة يماثل الورق الذي تستخدمه هي في رسائلها، فبدا لها أن ذلك الاستخدام ليس إلا خداعاً وتحايلاً، فلماذا أرسلت لها تلك الرسالة؟ وعندئذ أعادت قراءة المظروف وتفحصته، فوجدته يحمل تعليمات من البريد الأرجنتيني، وكانت تلك التعليمات ما يلي: إن صاحب الرسالة قد سافر دون أن يترك عنواناً له، تعاد إلى المرسل.

واستغربت ماري ويلاس كما تضايقت في الوقت ذاته، وتساءلت

ترى من هو ذلك الذي تجرأ فاستخدم عنوانها وقام بتزوير توقيعها؟... بل هناك ما هو أدهى من ذلك، فلقد كانت كتابة النص مليئة بالأخطاء اللغوية والكتابية، مما يجعل السيدة ماري تخجل من مثل هذه الكتابة. وعندما قرأت نص الرسالة تصورت أن كاتب الرسالة هو شخص أجنبي لا يجيد الإنكليزية. وكانت الرسالة كالتالي:

صديقتي الغالية:

إنك ولا شك تتساءلين عما حدث لي بسبب انقطاعي عن الكتابة إليك لمدة طويلة، لقد مرت بي ظروف سيئة خلال الأشهر الماضية. فابن أخي الذي أحبه حتى العبادة أصيب بالورم الخبيث في دماغه، ومن المعتقد أنه لن يبقى حياً. إننا نشعر جميعاً بالضيق ولا ندري ماذا نفعل، إذ على الرغم من تطبيق علاج أشعة اكس وتسليطه على رأسه بأمل القضاء على الألم، فإن الأمل مفقود في الشفاء الكامل وحتى في تخفيف الألم، ولذلك أراني في ضيق شديد.

وها قد انقضى شهر تقريباً منذ طلبت مني أن أحدثك عن مجموعة الدمى التي امتلكها وأخبرك بأنني مضطرة لإلقاء محاضرة في المركز الفني، وسأتحدث في هذه المحاضرة عن الدمى وما تمثله لي. ففي الواقع لقد حصلت على بعض الدمى الجديدة ولا أمتلك حالياً إلا ثلاث منها من الطراز الإيرلندي، وإحدى هذه الدمى الثلاث تمثل صياداً إيرلندياً وعلى ظهره شبكة صيد الأسماك. أما الثانية فتمثل امرأة مسنة تحمل حطباً على ظهرها. أما الدمية الثالثة فهي غلام صغير.

ومن المؤكد بأن السرور سيظهر على كل من سيستمع إلى محاضرتي.

أما في هذه الأيام فإنني لا أستطيع التفكير إلا بابن أخي المريض.

كنت كتبت لي أنك بعثت برسالة إلى السيد شو وأنه قد مزق رسالتك. أنت تعرفين أنه كان مريضاً، كما أن سيارته كانت معطلة، ولكنهم الآن يعملون على إصلاحها. ولقد اجتمعت ببعض أفراد أسرته الذين أعلموني أن السيد شو سيعود إلى عمله قريباً. وإنني لآمل مخلصة ألا تكون رسالتي مملة، إذ ليس لدي في هذه الأيام من الأنباء ما أذكره لك.

لقد قمت برحلة قصيرة لمتابعة أعمال والدتي، قبل أن تقوم هي بتقديم تصريح الدخل إلى مصلحة الضرائب. ولهذا السبب تجدين أنني أتمرن للضرب على الآلة الكاتبة، ويبدو في هذه الفترة أن الجميع منهمكون في أعمالهم، كما أن الشوارع تعج بالمواطنين.

أرجو أن تحملي إلى عائلتك أجمل ذكرياتي، وأعتذر عن تقصيري في الكتابة إليك خلال فترة طويلة.

المخلصة

ماري ويلاس

ملاحظة هامة:

كانت والدتي راغبة بالذهاب إلى لوفيل، ولكن بسبب الضيق الذي تعانيه فقدت أجلت مشروع لوفيل إلى أول الشهر حسب التقويم اليوناني.

واحتارت السيدة ويلاس في أمرها، لأن تلك الرسالة تحتوي بعض المعلومات فعلاً، وهي معلومات شخصية. فلقد كان ابن أخيها مصاب فعلاً بالورم الخبيث في دماغه، كما أنها كانت قد ألقت

محاضرة في أحد نوادي سبرينغفيلد عن مجموعة الدمى الفنية التي تمتلكها، ولكنها لم تكن لتمتلك أية دمية إيرلندية كما أنها لم تكن قد ذهبت إلى نيويورك عندما تم وضع هذه الرسالة في البريد. وأخيراً، فإنها لا تستخدم الآلة الكاتبة إطلاقاً، وأنها تبعث بكافة رسائلها بعد أن تحررها بخط يدها.

واستخلصت أن أحدهم أراد مداعبتها والسخرية من هوايتها في جمع الدمى. ولم ترَ السيدة ماري ما يستوجب إعلام الشرطة، ولكنها قررت في ذات الوقت أن تضع الرسالة تحت تصرف السلطات المسؤولة في مصلحة البريد، على أمل اكتشاف ذلك الشخص الذي قام بتلك الدعابة السمجة. وعمل مستلم البريد في سبرينغفيلد على نقل الرسالة إلى رجال المباحث، وعكف رجال المباحث في واشنطن على تفحص الرسالة بعناية فائقة. فلقد بدا لهم غريباً أن تكون هذه الرسالة بريئة. وأنه لتفكير سطحي فيما لو توهموا فعلاً أن موضوع الرسالة ليس إلا دعابة تافهة، فإذا كان النص لم يتعلق برجال الرقابة في البريد، لكن مرسلة الرسالة سيدة، والنص يوحي بأنها تكاد تكون جاهلة وذات خيال محدود. فلقد كان هناك احتمال آخر لدى رجال المباحث هو أن تكون هذه الرسالة موضوع شبهة تامة، لاسيما وأن الظروف الغريبة وعنوان المرسل الخاطىء تسمح بطرح الكثير من الافتراضات. وكان لدى أحد رجال المباحث تفسير محدد لذلك، ولقد كان ذلك التفسير عرضة للخطأ من أساسه، ولكنه جدير بأن يكون بداية للتعمق في البحث والاستقصاء.

كان ذلك التفسير الذي جاء مع أحد الباحثين ويدعى ب.ن. أن الدمى الجديدة ليس إلا اصطلاح رمزي يقصد منه المراكب الحربية الجديدة التي أصبحت على استعداد للذهاب إلى الباسيفيك لدعم

الأسطول البحري الموجود هناك. أما الصياد الإيرلندي فيقصد منه حاملة الطائرات، لأن هذا النوع من المراكب كان يحمل الشباك فعلاً لاستخدامها في التمويه. أما المرأة العجوز التي تحمل الحطب، فلعل المقصود منها هو إحدى البوارج الحربية التي يدخل الخشب في بنائها. أما الغلام الصغير فلعله رمز لتعيين مدمرة جديدة. أما السيد شو الذي قام بتمزيق الرسالة، فيجب أن يكون المدمرة ي.س.س. شو التي تم تدميرها تقريباً عند الهجوم على بيرل هاربور. ولقد تم إصلاح هذه المدمرة في هونولولو بعد أن تم تركيب مقدمة جديدة لها، وهي تقوم حالياً بجولاتها جيئة وذهاباً بين جزر هاواي وسان فرانسيسكو.

عندما أذاع المباحثي ذلك الاعتراض بواسطة الجهاز المرسل، وأعلم فيه أن الموضوع ربما كان متعلقاً بالمدمرة ي.س.س. لويسفيل، كان ذلك الطراد في عرض البحر منذ فترة طويلة، وكانت أسرار ذهاب ورجوع هذه المدمرة محاطة بسرية تامة، وكأن القائم على الجهاز كان يريد أن يقول إن المعلومات المطلوبة لا يمكن تزويد أي إنسان بها. وكان ذلك التفسير فريداً من نوعه فرفضت سلطات مراقبة البريد الأخذ به، ولكن بما أن هذا العمل قد دخل طوراً جديداً فقد أصبح كل ما يمس موضوع الدمى من قريب أو بعيد جديراً باهتمام مكاتب المباحث في واشنطن.

واستدعيت السيدة ماري ويلاس لتتحدث مع المباحثي «ب» عن مجموعة الدمى التي وصلتها حديثاً، بعد أن سافرت من أجلها إلى نيويورك وقامت بشراء عدد من الدمى من مخزن يعتبر من أكثر المتاجر شهرة في أميركا في اختصاصه بهذا النوع من البضاعة، **وكان هذا المخزن يقع في شارع ماديسون قريباً من الشارع رقم 62**، وكانت

تحدثت طويلاً مع صاحبة ذلك المخزن، تلك السيدة التي كانت على جانب كبير من الرقة والدماثة. وسألها المباحثي «ب»: وهل تحدثت مع صاحبة المتجر عن بعض المواضيع العائلية؟... واعترفت السيدة ماري فقالت: نعم تحدثت قليلاً، إذ كانت السيدة ديكينسون رقيقة جداً، وقدمت إليّ إحدى الدمى الغالية الثمن والنفيسة كهدية منها. إنها تمتلك مجموعة رائعة، كما أن بضاعتها جيدة وأصيلة.

ـ وهل تحدثت إليها عن مرض ابن أخيك؟...

ـ نعم. لقد حدثتني السيدة ديكينسون عن المآسي والنوائب التي أصابتها وعن المرض الذي قضى على زوجها، وهذا ما جعلني أفكر رأساً بابن أخي المريض بذلك المرض الخطر.

وكانت الأدلة ضد السيدة ديكينسون دامغة... ولكنها لم تكن كافية، لأن السيدة ماري ويلاس عددت حوالي عشرة أسماء على الأقل ممن هم على اطلاع على مجموعتها وعلى مرض ابن أخيها. ولذا فإن مخزن الدمى لم يكن إلا أثراً من بين الآثار. وأراد المباحثي ب. في البداية أن يتحقق منها جميعاً، إذ أنه كان يزداد اقتناعاً يوماً بعد يوم بأن هذه الرسالة تخفي وراءها كارثة ما. فلقد عمل طويلاً من قبل في مصلحة الرموز والمصطلحات، وأصبحت لديه غريزة وحاسة لا تخدعانه. وكان غريباً أن يكون هناك أخطاء لغوية في تلك الرسالة، ولكن على الرغم من كافة تلك الأخطاء فإنه كان يعتقد بأن كاتب أو كاتبة هذه الرسالة من المواطنين الأميركيين.

كما وأن قصة الدمى هذه قد أربكته، لاسيما وأنه كان على يقين بأن هذه الخدعة لا بد وأنها تستند إلى واقع ثابت هو المعرفة العميقة لعالم الدمى وما تمثله، ونتيجة لكل ذلك فقد قرر البدء في تحرياته في

الأوساط التي تعرفها ماري ويلاس، وبصورة خاصة في الأوساط الفنية وعند بائعي الدمى. وعلى اعتبار أنه موجود في سبرينغفيلد، فقد شرع في بحثه في الوسط الفني حيث كانت ماري ويلاس قد ألقت محاضرتها، ولكنه لم يستخرج من تحرياته ما يفيد.

إذ بدا له جميع المواطنين الذين درس أوضاعهم وكأنهم لا يعرفون شيئاً خارج حدود مدينتهم سبرينغفيلد. ولم تكن لدي أي منهم أية فكرة أو له أية علاقة بالأرجنتين. ومن هنا ـ وبسرعة خاطفة ـ أدرك المباحثي «ب» أن طريق تحرياته ليس سهلاً، لكن ذلك لم يضايقه. ذلك أنه لم يكن في عجلة من أمره، كما كان أمامه متسع من الوقت يكفيه للقيام بتحرياته والوصول بأبحاثه إلى هدفه المقصود. لقد كان يشعر بغريزته أنه ممسك الأثر الواجب اتباعه، وأن هذه الرسالة التي بين يديه ليست حادثاً طارئاً أو منفصلاً. ولذا طلب إلى البريد أن يعمل على حجز أية رسالة تحمل في طابعها ولو شيئاً بسيطاً من مراقبة الغموض، لاسيما إذا كانت تتعلق بتجارة مجموعات الدمى. ولقد عملت مصلحة البريد على إرسال الرسائل العادية والمتعلقة بأعمال تجارة الدمى إلى المباحثي «ب» وذلك بهدف تمكينه من دراستها ثم أخذ فكرة واضحة عن تجارة تصدير واستيراد الدمى.

وبعد ذلك، أزفت اللحظة المناسبة للذهاب وإلقاء لمحة خاطفة على ذلك المتجر الواقع في شارع ماديسون ورؤية هيئة هذا المخزن الذي اكتسب شهرة واسعة طيبة، وأصبحت لائحة زبائنه تتضمن عدداً من نجوم السينما. إنها ولا شك تجارة راقية للذين يزاولون هواية جمع المجموعات الثمينة، وكانت واجهة المحل تزدان بأحرف كبيرة زرقاء:

وكان المستودع يتضمن قطعاً نادرة، لا يقل سعر أية واحدة منها عن الخمسين دولاراً، كما كانت اللعب القديمة التي يعود قدمها إلى تاريخ الاحتلال، ذات ثمن مرتفع يصل حتى مبلغ خمسمائة دولار، كما كان المخزن يتضمن متحفاً، ومسرحاً للعرائس. وقد كان المخزن يضم من بين محتوياته تحفاً جميلة من البورسلين يعود تاريخها إلى أيام فيكتور هيغو، ومصدرها باريس، وأخرى تمثل ماري انطوانيت ولعباً ثمينة من الحدود الأميركية، بالإضافة إلى أصنام منحوتة يقوم بنحتها المواطنون في غيانا الهولندية ويستخدمونها كدمى يلهو بها أبناؤهم. كما كان يوجد دمى صينية ذات وجوه مستديرة أتقن أمر طلائها بعناية فائقة، وتم تصفيفها على أحد الرفوف. **والخلاصة، فقد كانت واجهة المخزن تتضمن مجموعات مختلفة من الدمى من كل نوع، بدءاً من الخيول الصغيرة، وحتى نماذج عن الكرة الأرضية، بالإضافة إلى الأثاث الصغير الذي يلهو به الأطفال، وقد تم تصفيف كل ذلك وترتيبه بشكل فني بديع.**

كانت صاحبة هذا المخزن السيدة فليفالي ديكينسون أرملة قصيرة القامة، جذابة ومغرية، أنيقة في مظهرها وثيابها، كما أن طول قامتها كان ينقص قليلاً عن المتر والستين سنتيمتراً، أما وجهها الصغير فكان ذا تقاطيع جميلة، وكانت تضع نظارة على عينيها ولكن على الرغم من ذلك، فإن الناظر إليها لم يكن ليعتقد بأنها تبلغ الخمسين من عمرها.

وقام رجال المباحث بزيارة مخزن الدمى هذا، ولكنهم لم يطرحوا على صاحبته أية أسئلة، بل كانوا يتظاهرون أثناء تجوالهم

بالمخزن كأنهم زبائن عاديين كما كانت أعينهم اليقظة تبحث وتدقق في كل شيء، وكانوا يقفون طويلاً وهم يتأملون كل شيء، ثم ينصرفون دون أن يشتروا شيئاً.

وكان الهدف من زياراتهم هو التعرف على دقائق المكان في محاولة لأخذ انطباع عام عنه، بعد ذلك كان لا بد من الوصول إلى المرحلة التالية في التحريات وهي القيام ببحث سري عن ماضي السيدة فليفالي ديكينسون. وكانت المعلومات الأولى عن نشأتها وأصلها كافية لتبديد كافة الظنون التي حامت حولها.. وطلب رجال المباحث في واشنطن من السلطات المسؤولة عن القطاع الغربي تزويدهم بالمعلومات الكافية عن سيرة هذه السيدة، ذلك لأنها كانت قد قضت ردحاً من حياتها في كاليفورنيا وبقيت فيها إلى أن توفي زوجها هناك في عام 1937، فمن البديهي أن تتوفر المعلومات عنها في هذا القطاع، وأن تكون سيرتها معروفة لدى المسؤولين هناك. وكانت سيرة حياتها كالتالي:

ولدت في ساكرامنتو، ثم أتمت دراستها العالية في جامعة ستانفورد. وكان اسمها وهي صغيرة **مالفينا بلوفر**، كما أن ملفات القضاء لم تتضمن أي شيء عنها. **وكان اسمها مدوناً في لائحة أعضاء منظمة الصداقة الأميركية ـ اليابانية**، ولكنها انفصلت عن هذه المنظمة منذ عام 1937 عندما رحلت إلى نيويورك للبدء في تكوين حياة جديدة. **وكان لزوجها العديد من المكاتب في سان فرانسيسكو في نفس المبنى الذي كانت تقيم فيه القنصلية الألمانية والقنصلية اليابانية**. ولعل وجود تلك المكاتب في نفس المبنى لم يكن إلا محض مصادفة مجردة. ومهما كان من أمر، فليس في ذلك أي شيء يمكن اتخاذه دليلاً ضد السيدة ديكينسون.

وعلم رجال المباحث أن فليفالي كانت تعمل فيما مضى في أحد المصارف التابعة لاتحاد منتجي الفواكه في كاليفورنيا، وكانت شهادة رؤسائها القدامى فيما يتعلق بسلوكها شهادة ممتازة.

كانت السيدة فليفالي تقطن وزوجها في الوادي الإمبراطوري، في وسط المستعمرة اليابانية. وكانت تتمتع بحماسة تمكنها من النجاح في الأعمال التجارية، وقد نجحت خلال عدد من السنين في الدفاع عن المصالح المصرفية الأميركية ـ اليابانية. وكان من بين زبائنها عدد من ضباط البحرية اليابانية، ولكن ذلك كله كان قد مر وانقضى قبل وقوع كارثة بيرل هاربور بوقت طويل، ولذا وبصورة آلية، فقد كان لا بدَّ من اعتبار كل تلك الحوادث بمثابة مبررات لدفع الظنون عنها.

واضطرت السيدة فليفالي أثناء السنة الأخيرة من حياة زوجها إلى صرف كثير من أموالها. فقد أصيب السيد ديكينسون بمرض في قلبه، وكانت نفقات علاجه في المستشفى ولدى الأطباء كثيرة، ولكن يبدو أن السيدة فليفالي عرفت كيف تدبر أمورها.

وعندما توفي زوجها ووجدت نفسها أرملة انتقلت إلى نيويورك، وذلك قبل عيد الميلاد لعام 1937 بقليل. وعملت كبائعة في أحد الأجنحة المخصصة لبيع الدمى وذلك في واحد من أكبر متاجر نيويورك. **وفي السنة التالية افتتحت متجراً لحسابها الخاص في شارع ماديسون**. ولم تنقض على ذلك فترة طويلة حتى أصبح لها الكثير من الزبائن، وذلك لما كان لها من صفات جعلتها شخصية ومحبوبة من زبائنها. وبذلك تمكنت من تكوين ثروة جيدة في فترة وجيزة. وكانت تتحدث أحياناً عن متاعبها فتردد بين وقت وآخر وبشكل مؤثر قولها: منذ وفاة زوجي لم يعد للحياة طعم بالنسبة لي. وبذلك كانت تعطي

الانطباع على أنها ليست سوى امرأة ضعيفة تحاول أن تكون شجاعة. وقد تكونت لدى زبائنها فكرة جيدة عن أخلاقها ووفائها، كما أن كلاً منهم كان يعرف تماماً أنها لا تبيع إلا الأشياء الثمينة.

كانت فليفالي على علاقة مع الكثيرين من هواة جمع الدمى الذين يعيشون في ثمانٍ وأربعين دولة منتشرة فوق سطح الأرض، كما كانت كثيراً ما تسافر في رحلات وتذهب إلى الغرب أحياناً لتقابل بعضاً من زبائنها في هوليوود.

واستمر رجال المباحث في مراقبتهم خلال عدد من الأسابيع، ثم ثارت شكوكهم فجأة ـ **عندما اكتشفوا بطاقات صغيرة تم إخفاؤها بين طيات اللفافات التي تغلف الدمى.** وكانت هذه البطاقات تتعلق بأوصاف الدمى، ولكن أسلوبها في الكتابة كان شبه أسلوب كتابة الأولاد الصغار. وكان من المحتمل تماماً أن يكون ذلك الأسلوب هو لغة مستخدمة في تجارة الدمى، ولكنه كان من المحتمل أيضاً ألا يكون ذلك الأسلوب إلا صيغة تم الاتفاق عليها. تُرى، من يستطيع أن يؤكد ذلك؟...

بدأت السيدة فليفالي تشعر بالقلق بين وقت وآخر، فلقد بدأ بعض الزبائن الغرباء يترددون على متجرها ويقومون بطرح الأسئلة التي يستنتج منها بوضوح تام أنهم يجهلون التميز حتى بين دمية فرنسية وأخرى ألمانية. وتساءلت: ترى هل يقوم رجال الشرطة بمراقبتها؟.. إن هناك بعض الأمور التي تسير على غير ما يرام. فلقد انقضت أشهر كاملة لم تتلق خلالها من رئيسها أية أوامر، كما لم يصلها من الأرجنتين أية معلومات. ترى ماذا سيصيبها لو تم اعتقال أصدقائها المقيمين هناك؟... وماذا سيحل لها لو وقعت تلك الرسالة التي

أرسلتها إلى موليفالي بين أيد أخرى غير التي أرسلت إليه؟...

ووقعت فليفالي فريسة للقلق، ثم حاولت أن تستعيد رصانتها. فلقد تم تحضير وإعداد الأمور بشكل جيد، يستحيل معه أن تتردى هي نفسها في الأخطار، لو لم تصل الرسالة إلى ذلك العميل المقيم في الأرجنتين، فهناك أمل كبير في أن يكون قد تم إتلافها هناك، وأن هذه البلاد من أميركا اللاتينية سوف لن تبذل جهدها من أجل إعادة الرسالة التي لم يبحث في طلبها أي إنسان. وحتى لو تم وقوعها بين أيدي المراقبة البريدية، فليس على المسؤولين إلا أن يعملوا على إيقاف تلك الريفية والتي تقيم في سبرينغفيلد.

ولكن فليفالي لم تتمكن من طرد هذه الهواجس المضطربة، رغم محاولتها التفكير بشكل منطقي سليم، ورددت في سرها بأنه كان يجب اعتقالها منذ وقت طويل فيما لو سارت الأمور على غير ما هو مرسوم لها، ولكن هؤلاء الرجال الغرباء الذين يترددون بين فترة وأخرى على متجرها ترى ما هو هدفهم؟. **وكانت تحتاج إلى تجميع كل قوى العالم لكي تتمكن من طرد شبح الخوف الذي يستولي عليها.**

وتساءلت: ترى هل يكون هؤلاء الرجال من الجواسيس الذين يعملون لمصلحة خصمها، وذلك التاجر الذي يقيم في شارع إنكلترا الجديد والذي استخلصت الكثير من زبائنه ومن الذين كانوا يقيمون في هوليوود؟.

فمن المحتمل إذن أن يكون هو وراء كل ذلك. وكان ذلك الرجل الذي تتهمه شخصياً مربوع القامة، مستقيماً في عمله. وكان يتهمها بأنها تقوم ببيع الدمى الزائفة. وبما أنه كان خبيراً في عمله فقد كان في اتهامه لها شيء من الحقيقة. ولكن ما ذنبها، فيما إذا كان

هواة جمع الدمى لا يميزون بين الأصيل والمزيف؟ إنها ولا شك تجارة رابحة، ولكنها لا تزال بعيدة عن الوصول إلى هدفها الذي يتلخص في جمع مائة ألف دولار. إذن فلا بد من أن تستمر في عملها.

أصبح الأرق يعاودها متزايداً يوماً بعد يوم، وفي إحدى تلك المرات، استيقظت في منتصف الليل وارتدت المئزر فوق ثياب نومها ثم انتعلت حذاء خفيفاً في قدميها وذهبت إلى مطبخها الصغير. فلقد كانت بحاجة إلى قدح ساخن من القهوة. وقرأت صحيفة المساء ثم تفحصت أسعار البورصة، وأدركت أن أعمالها كانت في تحسن جديد وهذا شيء يعيد إليها الطمأنينة إلى حد ما، وبعد أن تناولت قهوتها، بدأت تفكر في مشروع جديد.

لماذا لا تسافر إلى الغرب؟.. طالما أن البائعة التي تعمل عندها واسمها ألما تستطيع أن تتدبر في أمور المتجر. وإذا حدث أي شيء في فترة غيابها، كقدوم رجال المباحث للتفتيش عنها في مخزنها مثلاً، فسيصلها علم بذلك. وعندئذ لن تعود إلى متجرها أبداً، وستعطي ألما عنواناً مضللاً أثناء غيابها كأن يكون فلوريدا، أو كندا مثلاً. لقد كان الزمن هو الشيء الوحيد الذي تحتاج إليه. إن الزمن وحده هو الذي يستطيع إيجاد الحلول المناسبة للكثير من المسائل الصعبة. وعليها أن تعمل على مقابلة ضابط قديم من ضباط البحرية اليابانية والذي يعمل حالياً في بورتلاند في الأوريغون. وهذا سيعمل على مساعدتها فيما لو تطورت الأمور بشكل سيء، لكي تستطيع أن تتجه إلى المكسيك ومن هناك ستبحث عن مكان آخر لتقيم فيه، أو ستنتظر قدوم غواصة يابانية لتأخذها بعيداً عن الأخطار. ولكنها رددت

بأن كل هذه الكوارث لم تكن إلا من صنع خيالها، وأنها لم تقع في أي مكروه حتى الآن، ولن تقع فيه مستقبلاً.

وكانت تباشير الفجر تنبعث عندما أدركها النوم أخيراً، لتستيقظ في وضح النهار وكابوس ثقيل يرهقها، وكان العرق يبللها. فقررت وهي ترتدي ثيابها بأنه من الأفضل لها أن تسافر دون أن تحمل معها شيئاً من المتاع، وذلك على افتراض أنها تقع تحت أبصار المراقبة فعلاً. فاستقلت سيارة أجرة وذهبت إلى متجرها. وكانت ألما هناك، فبعثت السيدة ديكينسون بالفتاة إلى المصرف لتسحب منه مبلغاً جيداً يكفيها لمصروف عدد من الأسابيع يمكنها من تغطية كافة النفقات التي تتطلبها رحلتها الطويلة، بالإضافة لمصاريف متجرها. ثم أبلغت البائعة بأن أخاها سيزور المتجر من وقت إلى آخر للتأكد من سير الأمور على ما يرام، ثم أرسلت رسالة صغيرة إلى أخيها، وبعدها استقلت سيارة أجرة إلى شارع ماديسون. وعند عودتها شاهدت أن هناك سيارة أخرى تسير في أثرها.

ترى ماذا جرى؟.. ترى هل تم اكتشاف نشاطها الخفي على الرغم من كل احتياطاتها؟ وحاولت مرة أخرى أن تفترض بأن أسباب مخاوفها تدعو إلى السخرية، فقد كان هناك المئات من السيارات في شارع ماديسون ولكن على الرغم من ذلك فقد قررت بألا تغامر في أية مخاطرة. فطلبت من السائق الذهاب بها حتى مخازن ساك الكبرى، في الشارع رقم 34، وكانت هذه المخازن تتكون من أبنية متجاورة وكل منها ذو طوابق متعددة، وتتصل هذه الأبنية التي تفصل الشوارع فيما بينها بواسطة جسور مغطاة. ورددت في سرها بأنه من الصعب على أي إنسان أن يتمكن من ملاحقتها في هذه المتاهة ذات الدهاليز والطوابق والمخارج المتعددة. واختفت فعلاً في قلب زحام الجمهور،

ثم هبطت إلى الطابق الأسفل الذي كان أحد مخارجه يتصل مباشرة بمحطة قطار يسير تحت الأرض «المترو». ومن هناك اتجهت إلى محطة قطار بنسيلفانيا وخيل إليها بأنها تلاحظ وجود رجل ذو مظهر يدعو إلى الشبهة.

وكان جميع الرجال في الواقع ـ وفي هذه اللحظة ـ يحملون في مظهرهم ما يثير فيها عوامل الشك للأسباب التي كانت تهددها. وآمنت في تلك اللحظة بأنها بدأت تفقد السيطرة على أعصابها، فعملت على تجاوز الحاجز دون أن تبذل جهودها في محاولة لشراء بطاقة ركوب القطار، وصعدت على متن أول قطار غادر المحطة...

كان ذلك القطار متجهاً إلى فيلادلفيا. فدفعت ثمن البطاقة إلى مفتش التذاكر وقررت أن تغادر القطار في تلك المدينة، لتستقل القطار الذاهب إلى شيكاغو ومن هناك إلى بورتلاند في الأوريغون.

ووصلت إلى بورتلاند، فاتجهت إلى ذلك المطعم الذي كان يعمل فيه ذلك الوسيط والذي كان يتوجب عليها أن تمرَّ به، وكان يبدو لها بأن كافة الجمهور المندفع كالسيل يمر من تحت قدميها، عندما رأت فجأة ذلك الإعلان الذي كان يتصدر الواجهة الزجاجية للمطعم «مغلق»، وكان لهذا الإعلان وقع على نفسها بمثابة الصاعقة التي سقطت فوق رأسها، ذلك أن الأمل أصبح ضئيلاً في أن تتمكن من العثور على وسيط آخر من المقيمين في كاليفورنيا، ولأن أكثر أصدقائها من اليابانيين كانوا قد عادوا إلى بلادهم، أو انتشروا في بلاد أخرى. ولم يكن لسفرتها الطويلة هذه أية فائدة، وهذا ما جعلها تشعر بالضيق أكثر من أي يوم مر بها وانقضى.

وعادت إلى نيويورك من جديد، بعد أن انقضى عدد من

الأسابيع، وكانت دائماً تتعلق بخيط واحد من الأمل ـ هو ألا يكون رجال المباحث متتبعين لأثرها ـ فلو أمكن اكتشاف أي شيء عنها لكان كل شيء انتهى منذ زمن طويل. . .

ومن البديهي أنه لم يقم أي دليل أو برهان على ما كان يقلقها حتى الآن. وبينما كانت تحاول التغلب على مخاوفها، كان رجال المباحث السياسية يعملون باستمرار في تتبع أثرها، وفي هذه الأثناء وقعت ثلاث رسائل أخرى في أيدي المراقبة. وكانت هذه الرسائل مما يثير الانتباه، على الرغم من كون الموضوع الظاهري هو الدمى المستوردة من المستعمرات أو من فرنسا. ولكن هذه الرسائل لم تكن لتحمل توقيع السيدة ديكينسون ولا ماري ويلاس، ولكن لثلاثة زبائن من أصحاب المخازن المشهورة في شارع ماديسون. وعندما حاول رجال المباحث معرفة مصدر الورق الذي سطرت عليه الرسائل، وشرعوا بتحرياتهم، أمكنهم العثور على ذلك المصدر، كما أمكنهم العثور على الآلة الكاتبة التي تم طبع الرسائل بواسطتها، وكان يمتلك تلك الآلة الكاتبة ثلاثة من الفنادق يقع أحدها في شيكاغو، والآخر في سان فرانسيسكو، والثالث في لوس أنجلوس. لقد خدعت السيدة ديكينسون تماماً عندما تصورت أن فرارها واختفاءها بين مخزنين كبيرين كفيل بأن يضيع أي أثر لها. فلقد كان رجال المباحث في أثرها أينما تنقلت بين مدينة وأخرى مع اتخاذ كل تدابير الحرص والحذر. ولقد أمكنهم الحصول على الأثر والدليل الذي تركته بعد أن قضت ليلة في كل من هذه الفنادق حيث تمت كتابة تلك الرسائل المتعلقة بالدمى ظاهرياً ـ وكانت العناوين التي أرسلت إليها هذه الرسائل الثلاث إلى أميركا الجنوبية ـ كما كان نص هذه الرسائل يحمل نفس الأسلوب المضلل الذي حررت به تلك الرسالة والتي

وصلت إلى السيدة ماري ويلاس. وكان مضمون الرسائل يبرز بوضوح الحالة النفسية اليائسة لكاتبة تلك الرسائل والتي كانت تطلب إرسال النقود، والرد على رسائلها. لقد انفصلت فليفالي عن العصابة، وها هي تطلب العون والنجدة بشكل واضح.

لقد كان شعور المباحثي «ب» وتحليله الأول للرسائل شعوراً واضحاً صحيحاً وتحليلاً خارقاً للطبيعة، لقد كان رمز «الدمى الإيرلندية» في الرسالة الأولى رمزاً يقصد منه فعلاً المراكب الحربية، **وإن تجارة الدمى النادرة كانت بحق من أكثر أساليب الجاسوسية خطورة. ولقد استفادت اليابان للحصول على أسرار الولايات المتحدة الأميركية.**

وقرر رجال المباحث السياسية تمديد فترة الانتظار، وهم على أمل التمكن من وضع أيديهم على شبكة خيانة هذه المرأة. وتم إعلام حكومة جنوب أميركا عن حقيقة محتوى علب الدمى التي كانت ترسلها فليفالي إلى هناك.

أخيراً... تم اعتقال السيدة ديكينسون ذات يوم وهي تقوم بتفقد صندوق الخزينة في أحد مصارف نيويورك، ثم تم قفل صندوقها على مبلغ نقدي قدره ثمانية عشر ألف دولار، ولم تقم بوضع هذا المبلغ في حسابها خشية القيام بسحبه عند الحاجة إذا ما اضطرت إلى سفر مفاجىء، وقد قام رجال المباحث بملاحقتها حتى صالة الصندوق. وفي هذه اللحظة فقط عملوا على إعلامها بأنها رهن الاعتقال، وهم آسفين لاضطرارهم للقيام بمصادرة كامل المبلغ الذي ربحته لقاء أعمالها في التجسس. فما كان من الأرملة الضعيفة إلا أن دافعت بضراوة.. وهي تنشب أظافرها محاولة البحث عن طريق للنجاة.

وأودعت السيدة ديكينسون في السجن كجاسوسة يابانية، وقد أمكن اكتشاف مبلغ آخر قبل البدء في المحاكمة، وكان مجموع هذا المبلغ يصل إلى الأربعين ألف دولار. . . ويقارب ذلك المبلغ ما كان يتوجب عليها أن تدفعه كمتأخر عن ضرائبها. وقد تم مصادرة أموالها جميعاً، كما تم تقدير المبلغ الذي ربحته من عملها في الجاسوسية بستين ألف دولار تقريباً.

ابتدأت محاكمتها في شهر حزيران (يونيو) من عام 1944، وكانت المرة الأولى يعرّض فيها أحد الأميركيين نفسه لعقوبة الموت لقاء القيام بأعمال الجاسوسية. وكانت ترتدي الثياب التي كانت ترتديها يوم اعتقالها، ومعطفاً أنيقاً جداً بني اللون من التويد، وقبعة صغيرة زرقاء. ولم تغير الستة أشهر التي قضتها في سجن النساء شيئاً من طبيعتها ولا من مظهرها. كانت شاحبة الوجه، جامدة التقاسيم.

وقد حاول محاميها كسب الوقت محاولاً تأخير مواعيد المحاكمة حتى نهاية الحرب، فاعترض مدعياً أن موكلته قد وقعت مريضة أثناء توقيفها في السجن، ولكن المحكمة أكدت بأنها تتمتع بقلب سليم وأن حالتها الصحية جيدة، وبالإضافة إلى ذلك فإن وزنها قد ازداد بمقدار عشرة كيلوغرامات تقريباً أثناء إقامتها في السجن.

قام النائب العام بتلخيص عملها، فكشف النقاب عن حقيقة مخزن الدمى في شارع ماديسون وكيف كان واجهة جيدة للتمويه والتستر على أعمال التجسس، كما ذكر بأن المتهمة كانت على اتصال مع ضباط البحرية اليابانية، وكان الدليل على أقواله تلك الرسائل الأربع، والتي كانت نصوصها تتحدث ظاهرياً عن الدمى، ولكنها في

الواقع لم تكن إلا رموزاً ومصطلحات اتفق عليها. إلى أن قال النائب العام:

إن الدمى تتكلم، وها نحن أخيراً قد توصلنا إلى فهم تلك اللغة التي تتكلمها.

وأرادت السيدة ديكينسون أن تعترض على مصادرة أموالها، كما بذلت جهودها لتجنب عدسات المصورين، وشرحت دورها بصوت حاد وهي تدافع عن نفسها، وتنقص من أهمية عملها. كانت عيناها لامعتين ونبراتها مرتجفة، وكانت البراهين الدامغة أمام عينيها، فكان من المستحيل عليها أن تستمسك ببراءتها، ولكنها حاولت أن تؤثر في أعضاء المحكمة مدعية بأن تلك المعلومات التي أرسلتها لا تحمل في طياتها أية أسرار هامة، وأنها كانت تعرف بأن تلك الرسائل ستتعرض للمراقبة البريدية، ولذا فإنها لم تبعث بأية أسرار أو معلومات من شأنها أن تعرض أمن الولايات المتحدة الأميركية للخطر. وكان من اعترافاتها ما قالته:

ـ نعم! لقد فعلت ذلك بعقلية تجارية. فلقد فقدت كل ما ادخرته أثناء مرض زوجي، كما تقدم بي العمر، وحيدة في الحياة، فخشيت مجهول المستقبل ولقد عجلت في سبيل الحصول على ثروة اطمئن فيها على مستقبل أيامي عندما أبلغ سن الشيخوخة. ولقد كنت على يقين بأنني سأبقى بعيدة عن الشبهات.

ودافعت عن نفسها، وكأن دفاعها هذا كفيل بالإقلال من أهمية خطيئتها. ولقد خيل إليها بأن أسماء زبائنها ستكون بمثابة تمويه جيد لها، كما خيل إليها أيضاً أن تلك الرموز الماكرة ستكون لغزاً يستحيل إيجاد حل له. وفي الواقع، فلولا وجود ذلك المباحثي في واشنطن

والذي كان ذا إحساس خاص بمثل هذه المواضيع أو بالأحرى ذا إدراك عميق له، لتمكنت ديكينسون من استكمال الجريمة حتى آخر فصولها، **كما كان من الممكن ألا يتم اعتقالها والحكم عليها بالسجن لمدة عشرة أعوام لولا ذلك الخطأ الذي وقع نتيجة لاستبدال العميل** الموجود في الأرجنتين بعميل آخر دون أن يكون للسيدة ديكينسون علم بذلك ودون إبلاغ هذا العميل الجديد بالدور الذي تقوم به سيدة الدمى. **إنها هفوة صغيرة تلك التي كانت السبب في تسليمها إلى أيدي المباحث السياسية.**

فورتينيه(*)

(Fortinee)

(-   )

إحدى الجاسوسات البريطانيات في باريس ضد الألمان، وفي لندن ضد جواسيس الغستابو من الهنود.

كيف برعت فورتينيه في مهامها؟

وأيّ خدمة أدّتها للحلفاء ضد ألمانيا ومخابراتها؟

كان الهدوء يرفرف على فندق السلام، وقد استلقى في دعة وسط المروج النامية في أحد أطراف باريس..

وكان الوقت مبكراً، حين دلف دورلانج ـ صاحب الفندق ـ إلى البهو، فتفقد النشاط الذي كان يبديه الخدم، ثم دلف إلى مكتبه، فتناول سجل النزلاء، وراح يراجع الأسماء المسجلة فيه، حتى استقر بصره على اسمين كان كل حرف منهما ينطق بأنهما ألمانيان.. هينزز أوربس وهوف أوربس.. ابنا عم من تجار برلين..

واسترجع دورلانج في ذاكرته صورة الرجلين حين وفدا على

(*) المرجع: موريس برانس «الجاسوسات الفاتنات». ترجمة جهاد قلعجي. ص83 ـ 88.

الفندق في الليلة السالفة.. كانا متقدمين في السن.. وكان أول ما حرصا عليه، هو أن يظهرا بمظهر ذوي البذخ والسعة.. فما أن هبطا الفندق، حتى طلبا إلى صاحبه أن يفرد لهما أجمل غرفة، قائلين إنهما لا يضنان بمال في سبيل راحتهما، وإنهما قد يقضيان عاماً في باريس، فإذا شاء صاحب الفندق أن يحتفظ بهما في فندقه، فليعمل على توفير أسباب الراحة لهما..

وإذ بلغ دورلانج هذه المرحلة من ذكرى الرجلين، دق الجرس، وسأل الخادم الذي وافاه عن النزيلين الألمانيين.. ولكنهما كانا لا يزالان في مخدعيهما..

وعاد دورلانج يسترسل في أفكاره.. كانت الحرب في عنفوانها، وقد اجتاح الألمان أوروبا كلها.. وكانت لهم اليد العليا على باريس، فكان عليه ـ ككل فرنسي ـ أن يصانع النزلاء الألمان الذين يفدون على فندقه، سواء كانوا عسكريين أو مدنيين..

على أن ذلك لم يحل دون أن يفكر دورلانج، بينه وبين نفسه، في أن ضيفي الليلة السالفة كانا كاذبين فيما زعماه من أنهما تاجران.. فما هما إلا من رجال الغستابو..

وقطع عليه حبل التفكير، رنين جرس انبعث من غرفة النزيلين، فخف بنفسه لخدمتهما وبادره هوف قائلاً:

ـ هل لك أن ترشدنا إلى حلاق ماهر ـ أحسن حلاق.. إنك تعرف أننا ننشد خير خدمة، قبل أن نعنى بتعرف الأجر..

وقال دورلانج باحترام:

ـ إذن، فعليكما بصالون تيوفيل.. إنه قريب من الفندق.. وهو أشهر حلاقي باريس..

ولم يكن الفندقي مبالغاً، فقد كان صالون تيوفيل مقصد سراة باريس وعظمائها، لا لمهارة صاحبه وأعوانه فحسب، وإنما.. لفتنة ابنة الرجل، التي كانت تجالس العملاء وتسامرهم ريثما تحين أدوارهم..

وعلى مقربة من كنيسة سانت جنفييف ـ على هضبة سان هيلير ـ وجد هوف الصالون.. ووجد فروتينيه الحسناء جالسة إلى الخزانة، فما أن رآها، حتى بهره جمالها..

وكان غرام من أول نظرة.. واستجابت الفاتنة اللعوب، لداعي الهوى.. ومن ثم راح هوف يكثر من التردد على الصالون، لدرجة استثارت اهتمام صانع أقفال متواضع ـ من جيران تيوفيل ـ فراح يراقب الألماني المدله..

وبعد ظهر ذات يوم، وقد خلا الصالون من الرواد في فترة القيلولة، لمح صانع الأقفال هوف يدلف إلى المكان.. فجثم في حانوته يترقب خروجه ولكن الألماني لم يغادر المحل.. وأقبل عملاء وانصرف عملاء.. ودب النشاط في الصالون، حتى إذا جن الليل، خفت الحركة فيه، وبدأ العمال ينصرفون تباعاً ثم غادر تيوفيل وابنته الصالون، بعد أن أغلق أبوابه، ولما يبد للألماني أثر..

واسترعى الأمر فضول صانع الأقفال.. ولكن الغموض الذي شغله لم يلبث أن تبدد في الصباح، حين قصد إلى حانوته، فألفى صالون تيوفيل محاصراً بالبوليس..

وعلم أن جثة هوف الذي أبلغ ابن عمه السلطات نبأ تغيبه حتى ساعة متأخرة من الليل ـ وجدت داخل الصالون.. لا، بل في سرداب كبير تحته، وجدت فيه رمم وهياكل عظمية عديدة..

وأسفر التحقيق عن أن تيوفيل وفورتينيه كانا من أفراد حركة المقاومة السرية، وكانا يستدرجان الألمان إلى صالونهما، فلا تزال الفتاة تغريهم حتى توقعهما في سحرها.. وفي السرداب كانت تتعاون مع أبيها على صوغ خاتمة حياة صرعى هواها.

ولكن السلطات لم تعثر للحلاق وابنته على أثر.. فما أن اشتما الخطر، حتى بادرا إلى الفرار، فرحلا إلى شاطىء فرنسا الشمالي، ثم اجتازا المانش خلسة.

وعلى الشاطىء الإنكليزي أسلم تيوفيل آخر أنفاسه، بعد أن خاض المغامرة حتى نهايتها.. وترك فورتينيه وحدها.. فاتصلت بإدارة المخابرات السرية البريطانية فما لبثت جهودها في حركة المقاومة السرية الفرنسية، أن رشحتها لأن تشغل صفحة في سجلات هذه الإدارة، تحت الحرفين «ن.ب.».. وهو الرمز الذي أطلق عليها.

كانت أولى مغامراتها في حياتها الجديدة، أن عهد إليها بمراقبة ثلاثة من الهنود، كانوا يديرون متجراً لبيع أجهزة الراديو في لندن..

وانتقت الفتاة رشيد راجا ـ أحد الشبان الثلاثة ـ فسعت للتعرف به، زاعمة أنها فقيرة يتيمة تعمل في مشرب للشاي، وقد التحقت فعلاً بخدمته استكمالاً لخطتها..

وأعجب الشاب بها.. ثم انقلب الإعجاب هياماً.. حتى إذا اطمأن إلى أنها تبادله حباً بحب، شرع يضرب على وتر كان فيه هلاكه.. إذ أبدى لها رغبته في الزواج منها، لولا حاجته إلى المال كي يعد لها حياة رغدة.. وأفهمها أن طريق ثرائهما ميسر لو أنها

استطاعت أن تستدرج ضابطاً معيناً من ضباط البحرية الذين يترددون على مشرب الشاي لتحصل منه على بعض المعلومات عن عدد غواصات بريطانيا، وقطع أسطولها الاحتياطي، ومستودع ذخائر البحرية، ومراكز مخابراتها اللاسلكية..

وتظاهرت الفتاة بالرغبة في التعاون مع عاشقها في إعداد حياتهما المستقبلة.. وغابت ثلاثة أيام، ثم عادت إليه بالمعلومات الكاذبة التي أوحى بها إليها رؤساؤها..

وما أن تخيل الشاب الهندي أنها وفقت في المهمة، حتى طار فرحاً، وسارع وشريكاه إلى إغلاق متجرهم من الداخل، ثم صحبوها إلى غرفة سرية في الطرف الخلفي من المتجر، أقاموا فيها جهازاً لاسلكياً للإرسال، فبادروا إلى إبلاغ برلين نتيجة أبحاث فورتينيه...

وفي اليوم التالي، كان الهنود الثلاثة في أيدي السلطات، والفرنسية الحسناء تستمتع بأول انتصاراتها في إنكلترا.

وتوالت انتصاراتها. وفي ذات يوم، عهد إليها بالتنكر في زي زعيمات فرق المرشدات الكشيفة، لمرافقة شخصية إسبانية من أعضاء حركة الفالانج، انتدبته حكومة إسبانيا لدراسة النظم الكشفية في إنكلترا. وأذنت له السلطات الإنكليزية، وهي تشك في أنه جاسوس يعمل لحساب الألمان.

ودبرت فورتينيه خطتها ببراعة فذّة. فأعدت للرجل استقبالاً رائعاً أشركت فيه بعض فرق الكشافة والمرشدات. واحتجزت له جناحاً فخماً في فندق اتينوم كورت، وبث بعض رجال المخابرات السرية في أركانه مكبرات للصوت دقيقة، أقاموها في أماكن خفية، لتحمل إليهم في ناحية أخرى من الفندق ما يدور في غرف الجناح.

وكانت في لندن إذ ذاك ثلاث بطاريات للمدافع المضادة للطائرات، فأشارت فورتينيه بنقل إحداها إلى حديقة عامة في مواجهة الفندق، على أن تدبر في كل ليلة غارة جوية، تطلق البطارية خلالها قنابلها على طائرات وهمية، وكانت هذه الخطة كفيلة بأن توهم الجاسوس بأن المدافع المضادة للطائرات تملأ جنبات لندن، متربصة لطائرات الألمان.

وكانت الخطوة الثانية، أن نظمت الفتاة لضيفها عرضاً كشفياً إلى جوار قصر وندسور. ولكن الضيف لم يعن بالعرض، بقدر ما عني بمنظر آخر أعد عمداً. فقد عسكرت حول القصر، الفرقة الوحيدة التي اكتمل تسلحها من فرق الجيش البريطاني الباقية في إنكلترا. وهال الضيف عددها، وعتادها، ودباباتها الضخمة، فسأل مرافقته عنها. وأجابته فورتينيه ببساطة:

ـ هذه فرقة صغيرة من حرس الملك الخاص، أعفيناها من الدفاع عن الجزيرة لتحمي حياة مليكنا.

وهكذا تعمدت السلطات ـ بمساعدة فورتينيه ـ أن تزيف حقيقة الأحوال في إنكلترا. وصحبته الفتاة إلى ميناء حشد فيها كل ما بقي في مياه الجزيرة من قطع الأسطول وزعمت أنها بعض وحدات احتياطية للدفاع عن الميناء. ورافقته في طائرة إلى اسكتلندا ومع أن السلاح الجوي البريطاني لم يكن يحتفظ في إنكلترا إذ ذاك إلا بعدد بسيط من طائرات هاريكين وسبيتفاير، إلا أن سرباً من هذه الطائرات راح يعترض الطائرة التي استقلاها بين آن وآخر، موهماً الإسباني أنها أسراب متلاحقة، تفد من كل اتجاه.

وخدع الجاسوس الإسباني. وانهالت تقاريره على برلين، توحي

بأن إنكلترا مسلحة أتم تسليح، وما الإشاعات المتواترة عن ضعفها إلا حيلة ماكرة لإغراء الألمان على غزو الجزيرة حيث يلقون أشنع الانكسارات..

وتردد الألمان في غزو إنكلترا.. فأعد الحلفاء حملتهم لغزو أوروبا.. وأوفدت فورتينيه إلى فرنسا في طليعة الغزاة...

فوزية حسام(*)
(Fawzia Hosam)
(-)

هي فتاة هندية من جزر المالديف اعتقلت من قبل رجال الشرطة ومكتب مكافحة التجسس الذين جاؤوا خصيصاً من نيودلهي لاستجوابها والتحقيق معها، بخصوص التجسس على البرنامج الفضائي الهندي. فاعترفت بذلك مع زميلتها الجاسوسة الهندية من المالديف أيضاً ميريام رشيدة. (راجع تفصيلياً اسم ميريام رشيدة).

(*) **المرجع**: المرجع السابق نفسه. ص248 ـ 249.

فيرا دوكس(*)
(Vera Dox)
(-)

كانت إحدى عميلات استخبارات المنظمات الفلسطينية في عام 1947 ـ 1948. وهي يهودية هاجرت من تشيكوسلوفاكيا واتخذت من «مقهى اللنبي» في القدس مركزاً لها حيث عملت مضيفة، كما كان يتردد العديد من ضباط المنظمات المسلحة الصهيونية. وكانت فيرا تتمتع بجمال خارق وتتقن اللغات العبرية والألمانية والإنكليزية. ولقد استطاعت عبر ما تسمعه من ثرثرات رجال المنظمات الصهيونية، وعلاقاتها الوطيدة معهم، وما يبوحونه من أسرار لها، واللقاءات الخاصة التي تتم في المقهى، أن تمد القوات العربية في مدينة القدس بمعلومات قيّمة، بالإضافة إلى المواقع والحواجز التي تقيمها الهاغاناه في الطالبية وحانيا.

وقد ألقى أفراد منظمة «ليحي» القبض عليها عن طريق الصدفة. وتبين أثناء التحقيق معها أنها تتعاون مع استخبارات المنظمات الفلسطينية.

(*) **المرجع**: نزار عمار. الاستخبارات الإسرائيلية. ص184.
و«الجاسوسية في العالم». تأليف مجموعة من المؤلفين. دار الحسام. بيروت. ص231 ـ 232.

فيفان أولشن (*)

(Vivann Olchen)

(- 1944)

هي كبيرة الممرضات في المستشفى الرئيسي في عاصمة النرويج، أوسلو، والتي ساعدت ضابط المخابرات البريطاني «بنيت» ضد المخابرات النازية.

لماذا أقدمت فيفان على ذلك؟ وكيف؟

كان ذلك خلال احتلال الألمان للنرويج في أوائل سنة 1944.

ففي ساعة مبكرة جداً من صباح يوم مشرق، كانت «فيفان أولشن» كبيرة ممرضات المستشفى الرئيسي في أوسلو، عاصمة النرويج، واقفة في إحدى الشرفات تستنشق نسائم الصباح، فإذا بها تتبين شبحاً يتقدم نحوها مخترقاً أشجار الحديقة.. وما هي إلا لحظات حتى رأته بوضوح.. كان طياراً إنكليزياً يسير في إعياء شديد، متحاملاً على نفسه وقد غطت وجهه الدماء وتناثرت بقع كبيرة منها على ملابسه العسكرية. فأسرعت إليه فيفان تعينه على المسير، حتى وصلت به إلى غرفتها، وأغلقت أبوابها ونوافذها وهي تحمد الله على

(*) **المرجع**: موريس برانس «الجاسوسات الفاتنات». ترجمة جهاد قلعجي. ص37 - 43.

أن أحداً لم يرها وهي تؤدي المعونة لذلك الطارق الغريب في تلك الساعة المبكرة من الصباح..

وانطرح الشاب على أول مقعد صادفه وراح في غيبوبة.. فسارعت فيفان إلى تضميد جراحه، حتى إذا ما انتهت ـ وكان ما يزال غائباً عن وعيه ـ وسّدته أريكة مستطيلة في غرفتها وأغلقت عليه الباب من الخارج، وذهبت تؤدي واجبها، وكانت تعود إليه بين فترة وأخرى فتجده مستغرقاً في غيبوبته، إلى أن أفاق بعد ساعات، فلما تنبه إلى ما حوله قال لها بإصرار:

ـ لا بد أن أذهب الآن..

ـ ولكن ذهابك الآن في رابعة النهار ضرب من الجنون، فانتظر حتى يجن الليل عسى أن تستطيع الفرار دون أن يراك الألمان.. إنهم يملأون المدينة كما تعلم..

واطمأن الضابط الجريح إلى محدثته، وأفضى إليها بأن اسمه «بنيت» من رجال المخابرات البريطانية وأنه قدم مع جماعة من رفاقه في مهمة خاصة، ولكن الطائرة سقطت بهم في غابة قريبة قبل أن يصلوا إلى مقصدهم، فتحامل على نفسه وسار على غير هدى..

ـ لا بد أن تبقى حتى الليل.

ـ ولكنني أعرض نفسي بذلك للاعتقال بسبب هذه الملابس العسكرية التي أرتديها..

وفكرت فيفان لحظة، ثم بدا عليها أنها وصلت إلى حل، فقالت له:

ـ اطمئن.. لقد ترك أحد الممرضين العمل أمس، وتستطيع أن تحل محله..

وبعد لحظات تحول الطيار الإنكليزي إلى ممرض بالمستشفى، وارتدى ثياب الممرضين الأبيض، ولم يكن هناك ما يميزه عن باقي زملائه، إذ كان يتقن لغة البلاد كأحد أبنائها.. وقد قدمته فيفان إلى باقي الممرضين باسم «أورفيغ».. وانتهز «بنيت» فرصة انفراد فيفان فراح يسألها:

ـ ولكن ما الذي يدعوك إلى الاهتمام بي إلى هذا الحد؟

فبدت على وجهها مسحة من الكآبة وقالت له والدموع تترقرق في مآقيها:

ـ إنهم النازيون الأشرار.. لقد قتلوا والدي ـ صاحب هذا المستشفى ـ لأنه كان من رجال المقاومة السرية هنا..

وطاب لبنيت المقام في المستشفى.. ووجد فيه مركزاً صالحاً كل الصلاحية للقيام بمهمته التي كانت تنحصر في أن يبلغ القيادة البريطانية العليا أخبار النازيين في النرويج أولاً بأول.. ووجد في فيفان خير معين له في أداء هذه المهمة، حتى لقد ساعدته بالاتفاق مع رجال المقاومة السرية على إعداد محطة لاسلكية كاملة في المستشفى لا يمكن اكتشافها، وبذا أصبح يتصل بلندن مباشرة عن طريقها.

وكان متوقعاً أن ينشىء الألمان قاعدة حربية في النرويج يغزون منها الجزيرة البريطانية وكانت حركة المقاومة السرية في النرويج أدق حركة من نوعها في أوروبا.. لذلك كانت مهمة بنيت وزملاؤه من رجال المخابرات سهلة ميسرة.. وكان أحد زعماء هذه الحركة ينقل إلى بنيت مساء كل يوم تقارير مفصلة عن حركات الألمان، فيبلغها من فوره إلى لندن.. وكانت فيفان تتصل بنفسها في بعض الأحيان بزعماء المقاومة السرية وتجمع منهم الأخبار لتبلغها إلى بنيت.

وبعد قليل اتسع نطاق المهمة التي ألقيت على عاتق بنيت

وصديقته فيفان فلم تعد مقصورة على نقل الأخبار فقط، بل كان عليهما أيضاً أن يساعدا في تنفيذ حركة الحلفاء التي كانت ترمي إلى طرد الألمان من النرويج وذلك بإمداد حركة المقاومة السرية في النرويج بالمؤن والسلاح.. وقد استفاد الحلفاء من حياد السويد وقتئذ، لأنها كانت تميل إلى مناصرتهم، وتعمل على مساعدته ـ سراً ـ في نقل هذه المؤن والأسلحة عن طريقها.. فكانت قطارات البضائع التي تسير على خط ستوكهلم ـ أوسلو تحمل الأسلحة التي تأتي بها طائرات الحلفاء إلى ستوكهلم مخبأة في صهاريج البترول.. وكان الجيش السويدي يتعمد أحياناً أن يجري مناوراته على الحدود النرويجية، وبذلك تتاح الفرصة لنقل هدايا الحلفاء إلى النرويج..

وكانت مهمة بنيت وفيفان أن يتلقيا من لندن مواعيد وصول القطارات القادمة من ستوكهلم إلى أوسلو.. أو مواعيد مناورات الجيش السويدي، ويبلغاها لرجال المقاومة السرية في أوسلو ليكونوا متأهبين لتسلم هدايا الحلفاء القيمة من الأسلحة والذخائر والمهمات..

وكانت تتاح لبنيت أحياناً فرصة الاتصال بزعماء حركة المقاومة السرية اتصالاً مباشراً بأن يخرج إليهم في سيارة المستشفى السريعة النقالة ويمر تحت سمع النازيين والغستابو وبصرهم آمناً مطمئناً.

ووفِّق بنيت وفيفان كل التوفيق، وسجّلا عدة انتصارات باهرة.. فلم تكن هناك سفينة تبحر من أي ميناء في النرويج أو تمر بها، إلا وتعلم بها لندن، وكانت القيادة البريطانية العليا تعلم بموقع كل مدفع ألماني على شاطىء النرويج، وكل مطار أقامه الألمان، وعدد الطائرات التي به وأنواعها..

وسار كل شيء على ما يرام. حتى تحرج الموقف فجأة. فقد

أقبلت على المستشفى فرقة من الغستابو واستدعى قائدها فيفان وأبلغها في غلظة أنه قرر هو ورجاله الإقامة في المستشفى حتى يجدوا مكاناً أصلح لإقامتهم.. وقبل أن تجيبه داعب ذقنها بطرف أصبعه وقال لها مازحاً:

ـ هيه.. أيتها الحسناء.. أتفضلين أن يكون بين ذراعيك ضابط عظيم مثلي، أم جثة مريض ميت من مرضاك؟

فأجابته على الفور:

ـ مع احترامي لسيدي القائد، أفضل جثة الميت.

فضحك طويلاً، ثم أمرها بجمع كل من في المستشفى من الموظفين والخدم، فلما جاءته بهم أمرهم بأن يقدم كل منهم أوراقه المثبتة لشخصيته، حتى إذا ما وصل إلى بنيت قال له:

ـ لقد فقدت مني تذكرتي منذ أيام.. وسيكون عندي بدلاً منها غداً.. فصاح به القائد يحذره من عدم الحصول على التذكرة في الغد..

وفي المساء شرب القائد ورجاله كثيراً من الخمر، وأثقلوا من مزاحهم السمج مع ممرضات المستشفى ومرضاه.. حتى فيفان فقد اختصها القائد بأوفر نصيب من هذا المزاح.. فتحملوا جميعاً هذه السماجة حتى أثقلت الخمر رؤوس الطغاة فانطرحوا نائمين حيث كانوا.. وعندئذ انتهز بنيت الفرصة وصعد إلى محطته اللاسلكية السرية فأبلغ لندن ما حدث.. وفي نفس الوقت كانت فيفان قد ذهبت إلى مركز زعماء المقاومة السرية، وعادت قبل أن يستيقظ المخمورون، فانفردت ببنيت وقالت له:

ـ إن هناك مهمة خطيرة تنتظرك.. ستجد في السيارة التي تنتظر خارج المستشفى صندوقاً كبيراً عليك أن تذهب به حالاً إلى

ستوكهلم، مخترقاً الطريق السري الذي يجهله الألمان.. وسيصحبك خبير بهذا الطريق.. وفي مطار ستوكهلم ستكون في انتظارك طائرة لتقل هذا الصندق فوراً إلى لندن...

ـ وماذا يحوي هذا الصندوق؟

ـ لا أعلم.. وليس علينا إلا أن ننفذ الأوامر..

ـ وما الذي ستفعلينه مع هؤلاء الأوغاد الذين جاؤونا من الجحيم؟

ـ لا تقلق علي.. هيا لا تضيع الوقت..

وانطلق بنيت.. انطلق بعد أن احتضن فيفان وقبلها قبلة طويلة.. قبلة اعترف كل منهما خلالها للآخر بحبه الدفين.. وكانت أول وآخر قبلة لهما، إذ قدر لهما ألا يلتقيا بعد ذلك..

ومضت أيام.. ولم ينتبه أحد من الغستابو لغياب بنيت أو يسأل عنه.. وذات يوم أقبلت إلى المستشفى امرأة حسناء لتقيم حيث كان يقيم رجال الغستابو.. وعرفت فيفان من رجال المقاومة النروجيين من هي هذه الحسناء.. هي فرولين دنتر زعيمة جاسوسات النازي في الحرب العالمية الثانية. وقد وصلت ليلاً وأوت إلى فراشها مباشرة بعد أن قضت بضع دقائق في حديث سري مع قائد الغستابو..

وفي نفس الليلة وصل إلى فيفان نبأ مصرع بنيت.. لقد أتم مهمته بنجاح وأوصل الصندوق إلى مطار ستوكهلم، وسلمه للطائرة، فطارت به إلى لندن.. وكان هذا الصندوق يحوي قنبلة صاروخية من تلك القنابل التي كان الألمان قد بدأوا يمطرون بها لندن منذ تشرين الأول (اكتوبر) 1944 وكانوا يجربونها في النرويج، حيث استطاع رجال المقاومة السرية النرويجيين الحصول على واحدة منها، هي التي أرسلوها مع بنيت إلى ستوكهلم، ومنها إلى لندن ليعرف الحلفاء سرها

ويتأهبوا لمقاومة خطرها في الوقت المناسب.

وبينما كان بنيت عائداً إلى أوسلو تعطلت به السيارة قرب الحدود بين السويد والنرويج.. فاضطر أن يواصل السير على قدميه.. وما زال يسير حتى ضل الطريق، وإذا به يقع وسط معسكر للألمان فلما حاول الفرار أطلقوا عليه النار وقتلوه..

وتلقت فيفان النبأ المفجع فارتعد كيانها من هوله، وعادت إلى المستشفى مذهولة، وكأنما ليس بينها وبين الأحياء صلة أو سبب.. وكان رجال الغستابو نائمين على الموائد مخمورين كعادتهم كل ليلة، فخفت إلى غرفتها وكأنها اعتزمت أمراً.. ولكنها ما كادت تصعد السلم حتى رأت أمامها فراولين دنتر تأمرها في غلظة ووقاحة أن تعدّ لها الحمام..

وأعدت فيفان الحمام.. ونادت فرولين دنتر التي بلغت وقاحتها أن أمرتها بأن تعينها على الحمام.. فأعانتها.. وتركتها بعد دقائق جثة هامدة غارقة في ماء المغطس الساخن..

وخرجت فيفان من الحمام لتلقي أمامها قائد الغستابو يصعد السلم ويسألها في غطرسة:

ـ أين سيدتك؟

فأشارت إلى الحمام.. ولم تنكر جريمتها..

وبعد أيام كان اسم فيفان أولشن يحتل مكانة في سجل شهيدات المخابرات البريطانية.. فقد أعدمها النازيون في برلين.

فيكتورين كاري(*)
(Victorine Kari)
(-)

كانت **فكتورين كاري** فتاة تعسة تربت في مأوى تابع للإسعاف العام في فرنسا، ولا أهل لها ولا أقارب. ولمّا اشتد عودها وحان ميعاد خروجها من المأوى التقطتها عائلة من مدينة اميان واستخدمتها كوصيفة. ورق أسيادها لحالها وأعجبوا بها فعنوا بتربيتها وتثقيفها.

وأصبحت منطقة اميان بعد حين ميداناً لحشد الجيوش، فرأت العائلة التي آوت فكتورين من الحكمة أن تلتجىء إلى مقاطعة بريتاني لاجتناب ويلات الحرب. ولكن الفتاة أعلنت عن رغبتها في البقاء لتحرس المنزل، فكان لها ما أرادت ولم ترحل مع الراحلين.

خلا الجو للصبية الحسناء، وكانت أنوثتها قد اكتملت وتلألأ جمالها ففتن كثيرين، فأقامت في غرفة ابنة أسيادها، وتربعت على عرش قصر أولياء نعمتها، وزهت كبراً، ونسيت أيام الشقاء ووحشة الملجأ. وتعلقت بعد حين بموظف شاب وقضت معه شهرين أو ثلاثة ينعمان بنزوات الشباب ويخرجان معاً للهو والمتعة بين يوم وآخر. ثم

(*) **المرجع**: جان بردان «جاسوسات ألمانيات». ص120 ـ 123.

كثر زائروها وتركت الحبل لعشاقها على الغارب.

وفتحت لها بعد حين أبواب نادي أركان الحرب الذين كانوا يمرون بالمدينة. وحلت للضباط عشرة فتاة جميلة خفيفة الظل سهلة القياد. وتقربت فكتورين من الضباط ولاسيما كبارهم، وعنيت بإرضائهم عناية خاصة.

وكانت ذات مساء بصحبة ضباط أوستراليين يتنزهون في أبفيل، فطرحت على قائدهم الذي كان يخطب ودها أسئلة مريبة أثارت ظنونه. وفي اليوم التالي أخبر الضابط موظفاً من دائرة مكافحة الجاسوسية التابعة للقيادة الفرنسية بأمرها. واتفق أن أبصر هذا الموظف فكتورين بعد يومين في بولوني بين ذراعي شاب بلجيكي يزعم أنه لاجىء وموضوع تحت الرقابة لاشتباه المكتب الفرنسي الثاني (مكتب الاستعلامات ومكافحة الجاسوسية) بسلوكه.

وبلّغ الموظف الخبر إلى مفتشين في دائرة الأمن العام مرتبطين بدائرة مكافحة التجسس. وانطلق الثلاثة يطاردون الصبية ويحصون حركاتها ويتسقطون أخبارها.

ودعيت فكتورين ذات مساء إلى عشاء مع طائفة من الضباط بينهم عدد من الإنكليز. وتجرأت الفتاة في أثناء الحديث على طرح أسئلة ماهرة تتصل بحركات الجيوش وتنظيمها وإن بدت في ظاهرها بريئة.

وتأكد ضابط المكتب الثاني أن فكتورين تتجسس على الحلفاء، ولكن فخاً آخر نصب للإيقاع بالفتاة وهتك سرها. فقد تسلل مفتشا الأمن العام إلى منزلها بينما كانت هي في حفلة العشاء، وانتظرا عودتها ليراقباها. فلما رجعت إلى المنزل سارعت إلى الهاتف

واتصلت بمجهول بدون أن تذكر رقماً، وأسرّت إليه الأخبار التي استقتها من الضباط في الحفلة والتي كانت في الحقيقة ملفقة لا أثر للحقيقة فيها.

لم تعتقل الجاسوسة في الحال، بل إنها بخلاف ذلك تركت حرة تسرح وتمرح. واجتهدت الدوائر السرية الحليفة في أن تقدم لها أكبر مجموعة ممكن تقديمها من الأكاذيب والأخبار المختلفة. وأثبت التحقيق أن الهاتف الذي تستخدمه فكتورين في نقل الأنباء السرية إلى مستخدميها متصل بمركز الهاتف في اميان مباشرة ولا يخضع للرقابة.

وأوقفت بعد مدة وفتشت أمتعتها فوجد بينها ثلاثمائة وخمسة وستون ألفاً من الفرنكات ثبت أن معظمها جمعته الجاسوسة من مغامراتها الغرامية لأن الألمان كانوا يدفعون لها ثلاثة آلاف من الفرنكات فقط في الشهر أجراً لخيانتها. ومن العجب أن تكون فكتورين، على ما تتحلى به من ذكاء وفطنة وعلى البحبوحة التي كانت فيها، أن تشتغل بالجاسوسية مقابل مائة فرنك في اليوم وتتعرض للموت...

وتوصل المحققون بعد تفتيش المنزل إلى اكتشاف الوسيلة التي استطاعت الجاسوسة بفضلها أن تتصل بالعدو بدون أن يعرف مركز الهاتف بذلك. وتتبعوا الخط الممدود من غرفة فكتورين فاكتشفوا مركزاً هاتفياً ألمانياً نظمه كاهن ادعى أنه الزاسي وكان في الحقيقة ضابطاً ألمانياً برتبة زعيم.

كان هذا «الكاهن» قد أغرى فكتورين بالاشتغال بالتجسس. وكان هو مستودع أخبارها وأسرارها.

فيكي حكيم(*)
(Vicky Hakim)
(1911 ـ 1969)

هي إحدى الفتيات اليهوديات المصريات التي كلفت بأن تكون ممرضة الملك فيصل بن الحسين، ملك العراق؛ وقد اتهمت بأنها «قاتلة» الملك بالتعاون مع المخابرات البريطانية، والبعض الآخر يعتبرها بريئة من هذه التهمة.

فمن هي فيكي حكيم هذه (أو فيكتوريا)؟ وكيف وصلت إلى حاشية الملك؟ عن هذه المسألة، يجيب الكاتب ناصر الدين النشاشيبي تفصيلياً بقوله:

إن الممرضة التي تقدر أن تعطي المريض حقنة الدواء، تقدر ـ أيضاً ـ أن تعطيه حقنة السّم!.

وقد دخلت الفتاة المصرية «فيكي حكيم» حياة الملك فيصل بن الحسين ـ العراق وأصبحت واحدة من أفراد حاشيته، من الباب المخصص للأطباء، والممرضات!.

(*) **المرجع**: ناصر الدين النشاشيبي «نساء من الشرق الأوسط». دار الريّس للكتب والنشر. بيروت 1988. ص63 ـ 79.

وفي كتب التراث القديم، ككتاب «ألف ليلة»، وكتاب «الأغاني»، الكثير من القصص والروايات التي تثبت أن طبيعة السلطان هي التي تختار نوعية مستشاريه، وأن العوامل التي تتحكم في شخصية «السلطان»، كعامل المرض أو عامل الشهوة، أو عامل الطموح، هي التي كانت تختار نوعية الأشخاص الذين يُسمح لهم بشرف المنادمة أو بأفضلية الاقتراب أو التسلط على صاحب السلطة! فإذا كان السلطان شاعراً، أصبح الشعراء هم أصحاب الحظوة الأولى في بلاطه. وإذا كان السلطان مُحباً للغناء، أصبحت الجواري مع المطربين والمنشدين هم أصحاب الطبقة المقربة إلى قلب السلطان وإلى عقله! وإذا كان السلطان فارساً مغواراً يحب المعارك والفتوحات، ويحلم بالسيف والانتصارات، فإن الفرسان وأصحاب الخيل وقادة الكتائب ورجال الجيش وصفوف المحاربين هم الذين يتصدرون مجلسه، ويتبوأون مناصب حكمه.

ولكن إذا كان السلطان مريضاً، وكان مرضه من النوع الخطير، فإن الأطباء، والممرضات، وأهل الطبّ عامة، هم الذين يتحكمون في شخصه، ويلعبون بحياته، ويختارون خطواته!.

وقد كان الملك «فيصل الأول»، ملك العراق من هذا النوع الأخير.

فقد كان مريضاً. وكان مرضه المعلن هو تصلّب الشرايين. وكان مرضه الأخير هو ممارسة الحكم في بلد كالعراق وفوق شعب جبّار ثوري حار كشعب العراق. يضاف إلى ذلك، أن يجد ملك العراق نفسه ملتزماً بمعاهدة جائرة وظالمة مع دولة استعمارية متسلطة كبريطانيا العظمى، ومع سفراء إنكليز متغطرسين يتّسمون بالعجرفة

والصلف والغرور وقلة الأدب، وفي وسط هزات ثورية شعبية وانتفاضات عامة بدأت بعد عام واحد فقط من تسلّم الملك سلطاته الدستورية وإعلان استقلال العراق في عام 922، واستمرت حتى أواخر أيام حكمه..!.

لقد استمر الوطنيون العراقيون يشككون في وطنية الملك فيصل الأول، تماماً، كما بقي الإنكليز لا يشعرون بالاطمئنان نحوه، وبقي هو يشكو من الإنكليز وتعنتهم وعجزهم عن خدمة العراق وتطويره، كما يشكو من الوطنيين العراقيين بسبب جنوحهم إلى التطرف في أحلامهم السياسية، ويشكو من عجز بلده الفقير عن أن يمدّه بالمال اللازم لكي يحقق لهذا البلد آماله في التقدم والعمران، ويشكو من حياته العائلية التي يفتقر فيها إلى زوجة مثقفة ومتطورة وقادرة على أن تشاركه مسؤوليات الحكم، ويشكو من ولده البكر الذي لم يكن يملك من المزايا العقلية أو الذهنية أو الفكرية ما يطمئن والده على مستقبل «الولد» عندما يحكم، أو على مستقبل البلد عندما يحكمه.. ذلك الولد!.

في ظل هذه الحياة المملوءة شكوكاً، وشكاوى، وقلقاً، وهواجساً، والتي تدفع بصاحبها إلى المرض والعذاب، دخلت «فيكي حكيم» إلى حياة فيصل بن الحسين، ملك العراق!.

ونبدأ القصة من أولها..

في عام «1932»، عقد العراق معاهدة الصداقة والتحالف مع بريطانيا على أثر انتهاء الانتداب وانضمام الدولة العراقية إلى عصبة الأمم كعضو كامل ومستقل! وفي شهر حزيران (يونيو) من عام 1933 سافر الملك فيصل الأول إلى بريطانيا في زيارة رسمية تلبية لدعوة من

الملك جورج الخامس حيث احتفل به الإنكليز كرئيس دولة مستقلة وغمروه بالكثير من مظاهر الود والترحيب.

وبعد انتهاء الزيارة الملكية لبريطانيا، سافر الملك فيصل إلى سويسرا لقضاء بضعة أيام للراحة والاستجمام.. والعلاج!.

وكان معه في تلك الزيارة شقيقه الملك «علي»، وجعفر العسكري، وعادل ارسلان، وتحسين قدري.

ونزل الجميع في فندق «بيلفو» ـ أو «المنظر الجميل» ـ في العاصمة السويسرية، بيرن.

وفجأة، وبينما الملك يحدد لنفسه مواعيده مع الأطباء ويفكر في قضاء فترة ليست قصيرة في الراحة والعلاج، إذ بحركة «الأشوريين» تشغل الصفحات الأولى في صحف العالم، وترغم الملك المريض على أن يقطع إجازته ويعود فوراً إلى بغداد في شهر آب (أغسطس) من عام 1933!.

ما هي قصة هؤلاء الأشوريين؟.

إنهم مجموعات متباينة من بين عشرات المجموعات البشرية الأخرى التي نزحت إلى العراق بعيد الحرب العالمية الأولى، قادمة من تركيا ومن إيران. وقد أسكنتهم السلطات البريطانية التي كانت متنفذة في البلاد يومذاك في بعض القرى المسيحية الواقعة في لواء «الموصل» واعتمدت عليهم في تجنيدهم ضمن حرس محلي مكلّف بالسهر على سلامة القواعد البريطانية في العراق، ومنحتهم الامتيازات المالية والسكنية مع إعطاء الحق لأي مجند أشوري أن يحتفظ بسلاحه فور تسريحه من الخدمة وأن يعود إلى قريته الأصلية حاملاً معه ذلك

السلاح، إلى أن استطاع الأشوريون تشكيل كيان خاص بهم، وراحوا يطالبون بتوسيع رقعة الأراضي الممنوحة لهم ويصرون على وجوب تمثيلهم في وظائف الدولة ويصطدمون مع رجال الشرطة العراقيين في بعض المخافر الرسمية ويتحرشون بالكثيرين من أفراد قبائل «شمّر» الذين كانوا يجاورونهم في مناطقهم السكنية، مما دفع برجال «شمّر» إلى الدخول في صدام مسلّح ضد الأشوريين، الشيء الذي أدّى بِدَوره إلى وقوع عشرات من القتلى ومئات من الجرحى، وأدى بالتالي إلى التدخل الرسمي من الحكومة العراقية، ومن الجيش العراقي.

وتأزم الموقف! وتضاعف عدد القتلى! وتدخلت السفارة البريطانية في بغداد لكي تضع اللوم في هذه الحوادث على عاتق الحكومة العراقية وعلى الجيش العراقي وعلى أفراد من قبيلة «شمّر»! وأبرق رئيس الوزراء ـ وكان يومذاك هو «رشيد عالي الكيلاني» ـ إلى الملك فيصل في مقر استجمامه في العاصمة السويسرية يدعوه للعودة فوراً إلى بغداد..!

وعلى الفور، ترك الملك فيصل سريره، وأطباءه، وأحلامه في الراحة والاستجمام، وعاد إلى بغداد حيث اجتمع مع رئيس وزرائه ومع أعضاء الحكومة ومع السفير البريطاني، وبحثوا في تفاصيل الأزمة وناقشوا صحّة المعلومات المتوافرة، وخرجوا بنتيجة واحدة وهي أن اللوم في كل ما حدث لا يقع على الحكومة ـ كما تدعي السفارة البريطانية ـ وإنما يقع على الأشوريين الذي تحرشوا بالقبائل واعتدوا على القوات العراقية وقتلوا رجال البوليس العراقي معتمدين في ذلك على ولائهم للإنكليز وعلى تأييد السياسة الإنكليزية لهم ولأعمالهم!.

وبكل المكر الإنكليزي المعهود، والدهاء الاستعماري التقليدي المعروف، تلقت بريطانيا هذه اللطمة ببرود ظاهر، ثم راحت تستعد لمؤامرة جديدة، ضد العراق، وضد ملك العراق، وضدّ شعب العراق، وضد استقلال واستقرار العراق!.

أما الملك فيصل، وقد مضى على إقامته في بغداد مدة أسبوع واحد، استقرت خلاله الأحوال، فقد قرر أن يعود إلى سويسرا لكي يكمل علاجه، ويستأنف إجازته، وأن تكون العودة ـ في هذه المرة إلى أوروبا ـ عن طريق البحر!.

ومرّت الباخرة التي تحمل الملك، بميناء الإسكندرية حيث كان «رستم حيدر» أحد كبار رجال القصر الملكي قد اختار فتاة مصرية صغيرة وجميلة لكي تنضم إلى حاشية الملك وتسافر معه إلى أوروبا وتسهر على صحة الملك المريض في سويسرا..!

وكان اسمها فيكي، أو فيكتوريا!

وكانت يهودية.. مصرية... تسكن في ضاحية «المعادي»، وتجيد لعبة الورق وخاصة لعبة «البريدج»!

وكانت عائلة «فيكي» تقضي شهور الصيف في رأس البر! وكان للفتاة شقيقة لعوب مملوءة سحراً ودلالاً وذكاء. وفي ذلك المصيف الأرستقراطي ـ رأس البر ـ تعرفت العائلة إلى «رستم حيدر» الذي وقع في حب فيكي، فوعدها بأن لا يفارقها مطلقاً وأن يسافر معها إلى أوروبا وأن يضمّها إلى الحاشية الملكية!.

وهكذا كان!.

وصعدت «فيكي حكيم» ـ الممرضة الجديدة ـ إلى الباخرة التي

تحمل الملك فيصل في ميناء الإسكندرية، وسافرت معه إلى أوروبا.

وما أن وقع نظر الملك العراقي على الفتاة، حتى سألها بلهفة:

- هل تلعبين الورق؟!

وقالت لي «فيكي» [يقول ناصر الدين النشاشيبي]، وهي تروي لي قصص حياتها، وتستعيد ذكرياتها مع الملك فيصل في تلك الرحلة التاريخية:

- نظرتُ إلى وجه الملك فرأيت أمامي صورة طفل أو صورة ملاك! كان متعباً، فزاده التعب وسامة ورقة. وكان نحيلاً، فأضفى عليه النحول جلالاً وهيبة! وعندما كلمني أحسست وكأنه يُتمتم. وعندما أمرني بالجلوس قبالته إلى الطاولة لكي نلعب «البريدج» أوشكتُ أن أسحب يده لكي ألثمها!.

لقد وقعت فيكي في حب الملك.. أو هكذا كان شعورها. وركوب البحر، مع كل ما يوحي به الموج من أحاسيس وخيالات وأوهام، وكل ما يثيره من عواطف مكبوتة وذكريات مدفونة، قادر على أن يُقرّب القلوب من بعضها وأن يُغنّي للمسافرين ترانيم الهوى ويحيل متاعب السفر إلى أيام ممتعة نهارها سمر وليلها سهر!.

وما أثقل مرور الزمن في بعض الأحايين. ولكن «فيكي» استطاعت أن تجعل الملك فيصل يتمنى أن يطول الزمن وتطول مدة الرحلة، وأن لا يصل إلى الميناء الإيطالي الذي استقل منه القطار إلى سويسرا. لقد كان وجود «فيكي» على ظهر باخرة الملك بمثابة الثورة التي اشتعلت في قلبه وفي أعصابه. لقد نسي الملك الأوجاع التي يسببها له مرض تصلّب الشرايين، ولولا إصرار «فيكي» على ضرورة

إعطائه الحقن الطبية اللازمة في مواعيدها، لما شعر الملك المريض بحاجته إليها، ولما استسلم راضياً أمام إرادة «فيكي» بضرورة أخذها! كانت أعصابه متصلبة كما هي شرايينه. وكانت شرايينه متصلبة إلى درجة كان حدّ السكين عاجزاً عن قطعها أو اختراقها! وكان الإنكليز يعرفون هذه الحالة بتفاصيلها. وكانت «فيكي» بحكم عملها كممرضة تدرك خطورة حالة الملك وأثرها على تفكيره ونشاطه ومزاولة أعماله. لقد رأيت «فيكي» بعد أن مات الملك فيصل وجاءت هي إلى سويسرا، وسكنت في مدينة لوزان برفقة زوجها الباشا المصري. وعندما سألتها أن تحدثني عن قصتها مع الملك فيصل العراقي، وكنا نجلس على مائدة العشاء بجوار زوجها الباشا، وكانت هي تجلس بجانبي، شعرتُ بيدها تلمس ركبتي خفية من تحت المائدة، وكأنها أرادت أن تأمرني بالسكوت أو أنها انزعجت لسؤالي ولا تريد أن تجيبني عليه، إلى أن تكررت زياراتي لها، ولزوجها، وتوثقت بيننا عرى الصداقة وأصبحنا نذهب سوياً إلى سوق «الأنتيكا» بضواحي «لوزان» لكي نشتري ما نعثر عليه في تلك السوق من آنية بلورية قديمة، أو عصا أثرية، أو مخطوط مجلّد قديم، أو كتاب مصور عن الشرق الأوسط. وكانت السوق تقام عادة على شاطىء البحيرة الساحرة، وكان الشاطىء عادة بمثابة مسرح مفتوح في الهواء الطلق للعشاق والسياح والفقراء المشردين، وكنا نحرص على أن ننهي زيارتنا إلى السوق بالدخول إلى مطعم صغير مشهور بطهي السمك فنأكل ما نشتهي، ونشرب ما نقدر عليه، ونعود إلى قلب «لوزان» مشياً على الأقدام وحديثنا عن الذكريات لا يتوقف ولا ينقطع.

إلى أن مرضت فيكي ودخلت المستشفى الحكومي في لوزان لتلقي العلاج.

وقيل لي يومها أنها قد أصيبت بالسرطان.

وركبت سيارتي من «جنيف» وذهبت إليها أزورها في ذلك المستشفى الذي كانت تعالج فيه.

وعندما دخلت عليها كان الكرسي الوحيد في الغرفة مشغولاً بأحد الزوار. فجلست بجانبها على حافة السرير. ورأيتها ترفع يدها من تحت الفراش وتمسك بيدي ثم تقول لي بنبرة خافتة ومتقطعة ولكنها واضحة:

ـ هل تذكر سؤالك لي ذات يوم عن قصتي مع الملك فيصل؟

وأجبتها وقد داهمني سؤالها المفاجىء:

ـ أجل أذكر!.

قالت: إنني الآن مستعدة لكي أجيبك على سؤالك وأن أسرد لك القصة بتفاصيلها!.

وعدت أقول لها وعيني على الشخص الجالس أمامنا:

ـ ولكن مثل هذا الحديث سيُتعبك ويؤثر على حالة الجراحة التي أجريت لك، فلماذا لا نؤجل الكلام إلى فرصة أخرى؟

وابتسمت «فيكي» بصورة خاطفة، ومصطنعة، وكأنها يائسة من حياتها وقالت تسألني في ألم ظاهر:

ـ ومتى تكون هذه الفرصة الأخرى؟ وما هي؟ وأين هي؟ وكم عمرها؟!

ثم أضافت مع لمعة مفاجئة تتحكم في نظراتها الدامعة:

ـ ألم يخبرك «الباشا» عن مرضي؟ ألم يقل لك أنني مريضة بالسرطان وأن ما تبقى من عمري لن يزيد عن أسابيع معدودة؟

ثم شدتني بيدها وكأنها تمنعني من الانصراف:

ـ إنك ستبقى معي هنا حتى المساء، وستسمع مني كلاماً لم يسمعه مني قبلك أحد.

ولعل الزائر الوحيد الذي كان معنا في الغرفة قد شعر بموقفه الحرج، فاستأذنها بالانصراف، وتركنا وحدنا.. أو بالتحديد، ترك «فيكي» تروي لي أخطر وأدق ما سمعته من امرأة في حياتي!.

كانت «فيكي» عندما قابلتها لأول مرة في مدينة «لوزان» السويسرية قد تجاوزت الستين من العمر. كان كل شيء فيها قد شاخ وكبر إلا عقلها، وقلبها.. ودلعها! لقد رأيتُ فيها كل الذكاء الذي يتمناه الرجل في المرأة. أعني ذلك الذكاء الخطر، الوقّاد، اللمّاح، الخفيف الظل، السريع الفهم، البعيد المعنى، العميق الإدراك، المجبول بشيء من الثقافة وبشيء من الثقة وبشيء من الجمال! كانت رفيعة الجسم وكأنها واحدة من بنات المانيكان في محلات كريستيان ديور! وكان وجهها أبيض اللون يختلف كثيراً في بشرته وتقاطيعه عن وجوه بنات مصر السمراوات. وكانت في عينيها زرقة سماوية ما زالت رغم السنون تشعّ نوراً وبريقاً ومعنًى! ولولا بروز بعض عظام خديها عند أسفل العينين لما ظهرت علائم المرض على وجهها. وكانت تبدو كما اعتادت أن تبدو دائماً، في كامل أناقتها حيث أكملت تسريحة شعرها على الوجه المطلوب، وتجلّى اللون الوردي على أظافر يديها البيضاوين، وتدلى العقد الذهبي من عنقها العاجي، وارتسم خيط من

الصباغ الأحمر فوق شفتيها الصغيرتين، وعبقت رائحتها بأرق أنواع العطر الفرنسي. .

وكانت «فيكي» تجيد التحدث بأكثر من لغة أجنبية، فكانت تقرأ كتباً بالإنكليزية والفرنسية والإيطالية. وكانت لها أخت واحدة تنافسها في الجمال والرقة والجاذبية. وكانت أسرتها تصطاف في كل عام على شاطىء «رأس البر» بمصر، وهناك التقت «فيكي» ولأول مرة مع الرجل الذي أحبها وحملها معه إلى بلاط فيصل بن الحسين، ملك العراق!

وكان هذا الرجل هو «رستم حيدر». . رئيس الديوان الملكي العراقي.

ما هي قصة هذا اللقاء؟؟ ومتى؟؟ وكيف بدأ وكيف تطور وكيف انتهى؟

لقد سألت «فيكي» عن كل هذه «الأمور» وأنا أخشى عليها من قسوة المرض، وأخشى على نفسي من حساسيتها أو غضبها، وأخشى أن يدخل علينا في تلك الساعة أحد الزوّار فيفسد علينا الخلوة ويفسد علينا الحديث، لولا أن «فيكي» تحايلت على نفسها، وجلست في سريرها وراحت تعدّل من أطراف ثوب النوم الوردي المنبسط بلا ترتيب فوق صدرها دون ذراعيها، ثم قالت وكأنها تمسك بالطرف المطلوب في حبل الذكريات البعيدة:

ـ كان «رستم حيدر» يمتاز بعقلية عصرية ترغم الناس على حبه واحترامه. ولولا لونه الشرقي لما استطاع أحد أن يتعرف على حقيقة اسمه ودينه وجنسيته. كان يتكلم اللغة الفرنسية كأحد أبنائها منذ أن

درس في كلية «السوربون» وتخرج منها! وكان حلو الحديث، أنيق المظهر، كثير المجاملة، يهوى الاستشهاد في كلامه بأسماء كبار رجال الأدب وكبار رجال القانون، ويحلّل أفكار الناس ويُعلّق على أحداث العالم! وكان عازباً بلا زوج ولا ولد مما جعله يشعر بشيء من الضعف أمام النساء، وخاصة إذا كانت المرأة منهن ـ مثلنا ـ تجيد التحدث باللغات الأجنبية وخاصة اللغة الفرنسية!..

وابتسمت «فيكي» قليلاً وهي تُحملق في سقف غرفتها داخل ذلك المستشفى الأنيق الذي يطلّ على شاطىء بحيرة «جنيف»، وقالت وكأنها قررت أن تفضح الأسرار بلا ضابط ولا حرج ولا تحفظ:

ـ وهكذا أحبني رستم حيدر! وبادلته هذا الحب! ثم دعاني لزيارة بغداد والتعرّف على كبار أصدقائه من الوزراء العراقيين اليهود، مثل «ساسون حزقيل» وزير المالية وغيره. وقد أقمت في بغداد أسابيع طويلة كان لا بد لي بعدها من العودة إلى مصر حرصاً مني على سمعة رستم حيدر وعلى منصبه الرفيع لدى الملك، ولكي لا يتسبب وجودي في بغداد بأي إحراج لهذا الرجل الذي كان اسمه محاطاً على الدوام بتيارات متضاربة من التقدير الممزوج بالنقد، والاحترام المجبول بالغمز، والإشادة بكفاءته العلمية والسياسية مع التلميح إلى مغامراته العاطفية وعلاقاته النسائية، وبالأخص أنه لم يكن عراقي الأصل ولم ينس يوماً دمه اللبناني «الشامي» أو مذهبه الشيعي، ولم ينقطع يوماً عن التغني ببلدته «بعلبك»، ولم يتردد يوماً في أن يجاهر الناس قائلاً لهم: «لقد ولدت في لبنان وسأموت في لبنان!».

واستمرت «فيكي» تقول لي بإصرار:

ـ وقبل أن أعود إلى مصر، همس «رستم» في أذني عبارة واحدة

لم أستطع أن أنساها مطلقاً! لقد قال لي وهو يودعني أنه لن يهجرني ولن يتركني، وأنه سيلحق بي قريباً، وأنه قد يعود إلى مصر ويلتقي بي بعد أيام قليلة..! ولم أكد أصل إلى مصر وأستقر في منزلي بـ «المعادي» حتى وصلتني منه برقية مستعجلة يطلب مني فيها أن أعد نفسي لكي أقوم بمهمة الممرضة الخاصة لجلالة الملك فيصل العراقي، وأن أعد حقائبي وثيابي وجواز سفري وأكون مستعدة للتوجه إلى ميناء الإسكندرية في ذلك اليوم من خريف عام 1933 وأصعد إلى الباخرة المبحرة من بيروت والمتوجهة إلى «نابولي»، كواحدة من حاشية الملك والممرضة الخاصة له..!

ورأيت «فيكي» تبتسم قليلاً وتضحك قليلاً وتصمت قليلاً، ثم تقول لي وما زالت تصر على الكلام:

- كان رستم يعلم أنني درستُ علم التمريض في المستشفى الإسرائيلي بالإسكندرية، وأنني قد اشتغلت كممرضة في ذلك المستشفى وفي مستشفى «بهمان» للأمراض العقلية في حلوان لفترات ليست قصيرة. وعندما طلب مني أن أهديه صورة فوتوغرافية لي، أهديته صورتي وأنا في ثياب الممرضات فأخذها مني وغمرها بقبلاته، وقال لي أنه لم ير في حياته من هي أجمل مني في ذلك الثوب الأبيض، ووضع الصورة في داخل محفظته، وكان يخرجها من حين لآخر لكي يُحدق فيها قليلاً ثم يُعيدها إلى المحفظة وهو يتمتم بكلمات الشوق والغرام! من يدري؟ لعله أراد أن يحملني برفقة الملك - معه - إلى أوروبا فلم يجد حجَّةً ولا غطاءً أحسن من أن يستعين بي كممرضة لكي يحقق غرضه في أن يأخذني معه! كان الرجل غاية في الدهاء والمكر وبارعاً في استبدال الأسباب الحقيقية بالأسباب

الظاهرية! وكان صديقاً للإنكليز عالماً بأساليبهم ومكرهم وألاعيبهم! وكان فوق ذلك، وقبل ذلك، يُحبني ولا يطيق فراقي! وهكذا، كنت حريصة على أن ألبي له رغبته وأن أطيع أوامره، وأن أحزم حقائبي وأعدّ جواز سفري وأرتدي ثياب الممرضات وأركب القطار وأسافر إلى الإسكندرية لكي أكون واقفة على الميناء بينما الباخرة التي تقل الملك، والحاشية، و «رستم حيدر»، تدخل إلى الرصيف المُعدّ لها. . .

ولم تزد المدة التي قضتها الباخرة في ميناء الإسكندرية عن ست ساعات، اتجهت بعدها صوب أوروبا!. ولكن مدة الساعات الست ـ على قلتها وضآلتها ـ قد اتسعت كل دقيقة فيها لأكثر من حدث. . خطير!.

فقد كان منتظراً وطبيعياً أن يكون الوزير البريطاني المفوض في مصر على رأس مستقبلي الملك العراقي عند مرور الباخرة في مياه الإسكندرية. ولكن، هل كان منتظراً أو طبيعياً أن ينضم بعض الرجال الدبلوماسيين البريطانيين في مصر إلى ركاب الباخرة ويسافرون عليها برفقة ملك العراق المسافر إلى أوروبا؟!.

وقد يكون منتظراً وطبيعياً أن تستطيع فتاة صغيرة وجذابة وساحرة، مثل «فيكي» أن تلفت إليها أنظار رُكاب الباخرة فيسألون عنها، أو يحاولون التقرّب إليها، أو يطاردونها بنظراتهم وكلامهم، ولكن هل كان منتظراً أو طبيعياً أن يكون أول عمل يقوم به هؤلاء الدبلوماسيون الإنكليز فور صعودهم إلى الباخرة هو السؤال عن الممرضة «فيكي» ودعوتها إلى خلوة طويلة تبودلت فيها التعليمات والتحيات والمعلومات والكلام الخطير؟!

ترى ماذا تقول «فيكي» في تفسيرها لكل هذه الأسئلة؟ وبماذا تجيب؟ وكيف تبرر وكيف ترد؟

قالت لي وقد اتسعت دائرة عينيها وارتسم بعض الشحوب الأصفر فوق خدّيها بسبب الإرهاق:

ـ أنا كنت صغيرة.. وذاكرتي لا تسعفني كثيراً. ولكني أذكر مثلاً أن شخصية بريطانية غامضة قد اتصلت بي فور إقلاع الباخرة ودعتني إلى تناول فنجان شاي في قاعة الصالون وكشفت لي عن منصبها وعملها، وطلبت مني بصراحة تامة أن أوافيها على مدى الأربع والعشرين ساعة بتفاصيل حالة الملك الصحية ونوع الحقن التي يأخذها وأقراص الدواء التي يتناولها قبل الأكل، ومع الأكل، وبعد الأكل، وعن أكله ونومه وحركاته ونشاطه.. ثم قالت لي تلك الشخصية الغامضة أن «رستم حيدر» ـ رئيس الديوان ـ لا يعترض على مثل هذا العمل، وأنه على علم تام به!. وعندما سألت «رستم» عن صحة ما سمعته من تلك الشخصية أجابني بهزة رأسه وكلمة بالفرنسية معناها يقول: «لا بأس!».

وهكذا أُحيطت الممرضة الصغيرة «فيكي» باهتمام هؤلاء الرجال الإنكليز الغامضين، وبتقديرهم وحُبهم وملاحقتهم! وعندما وصلت الباخرة التي تقل الملك إلى ميناء «جنوا»، كان القنصل البريطاني في استقبالها، وكانت الممرضة «فيكي» الشخصية الثانية التي يحرص القنصل على مصافحتها وتهنئتها بسلامة الوصول!.

وركبوا القطار إلى سويسرا: الملك وحاشيته.. وممرضته الصغيرة!

وفي محطة «بيرن» ـ العاصمة ـ كان السفير البريطاني في طليعة المستقبلين، وكانت الممرضة «فيكي»، الشخصية الثانية ـ بعد الملك ـ التي حرص السفير البريطاني على مصافحتها والتحدث إليها!.

قالت لي «فيكي» وما زالت عدسات عينيها مفتوحة في دهشة:

ـ وفي فندق «بيل فو»، اختاروا لي غرفة ملاصقة لغرفة الملك. وكانت غرفة رستم حيدر لا تبعد كثيراً عن غرفتي. وكانت مهمتي أن أرافق الملك في معظم ساعات الليل والنهار! كنتُ أول من يدخل عليه في الصباح، وآخر من يراه عند منتصف الليل. وفي اليوم الثاني من وصولي إلى بيرن، دعيت لمقابلة مجموعة من الأطباء السويسريين الذين كانوا يشرفون على علاج الملك. وكان واحد من بين هؤلاء الأطباء يعمل بمثابة الطبيب الخاص له. وهذا الطبيب هو الذي سلّمني مجموعة الحقن التي سأعطيها للملك. وهو الذي اختار له العلاج وشرح لي كيفية استعماله. وهو ـ أيضاً ـ الذي طلب مني أن أوافيه بتقارير سرية عن حالة الملك الصحية إثر كل حقنة من العلاج أعطيها له. ولم أكن أعلم أن هناك «جهة» أخرى ـ وبالتحديد ـ شخص آخر يشارك طبيب الملك الخاص في جميع اهتماماته بحالة الملك وصحته وتطور علاجه. فقد جاء السفير البريطاني في العاصمة السويسرية إلى فندق «بيل فو»، ودقّ على باب غرفتي، ودخل ويده ممدودة أمامه لمصافحتي. وبعد أن شرح لي بأن رئيس الديوان الملكي ـ السيد رستم حيدر ـ على علم بهذه الزيارة، طلب مني أن أطلعه على علب الحقن التي يتناولها الملك، وعلى أقراص الدواء وعلى المسكّنات وأدوية القلب والشرايين والأعصاب، وكان يفتح بنفسه كل علبة ويقرأ الأسماء المكتوبة عليها ويُمسك بالحقن واحدة

بعد واحدة ويرتبها على طريقته. وفجأة، دق بجانبي جرس التلفون وسمعتُ صوت «رستم حيدر» يطلبني لأمر هام. فتركت السفير البريطاني لوحده في غرفتي وخرجت ألبي «أوامر» «رستم حيدر»..! وعندما عدت إليها بعد حوالي عشر دقائق وجدت جميع علب الحقن وأقراص الدواء وقد أُعيد ترتيبها بعناية خاصة وبنظام يلفت النظر بحيث لم أعد واثقة تماماً بأن هذه العشرات من مجموعات الحقن وعلب الدواء هي المجموعات والعلب والحقن نفسها التي تركتها متناثرة بلا نظام فوق المائدة وبجانب السرير وأمام أدراج المكتب الصغير الذي يتوسط أرض الغرفة؟ هل أضيف إليها دواء آخر؟! هل زاد عددها؟! هل استُبدل الدواء القديم «بدواء» جديد؟ هل كان هذا الترتيب الحالي لهذه «الأجزاخانة» الصغيرة الخاصة بالملك، أمراً مقصوداً من أجل غاية مقصودة؟!!.

لقد ازداد وجه فيكي اصفراراً، ورأيت العرق البارد يتصبب من وجهها الأبيض الصغير. لعلها شعرت بأن حديثها معي قد مرّ على النقطة الحساسة أو النقطة القاتلة ـ في قصتها مع ملك العراق! لقد سمعتها تقول لي بأن الرجل الدبلوماسي الذي زارها في غرفتها في ذلك اليوم، قد دخل عليها وهو يحمل في يده حقيبة جلدية صغيرة من النوع الذي يحمله السفراء ورجال الأعمال، وأنها لم تعرف مطلقاً ماذا كان في داخل تلك الحقيبة عندما بدأت الزيارة، ولم تعرف مطلقاً ماذا بقي فيها عندما انتهت الزيارة! لقد سمعت «فيكي» تصرخ أمامي وكأنها تستغيث من شبح مخيف ظهر أمامها:

ـ لم أقدر أن أطلب من السفير البريطاني أن يفتح لي حقيبة يده كي أفحص ما بداخلها! ولم أقدر أن أحصي عشرات من علب الحقن

والأقراص المرصوصة أمامي كي أعرف ماذا نقص منها وماذا زاد عليها وماذا تبدّل فيها؟! لقد أصبت بدوار كدتُ معه أن أقع فوق أرض غرفتي مغشياً عليّ! وأدرك السفير حيرتي فاستأذن لارتباطه بموعد سابق على أن يعود ويتصل بي في المساء. ودخلت على جناح الملك فوجدته منزعجاً من شدة الحرّ وينوي الخروج للمشي في حديقة الفندق. ودعاني للخروج معه. وكنا وحدنا بلا حرس ولا عسكر. وراح الملك يشكو لي من تعب الأيام الأخيرة التي قضاها في بغداد بسبب حركة الأشوريين. ثم شكا من حملات الصحف الإنكليزية عليه لحساب تلك الحركة! كان يتحدث لي بصدق وبساطة وبدون أبهة ولا عظمة. كان في ذلك اليوم لا يرتدي الجاكيت ولا «السدارة» وكأنه في مظهره الرياضي يُشبه لاعباً إنكليزياً يمارس لعبة التنس أو لعبة الكريكت. ولكن الملك في حقيقته لم يكن يحب أن يُشبهه أحد بالإنكليز ولا بأهل الرياضة فيهم. كان يكرههم جميعاً وكانت أبغض الأسماء إلى قلبه هي أسماء السير «هنري دوبس» والسير «غلبرت كلايتون» والسير «فرنسيس همفريس» وثلاثتهم عملوا في وظيفة المندوب السامي البريطاني على العراق طيلة أيام الملك فيصل! وسألني الملك هل جاءت أخبار من زوجته الملكة «حزيمة» ومن ابنه غازي؟ وكان يبدو مهموماً. ثم قال لي أنه مدعو بعد يومين لتناول الغداء مع عائلة هندية معروفة اسمها «زوجة راجا» ومن صديقات الملك المقربات وسيكون الغداء في موقع مجاور عند رأس جبل من الجبال المحيطة بالعاصمة السويسرية! ثم روى لي أن رئيس تشريفاته تحسين قدري قد ذهب إلى فندق «بوريفاج» في مدينة «لوزان» وبعد أن طال به السهر واستبدّ به الهوى نام في غرفة الحمام بعد أن ترك حنفية المياه تصب الماء على أرض الحمام ثم تسقط منه إلى الأدوار السفلى

من بناية الفندق مما أزعج النزلاء ودفع بعضهم إلى ترك الفندق والانتقال إلى فنادق أخرى. ثم سألني الملك وهو ينظر إلى ساعته المُعلّقة في جيبه الصغير فوق قميصه الصيفي الملوّن: «هل حان موعد أخذ الحقنة؟؟».

قالت لي «فيكي»:

ـ ورجعنا إلى جناح الملك. وأعطيته الحقنة الطبية لعلاج الشرايين. وعندما عدتُ إلى غرفتي لكي أستريح وجدتُ السفير البريطاني بانتظاري وعلى فمه السؤال العادي: «كيف حال جلالة الملك؟» ثم راح يمطرني بعشرات من الأسئلة الدقيقة وكلها تدور حول الحالة الطبية للملك، وعدد الحقن، وعدد الحبوب المنومة، ومقياس الضغط، وسرعة النبض،... إلى آخره. ثم نهض السفير من مقعده وفتح خزانة الأدوية وفتح علبة الحقن وألقى عليها نظرة دقيقة ثم عاد وأغلقها وتركها في مكانها وهو يقول لي وخطواته تسبقه صوب الباب الخارجي: «سأراك في المساء لكي أتلقى بقية أخبار الملك!».

ترى ما معنى هذا الاهتمام المريب بصحة الملك؟؟ وما هذه الأسئلة السرّية المحرجة حول شخص الملك؟ ولماذا السفير البريطاني بالذات؟ ولماذا أنا بالذات؟ وهل هناك مؤامرة؟؟ وهل هناك خطر؟!.

قالت فيكي:

ـ ألف سؤال وسؤال هزّني وهدّ قلبي وحطّم أعصابي! كنت أنقل كل شيء إلى «رستم» فلا أجد عنده ما يبرر شكوكي! كنت أحب «رستم» وأعرف أنه يحبني وأنه لا يُخفي عني شيئاً قد أدفع ثمنه فيما بعد من عمري وحياتي..

ومضى اليوم الواحد، وجاء الغد.

واستمرت فيكي في أداء عملها وهي تغرس الحقنة في «عرق» الملك لكي تعالجه من مرض الشرايين وتحميه من ضربة القدر.

حقنة بعد حقنة! وأقراص بعد أقراص! وعلاج بعد علاج!.

وبعد ثلاثة أيام، ذهب الجميع إلى الجبل المجاور تلبية لدعوة النداء من زوجة «الراجا»! وكانت زوجة «الراجا» قد التقت الملك خلال زيارته الأخيرة للندن ودعته لتناول الغداء في «الشاليه» الخاص المُعلّق بين الأرض والسماء فوق ذلك الجبل العالي من جبال «الألب» المحيطة بالعاصمة السويسرية!.

وكان الملك في ذلك اليوم بكامل نشاطه وموفور صحته! وكان يضحك ويركض ويشرب ويأكل وكأنه شاب في العشرين من عمره! ولكنه عندما عاد بعد الظهر إلى جناحه الخاص في الفندق، بدأ يشعر بضيق في الصدر وتعب في الجسم! وجاءت «فيكي» وأعطته الحقن اللازمة. ولكنها، وقبل أن تخلع ثيابها لكي تستريح قبل حلول موعد العشاء، سمعت صوت تحسين قدري يناديها من وراء الباب كي تأتي بحقنة الإنعاش وتعطيها ـ فوراً ـ للملك! ودخلت فيكي على الملك فوجدته مستلقياً فوق سريره وقد ارتسمت خطوط زرقاء فوق وجهه. ورفعت فيكي سماعة التلفون وطلبت الطبيب الخاص. وتظاهرت بأنها نسيت شيئا في غرفتها وعليها أن تأتي به، واتصلت بالسفير البريطاني لكي تدعوه للمجيء. ولكن السفير ـ على ضوء حساباته وتوقعاته ـ كان جالساً في بهو الفندق بانتظار المفاجآت! وجاء الطبيب! وأعطيت الإسعافات اللازمة. ولكن الموت كان أقوى من كل شيء. إذ أغمض الملك عينيه، وفارق الحياة بعد ساعة واحدة..

وكان موجوداً حول سرير الملك عند وفاته: «رستم حيدر»، وتحسين قدري والممرضة «فيكي».. والسفير البريطاني!

قالت لي فيكي حكيم، أو الممرضة التي شهدت وفاة الملك فيصل بن الحسين وهي تعلق على الخبر:

ـ لا أدري لماذا أحسست في تلك اللحظة برغبة ملحّة تدفعني لكي ألطم وجه ذلك السفير البريطاني بيدي، أو أبصق عليه، أو أشتمه، أو أفعل أي شيء أطفىء به حقدي وشكي وقلقي وهواجسي!

وكان ذلك في يوم الثامن من شهر أيلول (سبتمبر) عام 1933، فنقل الجثمان إلى «برنديزي» ومنها على الطراد البريطاني ـ أجل البريطاني ـ المسمى «دسبتش» إلى حيفا بفلسطين، ومنها بالطائرة إلى بغداد..

❁ ❁ ❁

وعادت فيكي إلى أهلها في مصر حيث تعرفت هناك على شخصية سياسية معروفة هو «أحمد صديق باشا» محافظ الإسكندرية، وتزوجته. وصدر الأمر بنقل الباشا من الإدارة إلى السلك السياسي حيث أصبح سفيراً لمصر في اليابان! وفي اللحظة التي وصل فيها الباشا إلى «سنغافورة» في طريقه إلى طوكيو، أعلنت الحرب العالمية الثانية، فعاد الباشا فوراً إلى مصر، وأصبح يشغل منصب «الحارس على أملاك الأعداء من ألمان وطليان في الدولة المصرية».

واعتنقت فيكي دين الإسلام وتركت الدين اليهودي!.

وقامت ثورة 23 تموز (يوليو)، فقرر «صديق باشا» أن يهاجر إلى سويسرا وأن يقيم مع زوجته فيكي في مدينة لوزان.

والتقيت بها في لوزان!..

صوتها رفيع. ولهجتها مصرية «بنت بلد»، وتصوم رمضان وتحب الباشا زوجها، وتحب الحياة، وتروي الذكريات!..

وعندما سألتها عن أسماء الأشخاص الذين يحملون سرّ وفاة الملك فيصل بن الحسين في صدورهم، قالت على الفور:

ـ كان «رستم حيدر» يعرف سرّ القصة. ولكن الذين يعرفون عنه ذلك، قد قرروا التخلّص منه عندما أرسلوا إليه مفوض شرطة مفصول من عمله وأطلق عليه الرصاص فقتله في مكتبه بوزارة المالية ببغداد في منتصف شهر كانون الثاني (يناير) من عام 1940!.

سألتها: وماذا جرى للسفير البريطاني.. إيّاه؟

قالت: لقد قضت عليه الحرب!..

قلت: وماذا عن تحسين قدري؟

قالت: هذا الموضوع هو آخر همومه..

قلت لها وأنا أرفع يدها الصغيرة البيضاء وألثمها مودعاً، وشاكراً.. وحزيناً:

ـ وهكذا لم يبق منهم إلا فيكي! وأنا أرجو لك الصحة والعمر الطويل..

وبكت فيكي وهي تجيبني قائلة بصوت خنقته الدموع:

ـ أنا سألحق بهم قريباً! سألحق بفيصل، و «رستم» وبقية الأحباب!.

ثم افتعلت ضحكة قصيرة قالت لي من خلالها:

ـ من يدري؟ قد نكمل في «الآخرة» القصة التي بدأناها في هذه الدنيا، ولم يسمح لنا السفير الإنكليزي في «بيرن» أن نكملها في سويسرا..

ولم أرَ «فيكي» بعدها.

لقد زرت قبرها في لوزان، ووضعت عليه باقة ورد بلا اسم، ولا كلام.. ولا تفاصيل!.

فيوليت زابو(*)
(Violett Zabo)
(1945 -)

هي إحدى جاسوسات الحرب العالمية الثانية ضد ألمانيا النازية. وكانت فيوليت زابو من شبكة «كلارا مالرو» ذات شجاعة فائقة واستثنائية في خلال المعارك التي خاضتها ضد أنساق الحماية الألمانية، قبل أن يتم أسرها وسجنها مع أربعين ألف امرأة أخرى في معسكر «رافينسبورك» الذي أقامه النازيون بعد أن ازداد عدد النساء العميلات في صفوف الحلفاء، إضافة إلى معسكر المقر الخاص في بيركنو. وقد توفيت فيوليت زابو في السادس والعشرين من شهر كانون الثاني (يناير) من العام 1945.

(*) المرجع: جينو ڤيفا إيتيان وكلود مونيكيه «تاريخ الجاسوسية العالمية...». مرجع سابق. ص221.

فيوليتا سانيا(*)

(Violetta Sania)

(- 1960)

هي إحدى عميلات الجاسوسية السوفياتية، حيث اشتهرت باسم **الجاسوسة الحسناء**.

هذا ولم تختصر عادة توظيف الحسناوات في الأعمال الجاسوسية على المخابرات الغربية والإسرائيلية فقط، فقد برعت المخابرات السوفياتية أيضاً بتوظيف المرأة منذ عشرات السنين وحتى تاريخه وقد سلطت المخابرات السوفياتية السيدة فيوليتا سانيا المدربة تدريباً خاصاً على جميع أعمال المخابرات والتجسس للتجسس على السفارة الأميركية في موسكو من خلال رجال مشاة البحرية الأميركية المكلفين بحراسة السفارة الأميركية في موسكو فنجحت هذه المرأة في إقامة «علاقة عاطفية» مع عدد من هؤلاء الجنود الأميركيين لدرجة أنها استطاعت «فتح» أبواب السفارة الأميركية لغيرها من العملاء والخبراء السوفيات ليدخلوا إلى مكاتب السفارة ويخرجوا منها كما يشاؤون.

وخلال حفل العيد القومي الأميركي في السفارة الأميركية عام 1981 أقامت مشاة البحرية الأميركية (المكلفة بحراسة السفارة) حفل

(*) المرجع: سعيد الجزائري «ملف التسعينات..». ص251 ـ 255.

راقص في صالون السفارة، وكانت فيوليتا نجمة حلبة الرقص لما تتمتع به من جمال باهر وأناقة وتحرك بارع جعلها محط أنظار الجميع ولقبت بـ «أفروديت السوفياتية». ويذكر أحد الدبلوماسيين الأميركيين الحاضرين لهذا الاحتفال هذه الحادثة فيقول: بينما كان الجميع مشغولين في الرقص على الحلبة الواسعة في الصالة الرئيسية في السفارة الأميركية دخلت فيوليتا إلى مكان الاحتفال ووقفت على حافة حلبة الرقص الكبرى فلفتت الأنظار وهي ترتدي زياً أنيقاً يلهب الأنظار لدرجة أنني اعتقدت في بادىء الأمر أنها جاءت خصيصاً لتقديم عرض في الأزياء. ويضيف: لقد انبهرت بهذه المرأة الجميلة كثيراً كما انبهر غيري من الحضور فرقصت وأبدعت كما راقصت الكثيرين حتى انتهاء الحفل فتبرع «العريف في مشاة البحرية الأميركية كلايتون. جي. لونتري» بإيصالها إلى منزلها وكان من المبهورين بها وبجمالها ككل الحاضرين فهي من مواليد موسكو 1960 روسية جميلة جداً وأجمل ما فيها قوامها الرشيق وشعرها الأسود الطويل المنساب حتى منتصف ظهرها وعيناها السوداوان الواسعتان.

أمام منزلها وقف كلايتون يودعها حسب الطريقة الأميركية بالتقبيل ولكنها كانت «كريمة» معه وحسب الطريقة الأميركية دعته لشرب كأس وأفهمته أنها مطلقة لمهندس مدني وتعيش لوحدها فدخل كلايتون منزلها. وبدأت العلاقة العاطفية بينهما وهي علاقة إعجاب وحب من طرف واحد هو العريف كلايتون، بينما فيوليتا كانت تضحي ـ وهذا هو عملها ـ بتمثيل دور المرأة الروسية الفتية التي تبادل شخصاً أميركياً عواطفه بعد أن نجحت من أول نظرة في إسقاط كلايتون في حبائلها وهو ابن زعيم إحدى القبائل الهندية وتدعى «نافاجو». وبين عشية وضحاها ومن دون أن يدري تحوّل من ضابط صف أميركي

مكلف بحراسة السفارة إلى «جاسوس» لصالح المخابرات السوفياتية. ولم يقتصر الحال عليه وحده فقط فقد استطاعت الجاسوسة الروسيّة أيضاً «إغواء» صديق كلايتون وزميله في العمل الجندي «أرنولد براسي» من مواليد 1961 الذي عرفته على صديقتها «زاشا» التي تعمل كطباخة في السفارة فأقام بدوره علاقة حب وعاطفة معها.

وبعد فترة قصيرة من إقامة هذه العلاقة «المزدوجة» استطاعت فيوليتا أن تجعل كلايتون وأرنولد يقدمان لها معلومات على جانب كبير من الأهمية. ولم يقتصر الأمر على تقديم المعلومات السرية بل إن الأميركيين «سمحا» لخبراء المخابرات السوفياتية بالدخول إلى المرافق والمكاتب الأمنية في السفارة، وذلك أثناء توليهما مهمة الحراسة الليلية في السفارة. وبهذه الطريقة تمكنت فيوليتا وزميلتها زاشا من تصوير الوثائق السرية في السفارة ثم الحصول على الرمز السري «الشيفرة» الذي يستطيع بواسطته المختصّون في السفارة من فتح أية خزانة أو مكتب داخل السفارة. وهكذا سالت المعلومات المتوفرة في السفارة الأميركية إلى المخابرات السوفياتية ثم ظهرت نتائجها أو نتائج الاطلاع عليها لدى المسؤولين في البيت الأبيض والبنتاغون «وزارة الدفاع الأميركية» ووزارة الخارجية. واعتبرت هذه العملية «فضيحة» في سلسلة الفضائح التي سبق وتعرضت لها إدارة الرئيس ريغان في فترة رئاسته الثانية التي أوشكت على الانتهاء.

بدأ خبراء وواضعو السياسة الأميركية يتساءلون: هل استطاع الروس الوصول إلى الخزائن السرية في السفارة؟ وهل حصلوا على كافة المعلومات الأمنية والسياسية السرية المخبأة في تلك الخزائن في الوقت الذي كان فيه وزير الخارجية الأميركية جورج شولتز يهيىء نفسه للقيام بزيارة للاتحاد السوفياتي (تمت الزيارة في 13 نيسان

(أبريل) 1987). كيف سيتناقش مع زعماء الكرملين وهو يعلم تماماً بأنهم حصلوا على معلومات سرية عن بلاده لا يعلمها هو شخصياً؟ وتساءل شولتز: كيف أستطيع أن أتفاوض مع السوفيات حول قضايا الرقابة على التسلح وإزالة الصواريخ النووية متوسطة المدى من أوروبا في الوقت الذي لا أستطيع فيه الاتصال من موسكو مع البيت الأبيض والرئيس ريغان للتشاور معه حول المسائل التي قد نتوصل إليها والتي تحتاج لبحث مباشر مع واشنطن في الوقت الذي أعلم فيه جيداً أن تلك الاتصالات خاضعة للرقابة والعمليات التجسسية. وتساءل شولتز أيضاً: أليست الحقيبة الدبلوماسية والسفارة هما المصدر الوحيد الذي أستطيع بواسطته الاتصال مع واشنطن؟ فكيف سيتم ذلك وأفراد السفارة أنفسهم أصبحوا «جواسيس» للمخابرات السوفياتية.

وفي غضون ذلك قررت الولايات المتحدة «استدعاء» جميع حراس السفارة من مشاة البحرية الأميركية وعددهم ثمانية وعشرون إلى واشنطن للتحقيق معهم وعلى رأسهم كلايتون وأرنولد فطلبت من السفير إعادتهم فوراً للخضوع لعملية تحقيق كما طلبت الولايات المتحدة من جميع عملائها ودبلوماسييها العاملين في موسكو العودة إلى واشنطن لنفس الغاية ولكن بفارق زمني معقول لكي لا تكتشف المخابرات السوفياتية غيابهم؟ وقررت استبدال الحرس بآخرين جدد كما حظرت وزارة الخارجية الأميركية على كافة موظفي السفارة من دبلوماسيين وسكرتارية استخدام الآلات الكاتبة الإلكترونية وأجهزة الكمبيوتر الشخصية وأجهزة النسخ حتى إشعار آخر «في حينه». وقال مسؤولون في وزارة الخارجية الأميركية «إن العدو يسمع ويقرأ كل ما يتم داخل السفارة من خلال هذه الأجهزة ولذلك يجب على العاملين في السفارة الامتناع عن استخدامها إلى أن تنجلي الأمور نهائياً». وأما

السفير أرثر هارتمان فقد قال بمرارة كبيرة: لقد سبق أن واجهنا مشاكل كثيرة في السابق مع المارينز «حراس السفارة» ولكن لم نواجه مثل هذه المشكلة، فهي لطمة قوية ومأساة كبيرة بالنسبة لنا... إنني لم أتخيّل في يوم من الأيام أن تتعرض سفارتنا هنا في موسكو إلى مثل هذا الموقف. واستطرد السفير هارتمان قائلاً: لقد اضطررنا في أحد الأوقات إلى إعادة عدد من جنود «المارينز» إلى واشنطن بعد أن ضبطوا متلبسين ببيع دولارات في السوق السوداء في موسكو. وأضاف أن أوامر مشددة كانت تصدر بين الحين والآخر تحظر على العاملين في السفارة من دبلوماسيين وحراس وموظفين التورط في «قصص حب غرامية» مع الروس. وقال هارتمان وهو يوجه أصابع الاتهام إلى وزارة الخارجية الأميركية في واشنطن «لقد سبق أن طلبت من واشنطن تغيير طاقم حراس السفارة قبل وقت طويل ولكن هذا الطلب ذهب مع الريح ولم يتم تنفيذه، وكنت أشعر بمدى العذاب النفسي الذي يتعرض له هؤلاء الحراس، خاصة وأن غالبيتهم من المتزوجين والبعيدين عن زوجاتهم. أشار السفير إلى أن هؤلاء الجنود المحرومين من الاختلاط مع الأجانب كان من السهل التأثير عليهم من خلال النساء الروسيات الجميلات اللواتي كن يعملن كجواسيس للاتحاد السوفياتي. وقال إن أفضل مثال على ذلك «نجاح الجاسوسة السوفياتية فيوليتا في إغواء ضابط الصف كلايتون والتأثير عليه عاطفياً وتحويله من مدافع عن بلاده إلى «جاسوس» عليها.

وطبقاً لما ذكرته بعض المصادر المؤكدة فإن فيوليتا التقت سبع مرات على الأقل مع كلايتون بعد الحفل الراقص الذي أقيم في السفارة الأميركية بالإضافة إلى عمليات الدخول إلى السفارة مع زميله أرنولد وصديقته الروسية **زاشا** التي تبين فيما بعد أنها موظفة رسمياً في

الكي.ج.بي واسمها الحقيقي هو **ماريا ألكسي جيفيموف**. وهكذا أضيفت فضيحة التجسس هذه إلى قائمة الفضائح المخابراتية التي واجهتها الولايات المتحدة. وقد أذاعت محطة لندن في 25/ 8/ 1987 أنه صدر الحكم على كلايتون بالسجن ثلاثين عاماً عوضاً عن السجن المؤبد الذي طلبه له المدعي العام الأميركي.

الفهرس